الفيصل

مجلة ثقافية شهرية . العدد ٢٧٩ . رمضان ١٤٢٠هـ . ديسمبر ١٩٩٩ / يناير ٢٠٠٠م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 279 - DEC. 1999 / JAN. 2000

○ هل يصوم مريض القلب؟

○ بيت المتنبي في حلب



○ معرض الخط العربي

○ أمن المعلومات وجرائم الحاسوب

سقطرة.. جزيرة الرخاء

في جميـع مســاعيـهـا

حرصت الفيصلية على تكريس جل جهودها وإمكاناتها لتحقيق هدف واحد. هو كيفية تطوير سبل الحياة في شتى ميادينها والإرتقاء بها إلى أفضل المستويات. ولتحقيق هذا الهدف فقد أقامت الفيصلية شراكات راسخة مع بعض من أشهر الماركات التجارية في العالم.

ففي منازلنا. نجد سوني SONY قد ساعدتنا في تعزيز أسلوب حياتنا اليومية على نحو أكثر متعة وإثارة. بينما نجد ميجاستار أكبر شركات الموسيقى في الشرق الأوسط قد منحتنا البهجة والسعادة بما تقدمه لنا من فنون أصيلة وموسيقى راقية. أما في مكاتبنا ومدارسنا ومنازلنا. فنجد أن HEWLETT PACKARD hp تواصل باستمرار تقدمها لتحقيق التميُّز النوعي في مجال أتمتة المكاتب. والتعليم والثقافة والمعرفة. والإستفادة القصوى من تقنية المعلومات بواسطة الكمبيوتر. كما نجد أن مئات الآلاف من الأسر في كافة أرجاء المملكة العربية السعودية تفضل حليب ومنتجات الصافي ALSAFI الطبيعية التي توفرها لهم أكبر وأضخم مزرعة ألبان متكاملة في العالم. وفي محلات السوبرماركت والزهور نمدكم بأرقى أنواع الورود والزهور الطبيعية والخضروات الطازجة التي يتم زراعتها بواسطة مؤسسة الفيصلية الزراعية. وفي مجال وقود السيارات نجد شركة Ethyl الرائدة عالمياً في صناعة المواد الكيميائية تقوم بانتاج المواد المضافة ذات الجودة العالية التي يتم استخدامها في تحسين وقود السيارات. كما نجد أن المستشفيات والمستوصفات الطبية تعتمد بدرجة كبيرة على كفاءة أجهزة TOSHIBA Medical Systems الطبية في أغراض التشخيص وغيرها من الأمور الطبية. فمن أجهزة التسلية وأنظمة الكمبيوتر والصناعات الكيميائية إلى منتجات الألبان الطازجة والخضروات والزهور الطبيعية. كرسنا جهودنا وسخرنا إمكاناتنا لنحقق التميُّز والهدف المنشود.



مَجمُوعَة الفيصَليَة
Al Faisaliah Group

شارع العلياء العام - مركز النمر التجاري. ص . ب ١١٤٦٠ الرياض ١١٤٦٠ المملكة العربية السعودية - هاتف: ٤٦١٠٠٧٧ - فاكس: ٤٦٤٠٤٩٨

الفيصل
الناشر: دار الفيصل الثقافية

المحتويات

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
- في حال إرسال قصة مترجمة، يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدراً من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض يشمل: عنوانه واسم مؤلفه ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
  - يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
  - يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
  - التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
  - تشكيل الشعر ما أمكن، وخصوصاً القديم منه.
  - ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

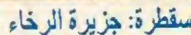
الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

السعر الإفرادي:

السعودية ٨ ريالات - الكويت ٦٥٠ فلس - الإمارات ٧ دراهم - قطر ٧ ريالات - البحرين ٧٥٠ فلس - عمان ٧٥٠ بيسة - الأردن ٥٠٠ فلس - اليمن ٦٠ ريالاً - مصر جنيهان - السودان ١٥٠ جنيه - المغرب ٨ دراهم - تونس دينار واحد - الجزائر ٨٠ ديناراً - العراق ٤٠٠ فلس - سورية ٣٠ ليرة - ليبيا ٨٠٠ درهم - موريتانيا ١٠٠ أوقية - الصومال ٢٠٠٠ شلن - جيبوتي ١٥٠ فرنك - لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية - الباكستان ٢٠ روبية - المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

مصر - مؤسسة توزيع الأهرام - شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ - فاكس ٣٣٩١٠٩٦ - ٢٠٢٠٠، سورية - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ١٢٠٣٥ هاتف ٢١٢٨٢٤٨ فاكس ٢١٢٢٥٣٢ - ١١ - ٩٦٣٠٠، تونس - الشركة التونسية للصحافة - ٣نهج المغرب - فاكس ٣٢٣٠٠٤/ هاتف ٣٢٢٤٩٩ - ١ - ٢١٦٠٠، قطر - دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع - ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٦٦١٢٨٢ - فاكس ٦٦١٨٦٥ - ٩٧٤٠٠، الأردن - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ - فاكس ٤٦٣٥١٥٢ - ٦ - ٩٦٢٠٠، البحرين - مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ - فاكس ٥٣١٢٨١ - ٩٧٣٠٠، الإمارات العربية المتحدة - مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٦٦٥٣٩٤ - فاكس ٦٦٩٨٢٧ - ٤ - ٩٧١٠٠، الجزائر - مؤسسة E.B.D. PRESSE لتوزيع الصحافة. ت ٤٨٦١٥٥٥ فاكس ٤٨٦٢٤١٥ - ٢١٣٠٠، الكويت - شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ - فاكس ٢٤١٧٨٠٩ - ٩٦٥٠٠، السودان - دار التوزيع العام - ص.ب ٣٥٨ هاتف ٧٧٥٥٨٥ - فاكس ٧٧٥٧٧٠ - ١١ - ٢٤٩٠٠، المغرب - CAS - SOCHPRESS - CAS - CASABLANCA - MOROCO TEL: ٢٤٥٧٤٥، فاكس ٣٢/٣١٠٤٠٤-٢١٢٠٠، باكستان PARADIS BOOK STALL - KARACHI 3. PAKISTAN TEL: ٥٦٨٣٤٩٤ - فاكس ٥٦٨٢٧٠٤-٢١-٩٢٠٠، الجمهورية اليمنية - محلات قائد التجارية ص.ب ٣٠٨٤ الحديدة هاتف ٢١٧٤٤٤ - فاكس ٢١١٥٣٥ - ٣ - ٩٦٧٠٠، سلطنة عمان - المتحدة لخدمة وسائل الإعلام - ص.ب ٣٣٠٥ روي ١١٢ ت:٧٠٠٨٩٥ / ٧٠٧٩٣٢ - فاكس ٧٠٦٥١٢ - ٩٦٨٠٠



سقطرة: جزيرة الرخاء

سقطرة جزيرة تقع في المحيط الهندي، بدأ تاريخها مع تاريخ أقدم الحضارات في الشرق، وعرفت باسم «جزيرة الرخاء»، زارها المستشرق الروسي فيتالي نعومكين أول مرة في عام ١٩٧٤م، ثم عاد مؤخراً ليقلب أوراقه الصفراء، مقدماً خلفية تاريخية عن نشأة هذه الجزيرة، وراصداً التغيرات التي طرأت عليها منذ أول زيارة له.

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ - ٤٦٥٢٢٥٥

ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات،

أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات:

هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ - ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد

مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢

ردمد ١١٤٠-٠٢٥٨

جميلة دائمًا!!

أبعث لكم برسالتي هذه وأنا أتمنى أن تكونوا جميعًا بخير حال، وأشكر لكم جهودكم وتعبكم في إعداد المجلة وإخراجها في هذه الصورة المشرفة والمتميزة.

أود أن أشكركم جزيل الشكر على اهتمامكم برسالتي السابقة التي استفسرت عن الجائزة التي فزت بها في مسابقة مجلة الفيصل وهي مسابقة العدد ٢٣٣، وكانت الجائزة مجموعة من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض. وأود إخباركم أن الجائزة قد وصلتني، والحمد لله، وأنا لكم من الشاكرين، وقد سعدت كثيراً بها وباهتمامكم اللطيف برسائل القراء وجزاكم الله خيراً.

أما بالنسبة إلى المجلة فالحق أنها كانت جميلة ومتميزة في السابق، وهي الآن أكثر جمالاً وتميزاً، أتمنى لكم دوام التميز والتطور. ويا حبذا لو عادت «المسابقة» فإنها كانت من الأبواب المتميزة، التي يسعدنا استمرارها إذا كان ذلك ممكناً، وعموماً المجلة جميلة في جميع أحوالها، وأتمنى لكم دوام النجاح والتفوق والتميز.

أكرر شكري لكم جميعاً على اهتمامكم بجائزتي والتكرم بإرسالها. وتقبلوا وافر شكري واحترامي وسلامي للجميع.

كريمة محمد نور ناصر
دمشق - سورية

التحرير:

كما تعلمون فإن الحرص على الوفاء بأي التزام دليل المصداقية، وهذا ما نأمله في تعاملنا مع القراء الأعزاء. ونشكر لك إطراءك على المجلة، وقد عادت المسابقة ابتداء من العدد الماضي، وبقية الاقتراحات سيتم النظر فيها إن شاء الله.

تصحيح ورجاء!!

رسالتي هذه التي أرسلها إلى «الفيصل» الغراء كما يحلو أن أسميها وأصفها هي الأولى في ظل رئاستكم الميمونة لتحريرها مع أنني من كتاب «الفيصل» منذ صدور عددها الأول في عام ١٩٧٨م. وأحافظ عليها محافظتي على الواجب الملقى على عاتقي، وأقتنيها ولها مكانها ومكانتها في قلبي وفي رفوف مكتبتي المتواضعة. ولكني تغيبت عن المراسلة والكتابة مدة تقارب العام - حيث كانت آخر مقالة منشورة لي في هذه المجلة التي تطاول أعنان السماء وأنا لا أبالغ في ذلك فقد بزّت شقيقاتها العربيات بل تفوقت عليهن بما تحويه من إخراج جيد مفعم بالثقافة والحيوية، والأبواب الجديدة، والمقالات الرصينة الجميلة الهادفة والشائقة.. كانت آخر مقالة منشورة لي في عدد رجب ١٤١٩هـ - أكتوبر/نوفمبر ١٩٩٨م. وكانت تعقيباً بعنوان «أدباء أطباء وأدب الأمثال» وجاء الاسم الخاص بي كما هو بالمجلة إبراهيم عبدالعزيز شرف وهذا خطأ وقعت فيه المجلة بل الاسم الصحيح الذي أرجو أن يصوّب ويصحح هو إبراهيم عبدالوهاب شرف، وقد كتبت في المجلة من أجل تصويب اسم صاحب التعقيب دون جدوى والظاهر أن تغيير هيئات التحرير والفترة الانتقالية بين إدارة وأخرى تحدث ربكة وهزة عنيفة فتأتي الأخطاء، وهذا ما توقعته منذ صدور عدد رجب المشار إليه آنفاً. إذ جاء العدد خلواً من الافتتاحية والخاصة برئيس التحرير السابق الذي نكن له كل احترام وتقدير الدكتور زيد بن عبدالمحسن الحسين..

وتأتي أسباب عدم مواصلة الكتابة للفيصل الحبيب هذه المدة التي أشرفت على السنة لأن المجلة في ثوبها الجديد أغلقت الأبواب الثابتة التي عهدناها، وتعودنا عليها، وألفناها، والتي كانت تأخذ بأيدي الأدباء الشباب والواعدين، والتي تتمثل في باب القصة القصيرة للشباب، وكتابات الأستاذ الدكتور حسن ظاظا - رحمه الله - الفيلسوف كما كنت أتحاور معه والذي دبج إن صح هذا التعبير أرقى وأجمل الكتابات والمقالات عن اليهود واليهودية والتي كنا بوصفنا جمهور قراء الفيصل الغراء نحرص على قراءتها والتعقيب عليها ومحاورة هذا الفذ الذي رحل عنا ولقي رحاب ربه منذ شهور قليلة. فرحمه الله وغفر لنا وله.. وأيضاً باب التعقيبات والتعليقات على ما يكتب بالمجلة، وكنت أنا واحداً من هؤلاء الذين تزخر بهم مجلتنا الحبيبة.. إذ كنت أمارس الكتابة بانتظام.. وقد سعدت كثيراً بعودة هذا الباب تحت اسم «ردود وتعقيبات» استجابة لرغبات القراء ومحبي الفيصل.

ولنا رجاء يتمثل في ضرورة الاتصال بأحد الكتاب عن الفكر اليهودي واليهودية والصهيونية العالمية ليكتب لنا في هذا المجال عوضاً عن دكتور حسن ظاظا - لأن مقال هذا الرجل تفتقده المجلة.. وأحس وأنا أتابع الفيصل أنها قد فقدت مقالاً رائداً لأحد رواد الكتابات السامية واللغة العبرية والذي ظل زهاء نصف قرن تقريباً يكتب في هذا الموضوع المهم.

ورجاء أخير أن تزود المجلة بالملاحق التي كانت تصدر معها وتحمل إلى القارئ موضوعات في مناسبات عامة وكانت تصدر كهدايا. فهي مهمة جداً. وأيضاً الكشاف السنوي العام الذي يضيء للقارئ الموضوعات التي تم نشرها في المجلة على مدار عام كامل.. فهو لازمة من لوازم المجلة.

وأخيراً وليس آخراً تحياتي وامتناني لسيادتكم وإلى العاملين بفيصلنا الغراء كافة متمنياً للمجلة ولهذا الصرح الذي يحمل اسم الفيصل كل سؤدد وازدهار.

إبراهيم عبدالوهاب شرف
جامعة المنصورة - مصر

التحرير:

نأسف على الخطأ الذي وقع في اسمكم، وها نحن أولاء ننشر رسالتكم تصحيحًا لهذا الخطأ. ونحن معكم أن مقالة الدكتور حسن ظاظا - يرحمه الله - كانت تزين المجلة، ولكن

نفيدكم أن المجلة لاتزال حريصة على نشر مقالات عن الفكر اليهودي، وبعودة إلى بعض الأعداد الأخيرة من المجلة يتأكد لك ذلك، حيث نشرت مقالات بأقلام عدد من المهتمين بهذا الفكر. أما عن اقتراحكم الخاص بالملاحق فنفيدكم أنه قد صدرت ملاحق خاصة بجائزة الملك فيصل العالمية وسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز وفضيلة الشيخ علي الطنطاوي، كما أن هناك عدداً متميزاً قد صدر بمناسبة مئوية تأسيس المملكة العربية السعودية، كما أن الملحق السنوي صدر مع عدد رجب الماضي. أما أول عدد من «الفيصل» فقد كان صدوره في رجب ١٣٩٧هـ الموافق يونيو / حزيران ١٩٧٧م.

عدد متميز

في البداية أود أن أبارك لكم هذه الجهود التي تقومون بها في سبيل إخراج المجلة على الوجه المطلوب من خلال توفير المعلومات المفيدة والرائعة، حيث إن المجلة جزء من مكتبة المنزل الخاصة لما تحويه من مواضيع ذات قيمة.

اطلعت على العدد ٢٧٦ لهذا الشهر، ووجدت ما به من مواضيع جيدة جداً، ولي طلب آمل أن أجده لديكم، وهو أني أرغب في تزويدي بعنوان مركز التاريخ والثقافة الإسلامية في نيجيريا. وأيضاً أن تدلوني على بعض الكتب التي تتحدث عن الثقافة في إفريقية. وأخيراً آمل تزويدي ببعض أعداد المجلة «الفيصل» مع قائمة بإصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. كي يتسنى لي اقتناؤها.

وختاماً أقدم لكم خالص الشكر والتقدير على اهتمامكم.

أحمد علي هوساوي

جدة ٢١٤٨٤ ـ ص.ب ١٧٣٧٠

التحرير:

نشكر لكم إطراءكم على المجلة، ونأمل أن تكون دائماً عند حسن ظن القراء، ونأسف إبلاغكم أنه لا يتوافر لنا العنوان الذي طلبته، وسوف نرسل إليك قائمة عن الموضوع الذي طلبته إلى جانب قائمة بإصدارات المركز.

الاحتراز من الأحاديث الموضوعة

أتقدم إليكم برسالتي هذه معرباً لكم والسادة الكتّاب والفنيين والعاملين بالمجلة عن عميق ارتياحي وحبي وإكباري لكم على جهودكم الكبيرة في خدمة الإسلام والمسلمين واللغة العربية المكرمة، وعلى كل ما تبذلونه في هذا الاتجاه، وسدد الله خطاكم.

كاتب الرسالة التي بين أيديكم يحب هذه المطبوعة وأرضها، وأنا الذي كنت أعمل لدى وزارة الصحة بالمملكة العربية السعودية ممرضاً بمستشفى الملك فيصل بالطائف، عملت نحو ثماني سنوات، أتقدم برسالتي هذه راجياً من رئيس التحرير ومن له الأمر التلطف بالنظر في طلبي هذا والمتمثل في إدراج ركن بالمجلة يكون لطرح حديث موضوع وتفسيره وتبيانه للناس، ولكل القراء، والاحتراز كل الاحتراز من هذه الأحاديث المذكورة كذباً على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا من قبيل درء الفتن التي عصفت أو كادت تعصف بالأمة الإسلامية والعربية والله المستعان على كل مكروه وطلبي هذا ليس بعزيز على من نذروا أنفسهم وأموالهم للذود عن حمى دين الله ولو كره الكافرون.

عثمان بن علي مزالي

الحي الثاني ـ عدد ١٥١ المنستير ٥٠٠٠ تونس

التحرير:

نشكر لكم اقتراحكم، وكل ما يرد من الإخوة القراء من آراء واقتراحات سيجد الاهتمام الكافي، داعين الله لكم بالتوفيق.

ردود سريعة

الأخ حسين محمد علي ـ حماة ـ سورية:

أن تتناول مقالة لكاتب من الكتاب شخصية رائدة في أي مجال من المجالات ليس مسوغاً كافياً لتجاز المقالة للنشر؛ لأن هناك معايير كثيرة تتحكم في عملية الإجازة، من أهمها: مدى جدة ما جاء في المقالة، وهل سبق تناول الشخصية نفسها في المجلة من وقت قريب؟ وهل هناك مقالات أخرى عن الموضوع نفسه أكثر عمقاً؟ وهناك معايير أخرى عدة يتم على ضوئها الحكم على المادة.

وقد تناولت مقالات كثيرة شخصية بوشكين، وكانت آخرها في ذكرى ميلاده المئتين، فليس هناك ما يدعو إلى الإزعاج والمطالبة بالعدل والإنصاف، لأن المجلة حريصة على أن تفتح صفحاتها لكل المبدعين من غير تمييز وفق ما لديها من معايير موضوعية.

الأخ عمر محمد الحسن شاع الدين، أم روابة ـ ص.ب ١٩ ـ السودان:

نشكر لك إطراءك على المجلة، أما مجلة الدراسات اللغوية، فقد صدر منها عددان، وبخصوص عدم ورود رد على خطابك إلى المجلة، فقد أحيلت الرسالة إلى قسم الاختصاص، وسوف يرسل إليك العددان اللذان صدرا منها. ومرحباً بمشاركتك سواء في مجلة الفيصل أو في مجلة الدراسات اللغوية.

الأخت هاجر برباز ـ المغرب:

كنا نود لو نستطيع تحقيق طلبك، ولكن لا يتوافر لدينا هذا الكتاب «دليل جامعات العالم الإسلامي»، الذي يمكنك طلبه من جهة النشر وهي المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ومقرها في الرباط، ونشكر لك إطراءك على المجلة ونأمل أن نكون عند حسن ظن القراء جميعاً.

الأخ شايب عبدالقادر ـ غليزان ـ الجزائر:

ستصل إليك قائمة بعناوين الكتب الصادرة عن دار الفيصل الثقافية، ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، أما المجلات والمراكز العلمية فهي كثيرة، ولا يمكن إيجازها في أسطر قليلة.

الأخت نور الهدى قباني ـ دمشق ـ سورية:

حروفك المسكينة ـ على حد تعبيرك ـ تدل على موهبة تحتاج إلى صقل بالقراءة المتعمقة، ومحاولات الكتابة بلا يأس لتصل إلى مرحلة النضج والانطلاق أمر محمود، ومن سار على الدرب وصل، كما يقولون، نتمنى لك التوفيق في مشوار الكتابة الصعب.

معرض الخط العربي

عصور من الإبداع الفني

حسين حسن حسين

يسرت الآلة للإنسان أساليب الحياة، ونقلته إلى مراحل متقدمة في السلم الحضاري، لم يكن يحلم بها، ومع ذلك، تنتاب هذا الإنسان لحظات من التأمل يشعر فيها أن الآلة تسببت في تنميط بعض جوانب حياته، حتى أفقدتها الروح الإنسانية، ويتنامى هذا الشعور عند ملامسة مواطن الفن في دواخل الإنسان.

وهذا الشعور يتملك كل إنسان يتجول في أجنحة معرض الخط العربي الذي نظمته الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض في قصر طويق، والذي ضم أشكالاً وأنماطًا متنوعة من الخط العربي في مختلف العصور جسدت ما يتميز به هذا الضرب من الفن من روح إنسانية عالية تتحدى الجمود والتأطير.

وغطى المعرض فترة زمنية تمتد من القرن الأول إلى بدايات القرن الثالث عشر الهجري، أما الفضاء المكاني فجاء متسعًا باتساع هذا العالم، إذ نجد إبداعات خطاطين ينتمون إلى كل القارات تقريبًا، مما يوضح التأثيرات الممتدة للحضارة



شعار المعرض

العربية الإسلامية، وإسهاماتها العميقة في التراث الإنساني.

ومن مزايا هذا المعرض التعريف بخطاطين وفنانين في مختلف بقاع العالم العربي والإسلامي مما يؤكد تجدد هذا الفن، واستمراريته في الإفادة من تجارب الآخرين والمزاوجة الواعية بين القديم والجديد، وقد صاحب هذا المعرض ندوات تناولت جوانب مختلفة من هذا الفن العربي الأصيل، مما عمق من فوائد المعرض للمختص والمهتم على حد سواء.

قاعة المتحفيات

واشتمل المعرض على قاعات وأجنحة مختلفة، وأولى هذه القاعات قاعة



شاهد قبر من حجر البازلت الأسمر مكتوب بخط النسخ (٨٧٤هـ/١٤٦٩م) محفوظ في وكالة وزارة المعارف للآثار والمتاحف

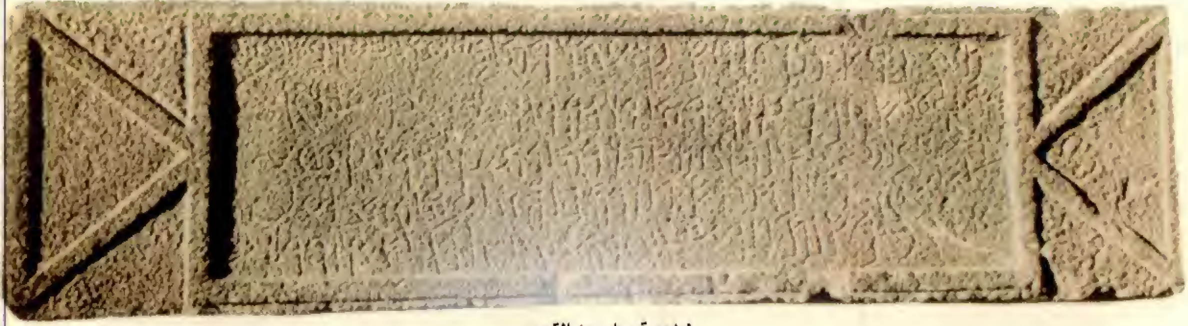
المتحفيات التي ضمت عدداً من الأجنحة، منها: جناح الكتابات في شبه الجزيرة العربية: وعرضت فيه بعض اللوحات التوضيحية التفصيلية التي تبين بدايات الكتابة في الجزيرة العربية، وأشكال الخطوط المستخدمة، التي تتنوع تنوعًا كبيراً، لتطور كل خط من هذه الخطوط ضمن إطاره الجغرافي، فلذلك كان الاختلاف والتنوع واضحًا في رسم أشكال حروف كل خط.

وعلى الرغم من هذا الاختلاف والتنوع إلا أن الدراسات العلمية تؤكد أن كل هذه الخطوط مشتقة من أصل واحد يعرف بالأبجدية السينائية، وتثبت النقوش والكتابات التي وجدت في واجهات الجبال في شبه الجزيرة العربية عمق تأثير العرب في مسيرة الحضارة الإنسانية بامتلاكهم أدوات الثقافة، وعملهم على تأصيلها.

ومن أنواع الخطوط التي تضمنتها النقوش المعروضة خط المسند وخط الزبور والخط الثمودي والخط الداداني والخط اللحياني والخط الصفوي والخط الآرامي والخط النبطي، ولمسمى كل خط من هذه الخطوط دلالاته، فخط المسند - كما جاء في «المختار» الصادر عن الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض - يطلق عليه هذا الاسم ربما لإسناد أشكال حروفه بعضها إلى بعض، ويكتسب خط الزبور هذا الاسم استناداً إلى ورود الفعل زبر بمعنى كتب في مجموعة نقوش هذا الخط، والخط الثمودي جاء من ظهور لفظة «هثمد»، في بعض نصوص هذا الخط وينتسب الخط الداداني إلى مملكة دادان العربية (العلا حاليًا)، كما ينتسب خط اللحياني إلى مملكة لحيان التي اتخذت من دادان مركزاً لها، بينما سمي



حجر أساس لقلعة بالقطيف من الصخر الحجري المرجاني (٩٦٨هـ/١٥٦٠م)



شاهد قبر امرئ القيس

الخط الصفوي بهذا الاسم نسبة إلى حرة الصفا الواقعة في الجنوب الشرقي من دمشق، وينتسب الخط الآرامي إلى الآراميين وهم أقوام ساميون جاؤوا من شبه الجزيرة العربية واستوطنوا بلاد الشام، أما الخط النبطي فنسبته إلى الأنباط، وهم قبائل عربية، أسست مملكة استمرت ثلاثمئة عام (١٩٦ ق.م ـ ١٠٦م)، وكانت حاضرتهم تمتد من البتراء شمالاً حتى الحجر (مدائن صالح) جنوباً، ومن سيناء غرباً حتى دومة الجندل شرقاً.

جناح المصاحف الشريفة

وخصص في قاعة المتحفيات جناح للمصاحف الشريفة، اشتمل على نوادر المخطوطات من هذه المصاحف يعود بعضها إلى القرن الثاني الهجري، وهي من مقتنيات عدد من المراكز العلمية والمكتبات مثل: مكتبة الملك فهد الوطنية ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالمدينة المنورة، والمكتبة المركزية بجامعة أم القرى في مكة المكرمة، وجامعة الملك سعود، ومكتبة الحرم النبوي الشريف بالمدينة المنورة.

وتوضح هذه المصاحف أثر الدين الإسلامي في تطور الخط العربي وإغنائه بأشكال هندسية رائعة وخطوط متنوعة، إلى جانب اتخاذ المسلمين في أنحاء العالم الحرف العربي لكتابة لغاتهم، مما أسهم في تعدد أنواع الخط العربي حتى بلغ عددها ثمانين نوعاً، نسب بعضها إلى الأماكن كالخط الكوفي أو المغربي، أو إلى الأشخاص كالخط الريحاني والرياسي أو إلى الوظائف كالخط



ديوان الأحنف العكبري بالنسخ المشكول (٥٩٥هـ/١١٩٨م)



مصحف شريف



أبدع العرب في صنع دواة الحبر

الديواني، وخط النسخ، وخط الرقعة، أو إلى التجويد الخطي كخط المحقق والجليل أو إلى الشكل الهندسي كالمثلث والمدور، أو إلى الشكل الفني كالخط الممزوج والخط المرسل، أو إلى أسلوب الكتابة كالخط الحر والبدائي، أو إلى الزخرفة الفنية كالخط الشجري والمورق، أو إلى القلم كخط الثلث أو إلى الموارد كخط اللازورد.

وكان المصحف الشريف أول مخطوط عربي يتم تجليده، وشكلت الزخارف النباتية إطاراً جماليًا للمخطوطات، ثم جاءت الزخارف الهندسية لتملأ الفراغ الأوسط في جلدة المخطوط، كما استعمل اللسان وهو امتداد في الجلدة اليسرى يثنى بجيب يغطي أطراف الورق ويقيها من التمزق والتآكل والاهتراء.

المخطوطات

واشتمل جناح المخطوطات على عدد من المخطوطات النادرة في مختلف العلوم، وهي تشير إلى ازدهار حركة التأليف والترجمة في ظل الحضارة الإسلامية، كما توضح جهود الخطاطين في ابتداع خطوط سهلة للكتابة، منها خط النسخ، إلى جانب ابتكار فكرة النقط والشكل لإضفاء مزيد من الجمال على الخط وزيادة إمكانات تجويده، ثم ظهر التذهيب والتلوين

والرسومات المختلفة، وازدهر تزيين الخطاطين الهوامش واللوحات بالرسوم النباتية مستخدمين ماء الذهب واللازورد، وحظي بنصيب وافر من جهودهم، وفي مرحلة لاحقة برزت رسوم نباتية وحيوانية وزخرفية، ثم تطورت صناعة المخطوط العربي بإدخال كتابة عناوين الفصول والعناوين الجانبية وتمييزها بلون مغاير للون النص، مع الاهتمام بالهوامش والتسطير، ووضع علامات الفصل والترقيم، والعناية بالتوثيق.

واشتمل المعرض على بعض أدوات الكتابة من محابر وأقلام، وتتبع استعمالات هذه الأدوات من أن الخطاطين العرب لم يكتفوا بإدخال إصلاحات على الحروف، وإنما جعلوا لأدوات الكتابة أسماء ومعايير وقياسات هندسية، فظهرت أنواع مختلفة من الأقلام، ومن أدوات الكتابة الأخرى الدواه التي شهدت مراحل من التطور





فلس أموي يعود إلى القرن الأول الهجري، الوجه: لا إله إلا الله وحده، الظهر: محمد رسول الله

وأبدع في صنعها من الأبنوس والسماسم والصندل والنحاس الأصفر والفولاذ والبورسلان والذهب والفضة، مع تزيينها بزخارف فنية، وتنوعت المواد التي كانوا يكتبون عليها تنوعاً كبيراً، فمنها أكتاف الإبل واللخاف وهي الحجارة الرقيقة، والعسيب وهي جريدة من النخل مستقيمة دقيقة، والجلود المدبوغة، والرقوق، والمهارق وهي نوع من الصحف تصنع من القماش الحرير، والقراطيس (البردي)، والأقتاب وهي خشب يوضع على ظهر البعير ليركب عليه.

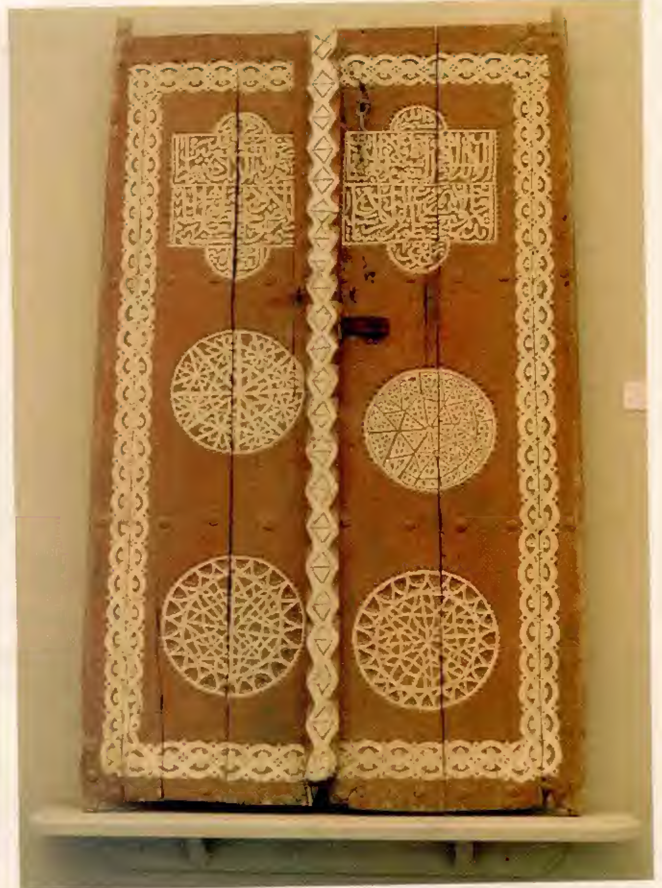
كما كتب الخطاطون العرب على الزجاج والنسيج والمعادن، حتى عرفوا الورق في أواخر القرن الأول الهجري.

المشغولات المعدنية

وجاءت المعروضات المتحفية دالة على إبداع الخطاط العربي الذي استطاع تطويع المعادن والأخشاب والأحجار وغيرها من المواد، وأن يبدع عليه خطوطاً لا يمحوها الزمن، واحتوى هذا الجناح على مشغولات معدنية تعود إلى عصور مختلفة، ويبين كيف استطاع الفنان العربي أن يجعل المعادن من نحاس وحديد وذهب وفضة طوع بنانه، فصنع منها الأساور والخواتم والحلي ورؤوس الحراب والأباريق والطسوت والتماثيل والمحابر وسك العملة، وكتب عليها بخطوط جميلة وزانها بالرسوم والزخارف، وقد كان للمسكوكات دور كبير في مجال دراسة الخط العربي وفنون الزخرفة، بما سجلته من أحداث تاريخية وأسماء أعلام كان لهم دور كبير في العصور الإسلامية المختلفة، إلى جانب ما تبوح به من



جانب من قاعة العرض الكبرى


باب من الخشب عليه نقوش وكتابات


باب من الخشب المحفور من منطقة الأحساء، وقد كتب عليه بخط الثلث

أسرار عن الحالة الاقتصادية؛ ومدى تطور البلاد على الأصعدة كافة.

ويمثل الخط الجليل (الكوفي) أكثر الخطوط شيوعًا في كتابة المسكوكات إلى بداية القرن الخامس الهجري، ثم شاعت خطوط أخرى خلال العصور الإسلامية المختلفة مثل خط النسخ وخط الثلث والطغراء والنستعليق.

وكانت المسكوكات المعدنية التي اشتمل عليها المعرض من مقتنيات مؤسسة النقد العربي السعودي ومكتبة الملك فهد الوطنية ووكالة وزارة المعارف للآثار والمتاحف.

المنسوجات والمشغولات الخشبية

وتبين المنسوجات المعروضة إسهام الخطاط العربي في إضفاء لمسات جمالية على صناعة النسيج بإضافة الكتابة العربية إلى ما كان شائعًا من زخارف ورسومات على القماش المصنّع من مواد مختلفة كالكتان والصوف والحرير والقطن، وساعدت انسيابية الخطوط العربية وتنوعها على إبداع الخطاط العربي في تشكيل القماش بحيث يبدو لوحة فنية جميلة.

وترك الفنان العربي آثاره في الخشب، فصنع منه الأسقف والأعمدة والقباب والأبواب والنوافذ والأثاث من فرش وأسرة وموائد وعلب، وأبدع الخطاط في زخرفتها بكتابات تلائم أغراضها، وفي بعض الأحيان يتم تلوينها، وتطعيمها بالعاج والأبنوس.

كسوة الكعبة المشرفة

تتكون كسوة الكعبة المشرفة من ثماني ستائر يطلق عليها أحمال الكعبة المشرفة وثمانية أحزمة وأربع كردشيات وستارة باب الكعبة المشرفة وتعرف بالبرقع وكسوة مقام الخليل إبراهيم عليه السلام، وستارة باب مقصورة الخليل إبراهيم عليه السلام، وستارة باب النوبة، وستارة باب

المنبر المكي، وكيس مفتاح الكعبة المشرفة، بالإضافة إلي لوازم تعليق الكسوة من حبال وغيرها ولوازم غسيل الكعبة المشرفة وتطييبها.

وللكعبة كسوتان إحداهما داخلية والأخرى خارجية، وهي التي تجهز مرة كل عام، وأحياناً مرتين أو ثلاثاً في العام الواحد، بينما تتغير الكسوة الداخلية على فترات متباعدة.

وهناك اثنا عشر قنديلاً في أركان الكعبة الأربعة تكون تحت الحزام، وتتضمن سورة الإخلاص، يا رحمن يا رحيم، يا حي يا قيوم، الحمد لله رب العالمين، وعند الملتزم توجد قطعة الإهداء، وقد كتب عليها «صنعت هذه الكسوة في مكة المكرمة، وأهداها للكعبة المشرفة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز تقبل الله منه».



من قناديل الكعبة الشريفة بخط الشيخ عبدالرحيم أمين

وفي حوار سريع مع الأستاذ فريد عبد رب النبي شاطر الذي يعمل مطرز حزام عن كسوة الكعبة المشرفة أوضح بأن الكسوة بعد أن كانت تتشرف بصنعها مصر، أمر الملك عبدالعزيز بصنعها في عام ١٣٤٥هـ، فتم صنعها من جوخ أسود فاخر مبطن بالقلع المتين، وبعد عام من ذلك، افتتح مصنع للكسوة في أجياد بمكة المكرمة، حيث كانت تصنع فيه الكسوة إلى أن جاء عام ١٣٨٢هـ، فأقيم مصنع للكسوة في جرول، وفي عام ١٣٩٧هـ افتتح مصنع جديد بأم الجود، ويضم هذا المصنع أقساماً للصباغة والطباعة والحزام والنسيج الآلي والخياطة والتجميع، وقد تطور العمل في المصنع، حيث تستخدم فيه اليوم تقنيات الحاسوب، ويبلغ عدد العاملين فيه نحو ٢٠٠ فرد.

ويقول المطرز فريد شاطر الذي يعمل في هذه المهنة منذ ربع قرن:



ستارة من الحرير الأخضر المطرز بخيوط الذهب للباب الشامي بالحرم النبوي الشريف



من أعمال الشيخ عبدالرحيم أمين





المطرز فريد شاطر يعمل على نموذج من كسوة الكعبة الشريفة

إن أرضية الكسوة تكون من الحرير الأبيض الذي يصبغ وينسج، ويتم إبراز الخط بحشوة من القطن، تليها حشوة أخرى تعرف بالقبقبة لتعبئة الفراغات وتسوية الحروف، وبعد ذلك يطرز بالسلك المذهب، بينما يكون الإطار من سلك فضي، والكتابات التي على الكسوة بخط الشيخ عبدالرحيم أمين.

أما أهم متاعب هذه المهنة، فيتمثل في الجلوس فترة طويلة مما ينتج عنه آلام في الظهر والرقبة، وفي التركيز الشديد الذي يسبب متاعب في البصر، ومع ذلك - كما يقول فريد - ، فإن هناك شباباً تستهويهم المهنة، فيقبلون عليها، وتعد لهم دورات تدريبية بصفة دائمة لتعريفهم أسرار المهنة وتطوير قدراتهم.

لوحات

هاشم البغدادي

عرضت في جناح الخط العربي المعاصر نماذج من أعمال بعض الخطاطين العرب المعاصرين، وخصص قسم خاص للوحات الخطاط العراقي محمد هاشم البغدادي (١٩١٧م - ١٩٧٣م) الذي تعلم الخط العربي على الأساتذة المشهورين في بغداد، وعلى رأسهم الملا علي الفضلي الذي منحه الإجازة في الخط عام ١٩٤٣م بعد إتقانه أصول خط الثلث والتعليق، وبعد ذلك التحق بمعهد تحسين الخطوط في القاهرة، وأجيز من الأستاذين سيد إبراهيم ومحمد حسن، ثم أجازه الخطاط التركي المشهور موسى عزمي المعروف بحامد إيتاج الآمدي مرتين، إحداهما في عام ١٩٥٠م، والأخرى في عام ١٩٥٢م.



من أعمال محمد طاهر الكردي



جانب من جناح المخطوطات



من أعمال هاشم البغدادي

أعماله:

من أهم أعماله إشرافه على طباعة مصحف الأوقاف العراقية في عام ١٩٦٠م، الذي كتبه الخطاط التركي محمد أمين الرشدي، وأصدر كراسته التعليمية المعروفة بخط الرقعة في عام ١٩٤٤م، وأصدر مجموعته الخطية «قواعد الخط العربي» في عام ١٩٦١م، كما زين بعض مساجد بغداد التاريخية مثل جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني، وجامع الحيدر خانة، وجامع المرادية، وله بعض اللوحات الفنية الموجودة في المتحف العراقي، وكتب العملة الورقية الصادرة في عام ١٩٤٨م، وكذلك الصادرة في عام ١٩٥٨م، كما كتب مسكوكات تونسية ومغربية وليبية وسودانية، وله كثير من الطلاب في فن الخط العربي.

الخطاطون العرب المعاصرون

أما لوحات الخطاطين العرب المعاصرين الفائزين في مسابقات الخط التي تنظمها اللجنة الدولية للحفاظ على التراث الحضاري الإسلامي فتوضح مواكبة الخط العربي لتطور الحياة، واستيعابه الأنماط والمظاهر الفنية الحديثة، وبرز في هذا المعرض قدرات التأثير التي يمتلكها الخط العربي، إذ أبدع فيه خطاطون من خارج العالم الإسلامي كالصين وفرنسا وتايلاند.

الخطاطون السعوديون

وأوضح المعرض المشاركات الفاعلة للخطاطين السعوديين في تطوير هذا الفن، فقد برز فيه مجموعة من

الخطاطين المشهورين أمثال أحمد ضياء، وعبدالرحيم أمين وعثمان طه ومحمد طاهر الكردي الذي يعد واحداً من أبرز الخطاطين السعوديين، وقد ولد في مكة المكرمة في عام ١٣٢١هـ، وتخرج في مدرسة الفلاح، ثم التحق بالأزهر الشريف، ولكنه كان ميالاً إلى الخط العربي، فالتحق بمدرسة تحسين الخطوط العربية الملكية في عام ١٣٤١هـ، وتخرج فيها بعد أربع سنوات، ثم التحق بقسم التذهيب والرسم والزخرفة في المدرسة، ودرس فيه سنتين، وعمل كاتب جلسات في المحكمة الشرعية، ومدرساً للخط العربي في مدرسة الفلاح بجدة، واختير عضواً في اللجنة المشرفة على توسعة المسجد الحرام، ووضع كراريس تعليمية، وله لوحات فنية، واشتهر بالكتابة على الحبوب وبيضة الدجاج، والكتابة التي لا ترى إلا بالمجهر المكبر، وكتب المصحف الشريف على الرسم العثماني، وتم طبعه في عهد الملك عبدالعزيز - رحمه الله -، وله عدد من المؤلفات في مجال الخط العربي.

ومن الخطاطين السعوديين المعاصرين صالح بن سعد الصميت الذي ولد في شقراء في عام ١٣٥٣هـ، وعمل مدرساً للخط، واحتك بعدد كبير من الخطاطين العرب، وكذلك الخطاط أديب، والمنصوف، ودهيران، والشويعر، والحجي، والثنيان وغيرهم.

توظيف الخط في الفن التشكيلي

على الرغم مما يقال: إن الفن التشكيلي لم يكن له وجوده المميز في شبه الجزيرة العربية، إلا أن الدراسات تؤكد تميز هذا الوجود الذي تعبر عنه النقوش والآثار في عدد من الأماكن الأثرية بمدائن صالح والفاو ومأرب وغيرها.

ومع قوة التفاعل الحضاري في هذا العصر بدا تأثير المدارس التشكيلية واضحًا في الخط العربي. وبرز عدد كبير من الفنانين التشكيليين الذين يوظفون الخط العربي في أعمالهم، ومن هؤلاء الفنان التشكيلي أحمد بن محمد بن سعيد العبدان، وهو من مواليد بريدة في عام ١٣٤١هـ، ويستطيع أن يكتب ٦٠٠٠ حرف (في حدود ١٠٠٠ كلمة) على البيضة الواحدة، ويرسم المناظر التراثية والطبيعية.

وضم المعرض جناحاً للكتاب اشتمل على عدد كبير من الكتب المتخصصة في الخط العربي.







نماذج من أعمال الخطاطين العرب المعاصرين

من معالم النقد التاريخي

أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري

إذا علّلت واقعة تاريخية بواقعة تاريخية أخرى: فلا يكفي لصحة التعليل ثبوت الواقعتين تاريخياً، بل لا بد من التحقيق والتدقيق في العلاقة بين الواقعتين من حيث تجعل إحداهما علة للأخرى؛ وذلك بسبر أهل القياس، والإحصاء، والمقارنة، وكل المعطيات الفكرية.. مثال ذلك واقعة الاختلاف على علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ فهي حدث صحيح: عُلّلت بواقعة صحيحة أخرى، وهي أن علياً رضي الله عنه قتل عدداً من رجال قريش بكفرهم.. ولقد نفى الإمام أبو محمد بن حزم رحمه الله هذه الرابطة التعليلية؛ فقال: «فإن قال قائل: إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان قد قتل الأقارب من بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فتولد له بذلك حقد في قلوب جماعة من الصحابة؛ فلذلك انحرفوا عنه: قيل لهم: هذا تمويه ضعيف كاذب؛ لأنه إن ساغ لكم ذلك في بني عبد شمس وبني مخزوم، وبني عبدالدار، وبني عامر (لأنه قتل من كل قبيلة من هذه القبائل رجلاً أو رجالاً؛ فقتل من بني عامر بن لؤي رجلاً واحداً وهو عمرو بن ود، وقتل من بني مخزوم وبني عبدالدار رجالاً، وقتل من بني عبد شمس الوليد بن عتبة والعاص بن سعيد بن العاص بلا شك، وشارك في قتل عتبة بن ربيعة، وقيل: قتل عقبة بن أبي معيط.. وقيل: قتله غيره وهو عاصم بن ثابت الأنصاري ولا مزيد): فقد علم كل من له أقل علم بالأخبار أنه لم يكن لهذه القبائل ولا لأحد منها يوم السقيفة حل ولا عقد، ولا رأي ولا أمر.. اللهم إلا أن أبا سفيان بن حرب بن أمية كان مائلاً إلى علي في ذلك الوقت عصبية للقرابة لا تديناً، (وكان ابنه يزيد وخالد بن سعيد بن العاص والحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي مائلين إلى الأنصار تديناً.. والأنصار قتلوا أبا جهل بن هشام أخاه)، وقد كان محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة شديد الميل إلى علي حين قصة عثمان وبعدها حتى قتله معاوية على ذلك؛ فعرفونا من قتل علي من بني تيم بن مرة، أو بني عدي ابن كعب؛ حتى يظن أهل القحة أنهما حقدا عليه؟.

ثم أخبرونا من قتل من الأنصار، أو من جرح منهم، أو من أوذي منهم؟.. ألم يكونوا معه في تلك المشاهد كلها: بعضهم متقدم وبعضهم مساوٍ له وبعضهم متأخر عنه؟.. فأي حقد كان له(١) في قلوب الأنصار حتى يتفقوا كلهم على جحد النص عليه وعلى إبطال حقه، وعلى ترك ذكر اسمه جملة، وإيثار سعد بن عبادة عليه، ثم على إيثار أبي بكر وعمر عليه والمسارعة إلى بيعتهم بالخلافة دونه وهو معهم وبين أظهرهم يرونه غدواً وعشياً لا يحول بينهم وبينه أحد؟.. ثم أخبرونا من قتل علي من أقارب أولاد المهاجرين من العرب من مضر، وربيعة، واليمن، وقضاعة؛ حتى يصفقوا كلهم على كراهية ولايته، ويتفقوا كلهم على جحد النص عليه؟.. إن هذه عجائب لا يمكن اتفاق مثلها في العالم أصلاً!.. ولقد كان لطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص من القتل في المشركين كالذي كان لعلي؛ فما الذي خصه باعتقاد الأحقاد له(٢) دونهم؟»(٣)].

وقال أبو محمد رحمه الله: «ادَّعوا على سعد بن أبي وقاص، وابن عمر، وأسامة بن زيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورافع بن خديج الأنصاري، ومحمد بن مسلمة الأنصاري، وزيد بن ثابت الأنصاري، وأبي هريرة، وأبي الدرداء، وجماعة غير هؤلاء من المهاجرين رضي الله عنهم: أنهم لم يبايعوا علياً إذ ولي الخلافة، ثم بايعوا معاوية ويزيد ابنه (من أدركه منهم)، وادعوا أن تلك الأحقاد حملتهم على ذلك.

وليت شعري أي حماسة وأي كلمة حسنة(٤) كانت بين علي وهؤلاء أو أحد منهم؟.. وإنما كان هؤلاء ومن جرى مجراهم لا يرون بيعة في فرقة، فلما أصفق المسلمون على ما أصفقوا عليه كائناً من كان دخلوا في الجماعة، وهكذا فعل من أدرك من هؤلاء ابن الزبير رضي الله عنه ومروان فإنهم قعدوا عنهما؛ فلما انفرد عبدالملك بن مروان بايعه من أدركه منهم لا رضا عنه ولا عداوة لابن الزبير، ولا تفضيلاً لعبد الملك على ابن الزبير، لكن لما ذكرنا.. وهكذا كان أمرهم في علي ومعاوية ولا مزيد.

وهذا يزيد بن حارثة قتل يوم بدر حنظلة بن أبي سفيان، وهذا الزبير بن العوام قتل يوم بدر أيضاً عبيدة بن سعيد بن العاص، وهذا عمر بن الخطاب قتل يومئذ العاص بن هشام بن المغيرة: فهلا

عاداهم أهل هؤلاء المقتولين، وما الذي خص عليًا بعداوة أولياء من قتل دون سائر من ذكرنا؟.

ثم لو كان ما ذكروه حقًا فما الذي كان دعا عمر إلى إدخاله في الشورى مع من أدخله فيها.. ولو أخرجه منها كما أخرج سعيد بن زيد، أو قصد إلى رجل غيره فولاه: ما اعترض عليه أحد في ذلك بكلمة: فصح ضرورة بكل ما ذكرنا أن القوم أنزلوه منزلته غير غالين ولا مقصرين رضي الله عنهم أجمعين، وأنهم قدموا الأحق فالأحق، والأفضل فالأفضل، وساووه بنظرائه منهم»(٥).

وعلق أستاذنا الدكتور إحسان عباس بقوله عن رسائل ابن حزم التاريخية: «وإذا كانت هذه الرسائل تخدم الناحية التعليمية في الغاية؛ إذ تقرب المادة وتوجزها؛ فهي من حيث المنهج تخضع للاتجاه العقلاني لدى ابن حزم الذي يستطيع أن يستخدم هذه الإحصاءات استخداماً رياضياً برهانياً في ما يعالجه من قضايا عند الحاجة إليها.. من ذلك مثلاً موقفه ممن قال: إن المسلمين لم يبايعوا علياً بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان قد قتل عدداً من رجالات قريش؛ فانحرف الناس عنه.. ويرد ابن حزم بأن هذا تمويه ضعيف؛ لأن الإحصاء يفنِّده؛ فالذين قتلهم علي:

ـ رجل واحد من بني عامر بن لؤي هو عمرو بن ود.

ـ رجال من بني مخزوم وبني عبد الدار لم يذكر ابن حزم عددهم.

ـ اثنان من بني عبد شمس هما الوليد بن عتبة والعاص بن سهل بن العاص، وقد شارك في قتل ثالث.. هذا كل ما هنالك.. ولم يقتل من بني تيم قبيلة أبي بكر ولا من بني عدي قبيلة عمر أحداً وهما استبعداه من الخلافة.. ولم يقتل من الأنصار أحداً؛ فلم لم يسرعوا إلى بيعته إن كان النص قد جاء بها؟.. ولم يقتل أحداً من ربيعة ومضر واليمن؛ فلم لم تبايعه هذه القبائل وبايعت أبا بكر؟

وهكذا يحاول ابن حزم على قاعدة إحصائية أن يدفع قول من قال: إن القرشيين كانوا منحرفين عن علي؛ لأنه قتل عدداً من رجالهم في حروبه مع النبي صلى الله عليه وسلم.

ولست أقول: إن هذا الجدال القائم على الإحصاءات دامغ لا ينقض.. بل إن ابن حزم يعرف ذلك؛ فيورد حججاً أخرى تؤيد البرهان الإحصائي وتعضده، ولكنه قلما يستغني عن لغة الأرقام؛ لأنها رصيد ضروري مسعف عند الحاجة إليه.. وإذا كان ذلك الرصيد قد يبرز بعض العجائب والنوادر في مجرى التاريخ الإنساني فذلك في ذاته لا يمثل إلا جانباً من فوائد الإحصاء بين جوانب أخرى متعددة»(٦).

قال أبو عبدالرحمن: لم يذكر أستاذنا الدكتور إحسان مستنده في دعواه: أن جدل ابن حزم ها هنا ليس دامغاً لا يُنقض، أما أنا فقد امتحنته مرات فكان يزداد صلابة أمام النقاش؛ ذلك أن التعليل بقتل رجالات قريش علة قاصرة، وغير مطردة، ومدفوعة بما هو أصح: فأما قصورها فلأنها لا تحتمل الواقعة التي عللوا بها إلا في ثلاثة بيوت من أسر قريش، وأما عدم اطّرادها فلأن قبائل لم يقتل منها أحداً لم تبايعه، وأما دفعها بما هو أصح فهو التعليل بإجماع المسلمين على أن أبا بكر رضي الله عنه وعمر أحق، وأن بيعة عثمان عن شورى، وأن ولاية معاوية عن غلبة.

قال أبو عبدالرحمن: نحن نعلم أن تاريخنا ليس كله مروياً بالسند عن أصحاب الأحداث أو مشاهديها، ولكنه خاضع لمقاييس المحدثين من ناحيتين:

أولاهما: أن المؤرخين الأوائل كابن جرير والبلاذري يروون بالسند؛ فهم في أقل الأحوال يقومون بدور جمع المادة، ويتركون للقارئ فرصة التمحيص؛ لأنهم خرجوا من العهدة بذكر السند.

وأخراهما: أن المتأخرين الذين لا يروون بالسند معروفة كتبهم عنهم بالأسانيد، وهم في ذواتهم احتفل العلماء بالترجمة لهم، وإبداء ما يتعلق بتجريحهم أو تعديلهم، وعرفت أحوالهم كما عرفت أحوال أهل الحديث.

من واجب المفكر المسلم أن يلتمس حقائق الشرع التي يتجاهل وجودها ذوو الشنآن من المؤرخين

وأم المعايير لقارئ التاريخ حقائق الشرع؛ فأخبار الله عن مخلوقاته قاضية على تخرص المتخرصين، عاصمة من انتحال الكائدين؛ ولهذا فمن واجب المفكر المسلم أن يلتمس حقائق الشرع التي يتجاهل وجودها ذوو الشنآن من المؤرخين مثل وجود الأنبياء والرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام؛ فيسأل بإلحاح عن تاريخ الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام في كل تاريخ قديم تجاهل وجودهم ومسيرتهم؛ لأن تعاقب الأنبياء والرسل منذ إهباط آدم إلى ختم الرسالة بمحمد عليهم الصلاة والسلام هو الأثر الفعال في تحولات التاريخ؛ ولأن التساؤل عن وجود الرسل ودورهم يحرج المؤرخ العلماني وشبهه الذي يتناسى دور الرسل، ويكتب تاريخاً وثنياً أسطورياً.. إن التساؤل بإلحاح عن وجود الرسل ودورهم فيما كتب عن تاريخ الفراعنة كدور يوسف وموسى عليهما السلام: يعني طلب الصورة الحقيقية الكاملة لتاريخ الفراعنة التي تحيَّفها وزورها من تجاهلوا دور الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لأن المتجاهلين كفار مضللون.

وأصل هذا المعلم لفتة كريمة للدكتور جمال عبدالهادي محمد مسعود والدكتورة وفاء محمد رفعت جمعة(٧)؛ لأنهما لاحظا تجاهل دور يوسف وموسى في تاريخ مصر، ودور هود وصالح وشعيب وإسماعيل في تاريخ الجزيرة، ودور نوح وإبراهيم ويونس في تاريخ العراق.

ومن المعالم ملاحظة أن التاريخ بمختلف حقوله فرع علمي له

مؤلفاته الخاصة؛ فلا بد للقارئ من توسيع نطاق مصادره في حالات الضرورة؛ لأن هناك أحداثًا تاريخية وثبوتها مختلف فيه كحادثة العباسة أخت الرشيد مع جعفر البرمكي، أو مختلف في تفسيرها وتعليلها كحادثة نكبة البرامكة.

فالمسألة الأولى: عن الاختلاف في ثبوتها؛ فقد تجاهلها عدد من المؤرخين، وأوردها آخرون مفندين لها، وأوردتها طائفة ثالثة مؤيدة لها، وأوردتها طائفة رابعة مترددة فيها.. ثم تحول الحدث التاريخي المختلف فيه إلى أسطورة يتضافر على صنعها الخيال الفني والكذب التاريخي كما في كتيب إعلام الناس بأخبار البرامكة مع بني العباس للإتليدي.. ويظهر أن إعلام الناس ليس أول أسطورة بهذا الصدد؛ فقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - وهو قبل الإتليدي بأربعة قرون - من الافتراءات حكايات الرشيد ووزيره جعفر البرمكي(٨)؛ فسياقه يدل على أنها حكايات مجموعة في كتاب؛ لأنه بمعرض السرد للكتب الأسطورية.

والمسألة الثانية: عن تفسيرها وتعليلها؛ فقد اختلف المؤرخون في سبب نكبة البرامكة؛ فمن صدق منهم بقصة العباسة جعلها السبب الوحيد لنكبة البرامكة، ومن لم يصدق بها التمس أسبابًا أخرى.

ولعنايتي بهذه المسألة التاريخية(٩) رأيت الكاتبين عنها لا يتعدون المؤلفات التاريخية؛ فظل تعليلهم ناقصًا، ولم أر منهم من تجاوز مصادر التاريخ إلى كتب علماء العقيدة؛ ليعرف ما عندهم من مكائد الفرس؛ وإنما لفت إلى بحث ابن العربي الأشعري عن البرامكة الشيخ أحمد تيمور الذي أحال إليه مصادفة في تقميشاته المتنوعة عن مختلف العلوم، ولم يكن البحث عن البرامكة مقصودًا لذاته(١٠)؛ فقد كشف ابن العربي - ولعل من مصادره هتك أسرار الباطنية للباقلاني - عن تدبير مجوسي فارسي يخطط له بنو برمك بسياق أوعب من شذرات المؤرخين.. ولم أر ممن بحث قضية نكبة البرامكة من ذكر ضرب جعفر بن يحيى للدنانير باسمه، مع أن ذلك مشهور في كتب الأدب والتراجم، وقد ذكروا أن زنة كل دينار مئة درهم، وأنه مكتوب على كل دينار:

وأصفر من ضرب دار الملوك
يلوح على وجهه جعفر
يزيد على مئة واحدًا
متى تعطه معسرًا يوسر(١١)

فهذه الأبيات مشهورة في الموشى، وتاريخ بغداد والمختار، وغيرهن.. وهي تدل تفصيلًا على أحد الأسباب الجوهرية في نكبتهم.. ولست أقول: إن ما في العواصم من القواصم لابن العربي، وما في المختار هو المعتمد المقدم، وما في كتب التاريخ هو المؤخر.. وإنما أقول: إنه باستحضار هذين المصدرين تسلط أنوار جهورية على واقعة غامضة؛ ومن ثم يكون التوسع في المصادر غير التاريخية لقضية تاريخية معلمًا من المعالم.

ومن المناسب سياق كلام ابن العربي عن البرامكة.. قال رحمه الله تعالى عن داء التضليل في تاريخ المسلمين: «وكان هذا الداء في الإسلام لوجهين:

أحدهما: أن المجوس الذين قاموا بين أظهر المسلمين بالجزية، وعندهم هذا العقد الخبيث؛ فهم بالمصاقبة للمسلمين يبثونه فيهم، فيتشككون بتشكيكهم، ويرتدون إليهم.. كما أن لمقام النصارى بين أظهرنا تردد نحلتهم عندنا وعلمناها، وكانوا مغمورين بالحق مقهورين إلى أن أنشأ الله بني برمك: يحيى بن خالد، ومحمد بن خالد، فملّك الوالي أمر الدين إياهما، وجعل الخلافة بأيديهما؛ فكان محمد بن خالد حاجبها، ثم كان وزيرها، وصاحب أمرها كله يحيى بن خالد، ثم ابنه جعفر بن يحيى.. كانوا باطنية يعتقدون رأي الفلاسفة؛ فكادوا الدين، وأحيوا المجوسية، واتخذوا البخور في المساجد، وإنما كانت تُطيَّب بالخلوق(١٢)؛ فزادوا التجمير ليعمروها بالنار منقولة؛ حتى يجعلوها عند الأنس ببخورها ثابتة.. وتمكن العجم من إفساد دولة العرب، والملحدة من الملة، والعبيد من الأحرار(١٣).. وقد كانوا يضمرون لها حقدًا، وينتظرون لفسادها

مشهد الحسين رضي الله عنه نقل من مشهد بعسقلان، وذلك العسقلاني محدث بعد مقتل الحسين بأكثر من أربعمئة وثلاثين سنة

وقتًا؛ فانتقوا كل ضيق العطن، مخلوع الرسن، وأظهروا الآراء الفلسفية بعد خفائها، وجلبوا الناس إلى أنفسهم: بعظيم العطاء، وسعة الإفضال، والتمكن من الملك، والإدناء من مقار العز؛ فنفقت بعد كسادها، وعادت بعد نفادها، ولحظوا الخلق بعين التنفير ليأخذوا من يوافقهم على هذا التنظير؛ فاعتاموا منهم من لا يهدي ولا يهتدي، وصح:

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدي

وعقدوا مجلسًا للضلال باسم الهدى، ونصبوا على الإسلام لذلك موعدًا.. يحضر فيه من ينتحل علم الكلام (من أصحابهم المنتدبين للطعن على أهل الإسلام) أولي عقائد فاسدة ونحل مضلة، وكان من رؤوس مجلسهم، وممن اختاروا للعون على ضلالتهم أربعة عشر رجلًا: ثمانية من المعتزلة: أبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف، وإبراهيم بن سيار النظام البصريان، وبشر بن المعتمر البغدادي، وجعفر بن حرب، وجعفر بن مبشر، وثمامة بن أشرس.. ومنهم الصباح بن الوليد المرجي شيخهم في زمانه، ومنهم أبو مالك الحضرمي شيخ الشروية.. ومن الإمامية: هشام بن الحكم الجزار الكوفي، وصاحبه السكاك، وصاحباه أيضًا علي بن مقسم، وعلي بن

منصور، وإبراهيم بن مالك (رجل من أهل البصرة.. يتفقه في ظاهر أمره، ويصر في الباطن على أمر عظيم)، والموبذان قاضي المجوس (وكان هذا الموبذان المذكور خالصة القوم، وعيبتهم وشعارهم، ومن ذكرنا سواه دثارهم)(١٤).

وقال أبو بكر بن العربي أيضاً: «فقد بينت لك أحوال هذه الطائفة الركيكة: إذا هزلوا تساخفوا وتهتكوا، وإذا جدوا تحيروا وتخاذلوا.. ثم أنشأت البرامكة طامة عظيمة؛ بأن كلفوا الأخباث أيضاً ترجمة كتبهم طباً وطبيعة بالعربية؛ فتولى ذلك يهودي أو نصراني أو ملحد لا رأسمال له في الإسلام؛ فمزج ما نقل من الطب بألفاظ وعقائد تتعلق بالإلحاد، وتعارض الشريعة في فروعها وأصولها؛ ليتوهم من ترجمت له هذه أن الأمم الفاضلة التي تولت هذه العلوم الغريبة كانت على هذه النحل.

فطمحت نفوسهم إلى معرفة تفاصيلها فاجتمعوا، وجمعوا آراءهم كما كانت أغراضهم، ولم يقدموا قاضياً في البلاد إلا أن يكون على هذه العقيدة، ولا أميراً ولا كاتباً إلا وهو فيها، ولا ينظم في سمط الخاصة إلا من كان قائماً بها، ولا يتوسع في العطاء إلا لأمثالهم:

وقد فتن الناس في دينهم
وخلّى ابن برمك شراً طويلا
فكادوا على الملك في سعيهم
وأعدوا على الدين داءً دخيلا

وعم الباطل، وظهرت الزندقة، وثارت البدع، وتوجهت المطالبة على البرامكة الذين كانوا يعضدون(١٥) القضاة والأمراء والعمال والقائلين بذلك؛ فلما لم يمكن مطالبتهم بهذه المعاني عند الخلافة لتعذر الطريق إلى ذلك من إقامة البينة، وتحصيل الشهادة على وصف العدالة، وعدم إمكانه: تذرع الناس إلى المطالبة من جهة الدولة والحريم، وكانت الملة على الذهاب؛ فإنهم كانوا قد بثوا الدعاة في آفاق الأرض على وجه يطول شرحه، فتدارك الله الملة بأن سخر الملك لهدمهم؛ فتقطعوا أيادي سبا، وتفرقوا شذر مذر(١٦).

وقد ملؤوا الأرض من الباطل، واستخلفوا شياطين الإنس على إضلال الخلق من فيلسوف وأديب؛ حتى لم يبق بيت إلا وفيه من كتب الأباطيل ما بين ناظر فيها حتى يعلم المراد منها، أو مختار ما يصلح منها وتارك ما سواه، أو راد عليه لئلا يعتلق بموحد فيختل عقده أو يتزلزل.. واستمر ما أورثوه من تركتهم، وأرثوا من نارهم، وصار باطلهم ينمي نمو الخضاب في اليد، ليتحقق الوعد الصادق في فساد الزمان، وذهاب الأديان»(١٧).

وقال أبو بكر بن العربي أيضاً: «وكانت هذه الطائفة الثائرة في هذه الدول الغوية المسماة بالبرمكية: قد سعت في كيد الإسلام كما بيّنا، واصطنعت من ذكرنا وتكاثرت؛ فربت في حجرها طوائف

إذا حصل التواطؤ على الكذب، وحصل الإرهاب على نشر الحق، وطالت مدة هذه العصبية: فستحصل الاستفاضة العامية بلا ريب، فحيثما تغيب الحقيقة تحل الخرافة

كابن المقفع، وابن الراوندي، والجاحظ المعتزلي، وكثير من أمثالهم قد استسنّوا في البشر: أنه لا مدرك إلا العقول. وأنها تُغني عن الرسل، ولا مدرك في عقد أو قول أو عمل إلا والعقل مستقل به»(١٨).

قال أبو عبدالرحمن: ومن مصادر التاريخ أخبار أهل الأدب؛ فالمؤرخ يستأنس بها إذا خليت من علة في ذاتها، ولم يعارضها معارض من خارج، ويقدِّم عليها كتب العلماء المؤلفين في الرجال.. وأمثِّل بيحيى بن أكثم قاضي المأمون: اتهم بالخمر وشبهه.. وتلك التهمة ترد عند الظرفاء من الأدباء، وفيها مؤشر من داخلها، وهو أن رواتها من مجان الأدب، وقد بين ابن العربي المالكي أنهم يختلقون أخبار المجون عن الصلحاء؛ ليسوغوا سقطاتهم.. ذكر ذلك في العواصم من القواصم.

ولها مانع من الخارج وهو ثناء الإمام أحمد بن حنبل على يحيى، وتسبيحه الله على أمر شنيع اتهم به يحيى وأنكره إنكاراً شديداً.. وكذلك برَّأه إسماعيل القاضي، وذكره ابن حبان في الثقات، وروى عنه الترمذي في الجامع، والبخاري في غير الصحيح.. ذكر كل ذلك ابن خلدون في مقدمته، وقال عنه وعن الخليفة المأمون: كانا يلتقيان على الحق والتزام الشريعة ويصليان الصبح جماعة(١٩).

وأما اختيار الأدباء لابن الأكثم فريسة لهم في هذه التهمة فمعلل بأمرين:

أولهما: ذكره القاضي إسماعيلُ.. قال عن يحيى: «ولقد كنت أقف على سرائره فأجده شديد الخوف من الله.. لكنه كانت فيه دعابة وحسن خلق، فرمي بما رمي به».. فهذه الدعابة تعليل لقابلية التهمة بحيث يظن أن وراء دعابته مجوناً حقيقياً.

وثانيهما: ذكره ابن خلدون، وهو أنه كان محسوداً في كماله وخلته للسلطان؛ فهذا باعث للتهمة يضاف إلى باعث تسويغ المجان مجونهم بالافتراء على قاض صالح.

ومن المعالم أن الاستفاضة المتوارثة بين عامة الأمة دون علمائها جيلاً بعد جيل لا يكون لها حكم التواتر المعصوم، بل يبحث عن كيفية استفاضتها؛ فلعلها حدثت عن تواطؤ على الكذب.. وعدم التواطؤ شرط صحة التواتر.. ويبحث ما لدى العلماء من نقل أو رأي؛ فتحقيق العلماء مقدم على سلوك العوام وإن أصبح بطول الإلف أمراً واقعاً.. مثال ذلك مشهد الحسين بن علي رضي الله عنهما بمصر، فهذا المشهد أمر واقع، وعرف عامي منذ عدة قرون لا تشك العوام في أن هذا القبر بالقاهرة هو قبر الحسين.. ولكن ثبت بتحرير أهل العلم: أن الحسين رضي الله عنه لم يصل من جسمه الشريف إلى القاهرة قلامة ظفر، أو بعض شعرة(٢٠).

وثبت من قصة الاستفاضة أنها مبنية على تضليل كاذب،

وتواطؤ على الكذب؛ فقد ثبت أن هذا المشهد من اختلاق القرامطة في مصر، وأن العامة مدربة على الترويج له، وأن المؤرخين يخشون من إعلان الحقيقة.. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وحدثني من حدثني من الثقات: أن من هؤلاء من كان يوصي أصحابه بأن لا يظهروا ذلك عنه خوفاً من شر العامة بهذه البلاد؛ لما فيهم من الظلم والفساد.. وإذ كانوا في الأصل دعاة للقرامطة الباطنيين الذين استولوا عليها مئتي سنة: زرعوا فيهم من أخلاق الزنادقة المنافقين، وأهل الجهل المبتدعين، وأهل الكذب الظالمين ما لم يمكن أن ينقلع إلا بعد حين»(٢١).

وقال: «ومن هذا الباب نقل الناقل: أن هذا القبر الذي بالقاهرة مشهد الحسين رضي الله عنه، بل وكذلك مشاهد غير هذا مضافة إلى قبر الحسين رضي الله عنه، فإنه معلوم باتفاق الناس: أن هذا المشهد بني عام بضعة وأربعين وخمسمئة، وأنه نقل من مشهد بعسقلان، وأن ذلك المشهد بعسقلان كان قد أحدث بعد التسعين والأربعمئة؛ فأصل هذا المشهد القاهري، هو ذلك المشهد العسقلاني، وذلك العسقلاني محدث بعد مقتل الحسين بأكثر من أربعمئة وثلاثين سنة، وهذا القاهري محدث بعد مقتله بقريب من خمسمئة سنة.. وهذا مما لم يتنازع فيه اثنان ممن تكلم في هذا الباب من أهل العلم على اختلاف أصنافهم كأهل الحديث، ومصنفي أخبار القاهرة، ومصنفي التواريخ، وما نقله أهل العلم طبقة عن طبقة؛ فمثل هذا مستفيض عندهم، وهذا بينهم مشهور متواتر.. سواء قيل: إن إضافته إلى الحسين صدق أم كذب..لم يتنازعوا أنه نقل من عسقلان في أواخر الدولة العبيدية.

وإذا كان أصل هذا المشهد القاهري منقولاً عن ذلك المشهد العسقلاني باتفاق الناس وبالنقل والتواتر: فمن المعلوم أن قول القائل: إن ذلك الذي بعسقلان هو مبني على رأس الحسين رضي الله عنه قول بلا حجة أصلاً؛ فإن هذا لم ينقله أحد من أهل العلم الذين من شأنهم نقل هذا: لا من أهل الحديث، ولا علماء الأخبار والتواريخ، ولا من العلماء المصنفين في النسب (نسب قريش، أو نسب بني هاشم، ونحوه).. وذلك المشهد العسقلاني أحدث في آخر المئة الخامسة، لم يكن قديماً، ولا كان هناك مكان قبله أو نحوه مضاف إلى الحسين، ولا حجر منقوش ولا نحوه مما يقال: إنه علامة على ذلك.. فتبين بذلك أن إضافة مثل هذا إلى الحسين قول بلا علم أصلاً»(٢٢).

قال أبو عبدالرحمن: وإذا حصل التواطؤ على الكذب، وحصل الإرهاب على نشر الحق، وطالت مدة هذه العصبية: فستحصل الاستفاضة العامية بلا ريب، فحيثما تغيب الحقيقة تحل الخرافة؛ لأن حب الاستطلاع غريزة، ولا بد من إرضائها بأحد الأمرين.. وإذ قد ذكرت قصة التواطؤ على الكذب: فإنني مذكر الآن بقصة الإرهاب على قول الصدق.. قال شيخ الإسلام عن القرامطة في مصر: «وكان في أثناء دولتهم يخاف الساكن بمصر أن يروي حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيُقتل كما حكى ذلك إبراهيم بن سعد الحبال صاحب عبدالغني بن سعيد، وامتنع من رواية الحديث خوفاً أن يقتلوه.. وكانوا ينادون بين القصرين: من لعن وسب، فله دينار وإردب.

وكان بالجامع الأزهر عدة مقاصير تُلعن فيها الصحابة رضي الله عنهم، بل يتكلم فيها بالكفر الصريح.. وكان لهم مدرسة بقرب المشهد الذي بنوه ونسبوه إلى الحسين وليس فيه الحسين ولا شيء منه باتفاق العلماء.. وكانوا لا يدرسون في مدرستهم علوم المسلمين بل المنطق والطبيعة والإلهي ونحو ذلك من مقالات الفلاسفة»(٢٣).

الهوامش والمراجع

١ـ الصواب: عليه
٢ـ الصواب: عليه
٣ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/١٦٤ ـ ١٦٦.. وسيمر من كلام ابن حزم رحمه الله أن من آيات النبوة تواشج الصلة والحب بين الصحابة رضوان الله عليهم على الرغم من ذحول الجاهلية.
٤ـ كلمة «حماسة» و«حسنة» لا مفهوم لهما، وفي الكلام تحريف بلا ريب أصححه إن شاء الله بعد مراجعة أصول الفصل الخطية.. والمفهوم واضح من السياق.
٥ـ الفصل ٤/١٦٦ ـ ١٦٨.
٦ـ رسائل ابن حزم ٢/٢٨ (المقدمة للمحقق).
٧ـ وذلك في كتابهما أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ ص ٤٣ ـ ٤٤، ويلحق بذلك التعمد المخزي لتجاهل القرآن الكريم والسنة المطهرة مصدرين للتاريخ، وقد أشار إلى ذلك المؤلفان الفاضلان ص ٥٢ـ ٦٩.
٨ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٨/٣٥١.
٩ـ لي مؤلف قيد التبييض عن نكبة البرامكة وما إليها.
١٠ـ أحال في كتابه التذكرة التيمورية ص٧١.. وبحث ابن العربي في كتابه العواصم من القواصم ص ٨٢ ـ ٩٩.
١١ـ المختار من نوادر الأخيار للمقرئ، وتاريخ بغداد ٧/١٥٦.
١٢ـ قال أبو عبدالرحمن: ليس هذا بصحيح، وانظر ترجمة نعيم المجمر صاحب أبي هريرة رضي الله عنهما.
١٣ـ أي تمكن هؤلاء من هؤلاء.
١٤ـ العواصم من القواصم ص ٨٢ ـ ٨٦.
١٥ـ كُتب على الهامش: وقد ذكر صاحب تحفة المجالس حكاية في سبب قتل البرامكة لا حاجة إلى ذكرها كلها، بل محل الحاجة منها: أن الرشيد أرسل إلى الأصمعي ليلة قتل جعفر، ولما قدم عليه، وكشف الطست المغطى بمنديل، وهاله رؤية رأس جعفر فيه: قال له الرشيد: يا أصمعي: لا تحزن؛ فإن القوم كانوا يعبدون النجوم؛ فأرخيت لهم حتى استغرقوا في الأمل، ونسوا الأجل؛ فأخذتهم بغتة وهم لا يشعرون.. إلى آخره.. وهذا تأييد لما ذكره الإمام ابن العربي رضي الله عنه.. انتهى من خط الشيخ سيدي أحمد بن عبدالله السوسي [محقق العواصم].
١٦ـ كُتب على الهامش: قف على هذا السبب الخفي لنكبة البرامكة، وما ذكره ابن خلدون هو السبب الظاهر المستور به هذا [محقق العواصم].
١٧ـ العواصم من القواصم ص ٩٤ ـ ٩٦.
١٨ـ العواصم من القواصم ص ٩٨ ـ ٩٩.
١٩ـ انظر ابن خلدون إسلامياً ٩٧ ـ ٩٩.
٢٠ـ انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٧/٤٥١ و ٤٦٨ـ ٤٦٩، ورجّح أن رأس الحسين رضي الله عنه دفن بالمدينة، وانظر أيضاً: ٤٨٤ ـ ٤٨٦ و ٤٨٩ ـ ٤٩٠.
٢١ـ المصدر السابق ٢٧/ ٤٨٦.
٢٢ـ المصدر السابق ٢٧/٤٥٥ ـ ٤٥٧.
٢٣ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣٥/١٣٨.

أوزار وهم احتكار الصواب

خير الدين عبدالرحمن

يكثر فينا نحن العرب اللجوء إلى الحسم والجزم والإطلاق في غير الموضع المناسب، ولعل هذا النزوع من الأسباب التي تضاعف التخلف وترسخه، من خلال ما ينشره من ارتباك وفقدان التوجه الصحيح، يزداد الأمر خللاً عندما يستشري هذا النزوع بينما يفترض أن يكون بحثاً علمياً، أو توجيهاً للعامة، أو قيادة للأمة.

نأخذ مثلاً ما زعمه القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى» (ج٤ - ص٢٢٠) من أن «السياسة كلمة مغولية أصلها ياسة، فحرّفها أهل مصر وزادوا بأولها سيناً وأدخلوا عليها الألف واللام، فظن من لا علم عنده أنها كلمة عربية، وما الأمر إلا ما قلت لك. ذلك أن جنكيز خان القائم بدولة التتر في بلاد الشرق لما غلب أونك خان وصارت له دولة، قرر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب سمّاه ياسة. وياسة كلمة تركية قديمة معناها القانون الاجتماعي». فأن يخطئ القلقشندي في تأويله كلمة على هذا النحو أمر مفهوم، فكل ابن آدم خطّاء، ولكن أن يجزم بأنه «ما الأمر إلا ما قلت لك» أمر آخر أشد خطأ وأدهى خللاً. لقد بنى كثير من الباحثين الأوربيين على ما قاله، وراحوا يفترون على الإسلام زاعمين أنه متخلف في حقل السياسة وعلمها، ما دامت السياسة كمسمى لم تدخل اللغة العربية إلا نقلاً عن جنكيز خان. وأكثر من هذا، أن العديد من الأكاديميين العرب استنسخوا عن هؤلاء الأوربيين افتراءهم، وقدموه «حقيقة علمية» يجري تدريسها في عدد من الجامعات العربية منذ عشرات السنين، حتى يومنا هذا.

ولم تكن المسألة تستحق أكثر من تفكير بسيط، مع بحث سريع يسير، لاكتشاف أن الأمر ليس ما قد قاله القلقشندي. فقبل ستة قرون من جنكيز خان وكتاب ياسة، وقبل فتح مصر وانتشار العربية لغة لأهلها بما يؤهلهم لتعريب كلمات مغولية، كان عمر بن الخطاب مثلاً قد قال في توصيف بارع للمؤهلات المطلوبة في الحاكم: «العاجز من عجز عن سياسة نفسه»، ومن ثم فإن السَّوْس بمعنى الرياسة، كما جاء في لسان العرب - أي القيام بأمر الناس بما يصلحه - أو بمعنى القيادة والتوجيه والإدارة، هو الأصل العربي لكلمة سياسة التي استخدمها عمر بن الخطاب مشدداً على أن من يتصدى لسياسة الناس لابد أن يكون قادراً على سياسة نفسه أولاً. وهكذا لا علاقة لكلمة سياسة العربية تلك بعنوان كتاب جنكيز خان، ولا بتسمية أعجمية، مغولية كانت أم غير مغولية.

لقد فرضت الممارسة السياسية أطرها وطرائقها ومناهجها منذ نشوء البنى المجتمعية الأولى للبشر، تحديداً لعلاقاتها الداخلية، وتطويراً للعلاقات فيما بينها، كذلك تطور فن الحكم - الذي هو واحد من أبرز تعريفات السياسة التي عدّها أرسطو سيد العلوم - في المجتمعات المختلفة، ولم تكن الممالك والإمارات العربية القديمة استثناء. وقد جرى استخدام مصطلح «السياسة» مبكراً من العرب. ثم جاء الإسلام ليبلور الممارسة السياسية على نحو شديد النضج والتوازن، واضعاً قواعد الحياة والعلاقات الاجتماعية والإنسانية والاقتصادية والسلوكية، بحيث جعل الشأن العام اهتماماً فردياً وجمعياً، وجعل السياسة هداية وإرشاداً ومشاركة شاملة للأمة في المسؤولية، بل مشاركة فردية يمارسها كل فرد في مستوى معين: «كلكم راع، وكل راع مسؤول عن رعيته».

تأسيس الخطأ

إن ما أغنى الإسلام به فن الحكم والممارسة السياسية جدير بأن يكون موضوع مزيد من الأبحاث المعاصرة التي تفند افتراءات الجهلة والحاقدين. ولسوف تكون لنا إسهامات قادمة في هذا الموضوع بإذن الله. لكن ما نقف عنده في هذه المقالة هو ذلك القطع والحسم والجزم الذي أشرنا إلى مثال عليه من زعم القلقشندي. فقد سار كثير من الأقدمين

واللاحقين على نهج مماثل، بحيث يكثر كل منهم تأكيد أنه «ما الأمر إلا ما قلت لك»، متوهماً العصمة واحتكار الحقيقة والصواب، بينما سرعان ما تتهاوى مزاعمه بقليل من التمحيص والتدقيق، وأحياناً بقليل من التفكير المنطقي والمحاكمة السليمة. ولقد أخذ كثير من العامة والمتعلمين عن هؤلاء السابقين، ونقلوا ما توهموه حقائق مطلقة، مؤسسين لأخطاء تتراكم فوق أخطاء لكن ما هو أشد خطراً هو الانتشار الواسع المعاصر للجزم بأنه «ما الأمر إلا ما قلت لك».

إن الحسم والجزم والقطع والإطلاق في العلوم والمعارف الاجتماعية والإنسانية عموماً من أقصر الطرق إلى الوقوع في الخطأ، ومن ثم البناء على الخطأ. وقد يغفر مثل هذا في العلوم المادية البحت المتعاملة مع نواميس وقوانين تمتاز بالثبات والجمود، مثل الرياضيات والفيزياء والكيمياء، على الرغم من أنه حتى في هذه العلوم كثيراً ما يؤدي التطور إلى اكتشاف خطأ نظرية سبق البرهان عليها، أو قانون بدت سلامته مؤكدة لزمن طويل. وهكذا يدرك العاقلون من المتعاطين لهذه العلوم الحكمة البالغة في قوله تعالى: *وما أوتيتم من العلم إلا قليلا* **الإسراء**:٨٥. فلئن جاء قول الله عزّ وجل هذا في سياق الإشارة إلى سؤال الناس عن الروح، فإنه يشمل المعارف والعلوم الوضعية كافة.

إن عقلية متخلفة تحكمت بمسار الحياة العربية قبل قرون، قد استهلت إضفاء قدسية على آراء معرفية، أو تأريخ خدم أغراضاً سلطوية، أو على تفسيرات يفترض أنها قابلة للنقاش والتصويب والتعديل وحتى النقض الجذري. إن القدسية لله عز وجل ولأحكامه، لا لتفسيرات أو آراء أو معارف وضعية. وإذا كانت الأحكام الإلهية قد توزعت في فئتين، واحدة تضم أحكاماً ثابتة مطلقة ونواميس أزلية، وأخرى تتعلق بالسلوك البشري والعلاقات الإنسانية، بحيث تمتاز الفئة الثانية من الأحكام الإلهية بمرونة في التطبيق، وتيسير في التنفيذ، ومراعاة لاختلاف الأحوال وتغير الظروف، فليس لأحكام ورؤى ومعارف وضعية أن تدّعي قدسية وحسماً وجزماً


أرسطو طاليس


المتنبي

وإطلاقاً. وبكلمة أخرى، فكل زعم بقدسية منهج علمي أو نظرية وضعية أو رؤية معرفية هو سقوط في زلل ادعاء عصمة لا تكون لغير الله تعالى.

إن المغالاة في الاعتداد برأي، والجزم باحتكار صواب، إيغال في الغيّ الذي لا يودي بصاحبه فحسب، وإنما تتناثر ضحاياه أيضاً بين المنقادين له.

فريد زمانه

لقد بات الزعم بأنه «ما الأمر إلا ما قلت لك» مرضاً عربياً استشرى معه وهم احتكار الحقيقة والصواب، بحيث كثيراً ما يتحول الحوار صراعاً ضارياً، والنقاش حرب تجريح وإلغاء، يصر كل طرف فيها على جندلة الطرف الآخر والقضاء المبرم عليه بأي ثمن.

إن حالتنا العربية زاخرة بمن صار لديهم هذا النهج أصيلاً ومتجذّراً. لا يقتصر الأمر على العامة، ولا على المثقفين والمتعلمين، وإنما يشمل كذلك كثيراً من الحكام والقادة. فمنذ قرون، حتى عصرنا الراهن، يعز على الحاكم أو القائد ألا تكون له رأيه المتمايز وموقفه المختلف عن آراء أقرانه ومواقفهم، مما يعطل الرؤية المشتركة والموقف الموحد الذي لابد من التزامه في مواجهة التحديات المصيرية التي تستهدف الأمة بأكملها. ويكون أكثر تلك الآراء والمواقف متسرعاً، ذاتياً، مجزوءاً، انفعالياً.. لكن كل واحد يتمسك برؤيته أو موقفه تمسكاً جاهلياً، ويصر على أنه « ما الأمر إلا ما قلت لك»، فتضيع الأمة وتتعثر، لتصادم مسارات أجزائها، وتناقض مواقف قادتها، وتكون النتيجة استباحة الأعداء لأمتنا بشراً وأرضاً وثروات ومصيراً.

إن صاحب السلطان، إذ يلقى من المنافقين تعزيزاً لوهمه بامتلاك ناصية الحقيقة واحتكار الصواب، يصل إلى وضع يصدّق معه أنه فريد زمانه الذي لا ينطق إلا صواباً وحكمة، وأنه أفضل الناس تفكيراً. ثم قد يتطور الأمر معه إلى يقين زائف بأنه المؤهل للتفكير نيابة عن الأمة، ومن ثم إلى قمع كل من لا يكون تفكيره صدى لصاحب السلطان وتمجيداً لفكره ومواقفه.

يتذرع بعض المنافقين بواجب الطاعة تسويغاً لموقفهم المدمّر، بينما الطاعة في

الإسلام مشروطة بعدم معصية الخالق. أليس حظر التفكير وقمعه معصية كبرى للخالق؟ عندما دعا الله عز وجل الناس جميعاً على امتداد آيات القرآن الكريم إلى التفكر والتدبر، فإن هذه الدعوة دائمة وملزمة، وأي قمع لاستجابة الناس إلى هذه الدعوة معصية للخالق. إن الدلالات واضحة وساطعة عندما نعي أن من بين آيات القرآن الكريم الستة آلاف ومئتين وست وثلاثين آية، تبحث خمسمئة آية تقريبًا في الأحكام مبينة ما هو واجب وما هو محرم وما هو مكروه، وتبحث أقل من ثلاثمئة آية في أمور التشريع والفقه، بينما تحضُّ أربعة آلاف آية على التفكر والتعلم والتدبر والحوار. إن أولى الدلالات: التشديد على المسؤولية الفردية والجمعية في السعي إلى المعرفة، والبحث عن الأفضل، والمشاركة في الشأن العام. ومن ثم فإن توهم احتكار الحقيقة والصواب يناقض سلوك المؤمن والتزامه، فهذا الوهم يعكس غروراً ومبالغة في الاعتداد بالذات والاستهانة بالآخرين.

فنلاحظ في هذا السياق مدى المبالغة في الاعتداد بالذات والاستكانة إليه بديلاً عن بناء الذات وإعدادها وتطويرها. فعندما ينتشي أكثرنا مثلاً بترديد «لنا الصدر دون العالمين أو القبر»، ينسون أن الله عز وجل قد خلق الناس بعضهم فوق بعض درجات، وأن الصدر مطلقًا لا يتسع سوى لواحد أو لفئة قليلة في كل مجتمع وفي كل عصر، بينما يتوزع سائر الناس مستويات متدرجة دون ذلك الصدر أو تلك الصدارة، يتدافع بعضهم محاولاً صعوداً من مستوى إلى مستوى أعلى، فتنجح محاولات وتخيب أخرى، ويسقط بعضهم من مستوى إلى مستوى أدنى. وهنا يبدو التعسف شديداً في الإصرار القاطع على القبر بديلاً وحيداً للصدارة، وهو تعسف يؤذي صاحبه بمثل ما يؤذي الآخرين. كما أن مقابلة الصدر أو الصدارة بالقبر ليست في محلها، فالقبر مآل الجميع في نهاية الأمر، سواء من كان له الصدر أو من كان دونه.. الجميع ماض إلى القبر، بلا استثناء، مما يجعل القبر مآلاً مطلقًا وحتميًا، بينما الصدر امتياز محدود وضيق جداً.

الحسم والقطع في العلوم والمعارف الإنسانية والاجتماعية من أقصر الطرق للوقوع في الخطأ

مبالغة في الشعر والواقع

وهكذا فإن اختصار كل ألوان الطيف بأبيض وأسود، أو بصدر وقبر، لا يقل عبثًا عن المغالاة في الغرور على نحو ما يتناقله كثيرون ويتمثلونه من قول أبي الطيب المتنبي:

«سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا
بأنني خير من تسعى به قدم»!

لقد تكاثر فينا من يدعي - ولو بينه وبين نفسه - أنه خير من تسعى به قدم، حتى كاد الجميع يستوي في هذا الادعاء، سواء جاهر به أو أقنع نفسه خفية عن الآخرين بهذا. فيغفل الناس أو يتغافلون، إذ يدّعي كل منهم أنه «خير من تسعى به قدم»، أن من له هذا الموقع فعلاً فرد واحد، ومن ثم كل من يدعي هذا الموقع سواه واهم وخاطئ. إن التذرع بإباحة المغالاة للشعراء في شعرهم لضرورات بلاغية وجمالية لا يغطي على حقيقة تأثر العامة بهذه المغالاة في سلوكهم وحياتهم.

إن ما نتساهل تجاهه في الشعر، كثيراً ما يسحب نفسه على القواعد السلوكية والمنطلقات الفكرية والقوانين والأحكام السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بل البحث العلمي أيضاً. وهنا يسهل تصور مدى الإخفاق والتعثر الذي يصيب جميع النشاطات عندما يختلط فيها ما يباح شعراً مع ما يحتاج إلى دقة شديدة ودراية سليمة بالوقائع والحقائق. إن خوض الحرب وإدارة الاقتصاد وممارسة البحث العلمي وبناء المجتمع بأسلوب المبالغات الشعرية قد شكلت ظاهرة تكرر طغيانها في حياتنا العربية على مدى قرون، فكانت طريقًا مختصراً إلى الإخفاق الذريع.

ولعل جذر هذا الأسلوب يكمن في استشراء وهم احتكار الصواب. إنه الوهم الذي كبلت أوزاره الأمة، وأمعنت في تمزيقها وتفتيتها وتخلفها، وأسست لانهيار لا تحجب آلامه وآثاره مزاعم تنكره، أو مظاهر مزورة تحاول نفيه. أوليس هذا الوهم وليد جهل يتستر بادعاء حيازة منتهى العلم والمعرفة، ويهيمن على اللاوعي في تعاملاتنا العائلية والمجتمعية، ويظلّ بزخم شديد من جوانب حياتنا على مستويات متعددة: تربوية وإنتاجية واستهلاكية وسياسية وسلوكية؟! إن الإصرار المتعنت في غير محله على أنه «ما الأمر إلا ما قلت لك» منطلق رئيس لتخلف مزمن وإخفاقات متوالدة..

أسرة مسلمة من اليابان

سارة تاكاهاشي

في نحو سنة ١٩٥٣م قام بعض اليابانيين ممن أعلنوا إسلامهم داخل اليابان أو خارجها بتأسيس جمعية للمسلمين، أطلق عليها فيما بعد «جمعية مسلمي اليابان»، كان من روادها عثمان ماتسوباياشي وصادق أمايزومي وعبدالمنير واتانابه وكازوتو توریاما وتوشينوري وكيزاكا، وكينتارو فوروساوا، وبدأت الجمعية عملها من مكتب مؤقت بمنطقة شمال كترا HIGASHI GENZA في طوكيو، ونصت المادة الثالثة من مواد تأسيسها على أن أهداف الجمعية وغاياتها «العمل على نشر الإسلام في اليابان، وإقامة علاقات الود والصداقة مع بلاد العالم الإسلامي لتحقيق السلام للبشرية».

رافق تأسيس جمعية مسلمي اليابان انفتاح على بلدان العالم الإسلامي، فظهرت عدة فرص لإقامة علاقات صداقة بين المسلمين واليابان، وزادت رغبة اليابانيين في دراسة الإسلام واللغة العربية، وبدأت مفاوضات بين جمعية مسلمي اليابان والبلاد الإسلامية، ترمي إلى تقديم منح للشباب الياباني لدراسة الإسلام واللغة العربية، وبدأت بعض البلدان الإسلامية تفتح أبوابها للدارسين اليابانيين.

صعوبات البداية

واجهت جمعية مسلمي اليابان في بداية تكوينها مصاعب جمة، تغلب عليها أعضاؤها بالصبر والمثابرة، وحين انتقل صادق أما يزومي رئيس الجمعية إلى الرفيق الأعلى سنة ١٩٦٠م، تولى رئاسة الجمعية الحاج عمر ميتا، في وقت وصل فيه عدد أعضاء الجمعية إلى ١١٢ عضواً عاملاً.

اهتم الحاج عمر ميتا بإرسال الطلبة اليابانيين المسلمين إلى البلاد الإسلامية حتى يتثقفوا ثقافة إسلامية، ويتزودوا بالمعارف الإسلامية، ويتقنوا اللغة العربية، وكرس حياته لترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة اليابانية، وانخرط يعمل مع جماعة التبليغ في باكستان، ولهذا استقال من رئاسة الجمعية بعد سنتين، ليحل محله البروفسور (المرحوم) عبدالكريم سايتو.. ونتوقف هنا لنمضي مع صاحب قصتنا.. كيمياكي توكوماس الذي صار فيما بعد أمين توكوماس.

ولد أمين توكوماس في بلدة هاماماتس HAMAMATUS الواقعة في محافظة شيزوكا بين مدينة طوكيو وأوساكا، وبدأت علاقته بالبروفسور عبدالكريم سايتو من خلال دراسة اللغة العربية، ولا يزال أمين توكوماس يذكر الأثر العميق الذي تركه في نفسه مدرسو اللغة العربية، يقول: «كان المدرسون في معظمهم من الطلاب المبتعثين من البلاد العربية للدراسة في اليابان، أو من موظفي السفارات العربية، وأذكر منهم الأستاذ بيومي الذي قدم من جامعة القاهرة ليكمل دراسته في جامعة طوكيو، والأستاذ عمر الذي قدم من جامعة الإسكندرية لدراسة الكيمياء، أما الأستاذ درديري فكان موظفاً في السفارة المصرية.

ويذكر أمين توكوماس أن الدكتور صالحًا السامرائي (وهو من العراق كان يدرس في اليابان ويدير المركز الإسلامي في طوكيو) والدكتور موسى السوداني كانا يقومان بتدريس اللغة العربية أحياناً، ويساعدهما في ذلك الدكتور مصطفى السباعي أحد الطلاب السوريين، ويقول: «.. من خلال هؤلاء جميعاً تعرفت وزملائي إلى الإسلام، فقد ربطتنا بهم علاقة طيبة، وكانوا مخلصين في عملهم، وفي حياتهم، فكانوا عوناً لنا في شرح كل ما يتعلق بجوانب الحياة الإسلامية.. بدأنا قراءة القرآن الكريم عن طريق الترجمة اليابانية لمعانيه، تلك الترجمة التي قام بها الأستاذ ايتستسو، وهو ياباني غير مسلم، وهي في ثلاثة أجزاء».

التزود بالثقافة العربية

تولى البروفسور عبدالكريم سايتو رئاسة جمعية مسلمي اليابان حتى سنة ١٩٧١م، فزار البلاد العربية والإسلامية، مشاركاً في الندوات والمؤتمرات، واهتم بإرسال الطلاب اليابانيين الذين أعلنوا إسلامهم أو رغبوا في دراسة اللغة العربية والثقافة الإسلامية إلى خارج اليابان وفي ٢٢ يونيو/حزيران ١٩٦٨م تم الاعتراف بجمعية مسلمي اليابان، كهيئة اعتبارية، وهذا يعني أن الإسلام أصبح

مساوياً للأديان الأخرى في اليابان، وفي سنة ١٩٦٩م صدرت مجلة «صوت الإسلام» بالإنجليزية فكانت لسان حال جمعية مسلمي اليابان وتولى إدارتها الشيخ أبو بكر موريموتو.

وحين كان أمين توكوماس في السنة الثالثة من المرحلة الجامعية، رغب في السفر إلى بلد مسلم ليتعرف الإسلام، وبناء على نصيحة البروفسور عبدالكريم سايتو سافر إلى مصر، يقول أمين توكوماس: ذهبت عام ١٩٦٥ للدراسة في جامعة الأزهر، وكان ذلك على حساب المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، فبقيت في مصر حتى عام ١٩٧٥.. عشر سنوات مرت سريعة أذكرها بسعادة. ففي تلك الفترة تعرفت زوجتي، التي التقيتها أول مرة حين اندلعت حرب ١٩٦٧م، كانت الطالبة اليابانية الوحيدة في القاهرة، كانت تدرس في قسم اللغة العربية بآداب القاهرة، طالبة مستمعة، وكنت قد قطعت المسافة من طوكيو إلى بور سعيد بالسفينة!! حصلت على منحة من إدارة الوافدين بمصر.. كانت منحة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية متواضعة، فعملت زوجتي في شركة الخطوط الجوية اليابانية، إلى جانب دراستها بقسم اللغة العربية».

حياة حافلة

يتوقف أمين توكوماس عن ذكر التفاصيل، وبعد إلحاح يذكر أنه رجع مرة إلى طوكيو ليعقد قرانه على شريكة حياته عام ١٩٧١م وكانت تعتنق المسيحية، فأعلنت إسلامها بعد الزواج، وأخذت تدرس الإسلام بعمق - يقول: «التقينا ثانية في اليابان، وتم عقد القران.. كان أمامنا يوم واحد فقط، قضيناه معاً في فندق المطار، إذ كان علي أن أعود إلى القاهرة لاستكمال الدراسة، أما زوجتي فلحقت بي بعد ستة أشهر، كنت أدرس في قسم الدراسات الخاصة في مدينة البعوث الإسلامية، ثم قدمت طلباً للالتحاق بكلية التجارة جامعة القاهرة، كنا مجموعة من الطلبة المسلمين، أردنا أن نوزع التخصصات على أنفسنا، درس طيب مختار موتو في كلية الشريعة بالأزهر، ودرس محسن أوكاساوارا اللغة العربية، والتحق آخرون بكليات مختلفة، إلا أنني شعرت بأنه يجب أن أدرس اللغة العربية فعدت إلى الأزهر».

كانت حياة أمين مع زوجته فاطمة حياة ملأى بالدراسة والعمل من أجل الإسلام والتعريف بمبادئ الإسلام، وكانت الزوجة تعمل أحياناً، وتتفرغ أحياناً لرعاية طفلتيها، ثم جذبها العمل الإسلامي، فأرادت أن تقدم لليابانيين نماذج من الفكر الإسلامي، وأخذت تبحث هنا وهناك إلى أن وجدت كتاب «نساء النبي» للدكتورة بنت الشاطئ، فأرادت أن تترجمه حتى تصحح المفاهيم الخاطئة لدى اليابانيين عن تعدد الزوجات في الإسلام - يقول أمين: «فكرنا معاً ورأت زوجتي أن نقوم بزيارة الدكتورة بنت الشاطئ، فقابلناها، وطلبت زوجتي منها الإذن بترجمة كتاب نساء النبي، فرحبت الدكتورة بذلك كثيراً، وبدأت زوجتي الترجمة، ونشرت جريدة الأهرام القاهرية هذا الخبر».

ولم تكتف السيدة فاطمة توكوماس بترجمة كتاب نساء النبي، بل قامت أيضاً بترجمة «بنات النبي» وطبع الكتابان بلغة يابانية جميلة، طبعة أنيقة، وأعيدت طباعتهما غير مرة.

وإذا ما قلّبنا ملفات جمعية مسلمي اليابان وجدنا أن أمين توكوماس هو نائب الرئيس وهو أحد مديري الجمعية، وقد عاش عشر سنوات بالقاهرة، ومثلها في الرياض، وقد شارك مؤخراً في المؤتمر الذي عقد بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية لتأسيس المملكة العربية السعودية على يد المغفور له الملك عبدالعزيز، ببحث عن العلاقات الثقافية بين المملكة العربية السعودية واليابان منذ عهد الملك عبدالعزيز إلى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد.

وهو يعمل بشركة الزيت العربية وسكرتيراً بجمعية الصداقة اليابانية السعودية، يفهم جيداً أساليب الدعوة الناجحة بين أهل بلده، ويفضل الحديث عن نشاط جمعية مسلمي اليابان بدلاً من الحديث عن نفسه، مع أنه اشترك في اللجنة الاستشارية لترجمة معاني القرآن الكريم وطباعته، فكان واحداً ضمن أربعة محررين، بالإضافة إلى مشاركته في إعداد النشرات الدعوية الدورية التي تصدر عن الجمعية، (صدر أكثر من مئتي عدد) كما ساهم في التنسيق لترجمة صحيح مسلم، التي صدرت في ثلاثة مجلدات، وشارك زملاءه في إقامة المقبرة الإسلامية، وقام مؤخراً بالتنسيق والإشراف على الكتاب الذي صدر باللغة اليابانية عن جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وجمعية الصداقة اليابانية السعودية بعنوان (حياة الملك عبدالعزيز مؤسس الدولة الحديثة).

أسلوب مختلف

وتحدث أمين توكوماس عن أسلوب الدعوة في اليابان فقال: «إن أسلوب الدعوة في اليابان يختلف عنه في البلاد الأخرى، لقد زار الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي قبل عشرين سنة اليابان وقال للدعاة العرب هناك: لا بد من مراعاة ظروف اليابان، يجب عدم التصادم مع الحياة الاجتماعية اليابانية، ولا بد من فهم العقلية اليابانية؛ ولهذا يجب على المؤسسات والجمعيات الإسلامية في البلدان العربية أن تركز على دعم الدعاة اليابانيين، لأنهم أقدر على فهم عقلية بني وطنهم»

«إنني أختار تفسيراً قرآنياً أفكر في ترجمته إلى اليابانية، ويكون هذا مشروعاً أختم به حياتي إن شاء الله».

ويشدنا مرة ثانية إلى الحديث عن جمعية مسلمي اليابان لا عن نفسه، ويبشرنا بأن الجمعية الآن في سبيلها إلى الانتقال إلى مقرها الجديد الذي تم شراؤه بعد أن تسلمت الجمعية منحة كريمة من صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله ولي العهد وفقه الله، حين زار اليابان مؤخراً، وسوف يكون لهذا الأمر أثره في دعم نشاطات جمعية مسلمي اليابان في السنوات القادمة إن شاء الله.

الحضارة في المفهوم الإسلامي

محمود عكّام

لكل مبدأ مفهوماته وقضاياه، والمفهومات تعني المصطلحات، والقضايا هي الأحكام، والأحكام هي علاقة المفهومات بعضها ببعض، وكل ذلك يشكّل منظومة المبدأ العام. والإسلام، كغيره من المبادئ، له مفاهيمه وقضاياه، أي: مصطلحاته وأحكامه، ولعلّ مصطلح «الحضارة» من المصطلحات التي تتسابق المبادئ إلى تقديمه، والتعريف بذاته من خلاله، لأنه مصطلح عنوان ومفهوم معبِّر عن وصول وإصابة.

وها نحن أولاء نجتهد لنبيّن تعريفه وحدّه من معطيات الإسلام المعرفية، النصية والاجتهادية، ومن الوقائع التاريخية التي رسمت المعرفة حالة تطبيقية مناسبة مصدِّقة ومصدَّقة.

ولن أكون سوى راصد واصف، وعلى الآخرين أن يرصدوا ويصفوا مفهوماتهم، والإنسان هو الحكم في النهاية من غير إكراه ولا قهر، ولا سعي إلى نيل الموافقة بمنافع مادية ضاغطة ترغيباً وترهيباً.

فالحضارة: مصطلح جديد إلى حدّ ما، في استخدامه الاصطلاحي، لكنه من حيث مضمونه قديم قدم الإنسان وظرفيه الزماني والمكاني، لأنه في النتيجة يطرح علاقة منسجمة بين هذه الأركان (الإنسان والزمان والمكان)، يتحدد فيها دور كلٍّ طرف فيها وتأثره وتأثيره.

والإنسان هو أسُّ الحضارة، وهو أقنومها الأهم، ومحورها وقطبها ومرتكزها، وهو الحكم والخصم.

والحضارة للإنسان: شاملة له؛ لكلِّه، لأبعاده، لمخزونه، لشعوره، لكل ذرة فيه، سواء كانت مرئية أوغير مرئية، محسوسة أونفسية، وأهم ما تتصف به الحضارة هو الإنسانية وأخطر ما يهددها ويتوعدها هو اللاإنسانية.

تعريف الحضارة

لا بدّ في التعريف من معرفة المعنى الأساسي القابع في جذر المعرِف ليكون الخيط الناظم للمعاني التي تتفجر من التركيبة الاصطلاحية، والدلالات المتوالية التي أنتجتها أبعاد الحروف ومسافاتها في تراكماتها التعبيرية المتعاقبة، وما أودع العقل البشري فيها من معان لها صلة اشتراك مع الجذر، وعلاقة تشابه مع الأصل.

وعلى هذا، فالحضارة من جذر «حضر»، والحَضَر يرمي إلى الحضور، الآني الحالّ، أي الوجود بكل معناه في الزمن الراهن والمكان القائم، على عكس «البدو» الذي يشير إلى شيء من عدم الوضوح. وإن شئت قل: يعطي دلالة على غياب يجدّ في الظهور، ويسعى إلى الحضور ببداية «البدو»، والحضور هو الأصل، والإنسان ما وجد ليغيب، وإنما وجد ليحضر، وليستمر حضوره، وإن غاب شبحاً.

والحضر: ليس مدنيّة أو مدينة، بل هو أعم وأشمل، لأن المدني جزء من الحضور، وهو يختص بنظام الجماعة، وشكلية المكتنف للجماعة، وترتيب الصيغ في برنامج العلاقات فيها.

ولهذا: ليست الحضارة: Civilisation وإنما هي حضور: Presence، لأن الأولى مدنيّة تعبّر عن مظهر من مظاهر الحضارة، وشكل من أشكالها، وجزء من أجزائها، وتبقى الدلالة الثانية هي الأشمل والأعمق؛ لأنها تغطّي كل الإنسان، في كل مظاهره سواء أكان فرداً أم جماعة.

فتعريف الحضارة ضمن هذا المنظور: حضور ووجود من خلال ممارسة لمنهاج إنساني الموضوع رباني المصدر، يستوعب الإنسان فرداً، عقلاً وقلباً وحركة سلوكية، والناس جماعة بتمام وكمال ومواءمة بين الزمان والمكان المعنيين، وتوازن بين الفرد والجماعة لتصبّ، أي: الممارسة، في

غـايـة مناسـبـة، وتوصل إلى هدف جـاد، على المسـارين الدنيوي والأخـروي، ضمن مسار استيعابي، واقتدار على التلقي والتوريث والمتابعة والاستمرار.

مقومات الحضارة

ـ منهاج متكامل لكل إنسان ولكل الناس:

إذا كان الإنسـان من حيثـية معـينة أساسـية: عقـلاً وقلباً وحركة سلوكية، فإن منهاج الإسلام:

ـ غطى العقل بوظيفة العلم، الذي يشكل القاعدة النظرية التأسيسية لكل فعل إنساني مطلوب، وحسبنا أن نشير إلى بعض مـا جـاء في المصدر الأصلي لهذا المنهاج من آيات حضت وطلبت وحثّت وأمرت. قـال تعالى: *وقل ربِّ زدْني علْمًا*. **طه: ١١٤.**

وقـال تعـالى: *قلْ هلْ يسْتَـوي الّذين يـعْلَمـون والّذين لا يعلمون*. **الزمر: ٩.**

وقال تعـالى: *وعلَّمك مـا لم تكن تعلمُ وكـان فضلُ الله عليك عظيمًا*. **النساء: ١١٣.**

ولنذكر مـقولة من مقولات السنة الشـارحة للمصدر الأصلي، إذ قـال الرسول صلى الله عليـه وسلم: «طلبُ العلمِ فـريضـةٌ على كلِّ مسلم» رواه ابن ماجه.

وفعْل القلب بالإيمان بالله تعـالى الذي يقوم بدورين اثنين:

أولاً ـ تحرير النية لمصلحة النفع العام، لأن اللّه يمثّل هذا النفع العـام، وأنت من طُلب منك أن تتوجـه إلى اللّه في أعمـالك كلها. *وما أُمـروا إلا ليَعـبدوا اللّه مخلصين لهُ الدِّين*. **البينة: ٥.**

ومـا لأحـد عندَهُ من نعـمـة تُجزَى إلا ابـتـغـاءَ وجـهِ ربِّه الأعلى ولسوفَ يَرْضَى. **الليل: ١٩ ـ ٢١.**

ثانيًا ـ الرقـابة الذاتيّة التـي يولّدها الإيمان في المؤمن من خلال اعتـقـاد مؤصّل أكيد بأنّ الـلّه يراه ويراقبه. *وهُو معكم أينمـا كُنتُم*. **الحـديد: ٤.** *والله يـعلمُ مُـتَـقلَّبكم ومَـثْـواكم*. **محمد: ١٩.** *ما يلْفظ من قول إلا لَديه رقيبٌ عتيدٌ*. **ق: ١٨.**

ـ ودعا المنهاج فيما يخص الحركـة السلوكيـة إلى إنشاء العمل الصالح بهـا ومنها، فـهي حركـة سلوكيـة مضبـوطة مؤسسة على العلم الموثّق والمحقق، ومرعيـة بنتاج الإيمان نيةً ومـراقبة، وصلاحيـة العمل هي العنوان الكبير لطبيـعة الحـضارة، ومن هنا كـان الصلاح الصـفة الملاصـقة للعمل المطلوب والمدعـوّ إليـه، وكل الآيات التي دعت إلـى العمل طلبت أن يكون صالحًا، ولن يكون العمل كذلك إلا إذا أُسس على العلم ودُفع بالنيـة الخـالصـة، ومُورس بـاسـتـشـعـار المراقبـة، وشـمل كل مـا صـدر عن الإنسـان دون أن يكون قـاصـراً على العـبـادة الصِّرف الموجّهـة مـبـاشـرة إلى اللّه تعالى، بل يـتسـع ويتسع ليـحيط بالدقـيق والجلل، والصـغير والكبـير وما حـذفُ المفعـول في الآيات التي تذكر العمل إلا برهان ودليل على أن العـملَ عـام وشامل، وكله بضـوابطه الآنفة عـبادة مطلوبة مدعو إليها. *وقل اعملُوا فـسيرى اللّهُ عملَكم ورسولُه والمؤمنون*. **التوبة: ١٠٥.**

إن كل الأعمال، مـا كان منها مطلوبًا أو ممنوعـًا، تتجذر بالقـوة نفسـهـا طلبًا للصـالح، ورفضًا لـلطالح في أرض الإيمان، فليس هنـاك عمـل أولى من عـمل، وإنما المقدّم هو المقتضى زمانًا ومكانًا ونفعـًا، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «إن قامت على أحـدكم القيامـة وفي يده فسيلة فليغرسـهـا» رواه أحمد.



ديورانت

وقـال تعـالى: *فـإذا قُـضـيت الصـلاةُ فـانتـشـروا في الأرض وابتَـغُـوا من فـضل الله*. **الجمعة: ١٠.**

ويتسم هذا المنـهـاج من حـيث ارتبـاطه بالإنسان كلاً: بالتمام والكمال.

أمـا التـمـام: فـيـعني النوع الأفـضل في جنسـه، لأنه ـ أي المبـدأ والمنهـاج ـ من الوجـود المطلق، والعلم المطلق، والحكمـة المطلقة الأعلم بالإنسـان، ولأن التجربة في مجملها ما زالت تشير إلى هذا.

وأما الكمـال: فيعني الاستـيعاب والشـمول. فقد اكـتملت الدينونة للّه تعالى لتشمل كل صغـيرة وكبيرة لدى الإنسان، ولتغطي كل الناس على اخـتلاف أحوالهم: *اليومَ أكملتُ لكم دينَكُم وأتممتُ عليكُم نعـمـتي ورضـيتُ لـكُم الإسـلامَ دينًا*. **المائدة: ٣.**

ـ ويتسم أيضًا بالتوازن العظيم بين الفرد والجماعة، دون إفراط أو تفريط من طرف على الآخـر أوللآخر، فحق الفرد مـصـون دمـًا وعـرضـًا ومـالاً. «إنّ دمـاءكم وأمـوالكم وأعراضكم حرامٌ عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا» رواه البخـاري، وبيته مصون: *لا تدخُلوا بيوتًا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتُسلِّموا على أهلها*. **النور: ٢٧،** واعتقـاده مصون: *لا إكراهَ في الدين*. **البقرة: ٢٥٦،** وفكره مصـون: إذا اجتـهد الحاكم فـأصاب فله أجـران وإن اجتـهد فأخطأ فله أجر.

وأما الجـماعة فـتقـوم على التعاون والاعـتصـام والإيثار

والتنظيم والتأطير: *واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرّقوا*. **آل عمران:١٠٣**. *وتعاونوا على البر والتقوى*. **المائدة:٢**. *ويُؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة*. **الحشر:٩**.

وعلى كل فليس المجال هنا حديثًا عن الجماعية في الإسلام، لكنّما الإشارة إلى الوجود هي المطلب، وأما رسم الحدود والملامح ففي مفصّل موسّع، واندماج الفرد في الجماعة طوعيٌّ تكليفيٌّ، وليس قهريًا جبريًا وشتان بين الأول والثاني.

ـ كما يتسم بالتوازن بين المادة والمعنى، فالإنسان ليس مادة فحسب، كُوّن من الأرض فكان منها كبقية مستخرجاتها، وهو ليس معنى فقط هبط من السماء فلا علاقة له بالأرض، وإنما هو هما معًا.

فالمادة أساسية وهي منبر المعنى، ومحل تجلّيه، ولا بدّ من العناية بها ورعايتها ليتجلى ويظهر المعنى أقوى: *فإذا سوّيتُه ونفختُ فيه من روحي فقعُوا لهُ ساجدين*. **ص:٧٢**.

وهيهات أن يفلح من اكتفى بتسوية دون روح، أو بروح دون تسوية!!.

ـ الانسجام بين الإنسان والزمان والمكان:

للزمن أبعاد، وللمكان حدود، والزمن الذي يكتنفك بُعده عصرُك، والمكان الذي تغلّفك حدوده أرضُك، فلتكن في عصرك وفي أرضك، ولتعبّر عنهما، وليعبّرا عنك.


جوته

فكم من إنسان لم يعش عصره، فلم يكن حاضرًا فيه، وإنما قضى أيامه لاجئًا في كهوف التاريخ، أو ضائعًا في أوهام مستقبل منقطع عن الحاضر! وكم من إنسان جافي أرضه فجفته وجافته، فاستبدل بالأرض السماء، وغيّر الأشياء، وبدّلها وعبث بها! فهو الذي لا يريد حضورًا في الأرض، ويبحث عن متعلّق وهمي في الفضاء ولن يجده، وكان عليه أن يعلم أن لا عروج إلى السماء إلا بعد رسوخ في الأرض وأداء حقها.

ولذا أقسم الله بالعصر المكتنف لكل الإنسان وعصر كل إنسان، على أنّ هذا الإنسان إن لم يكن حاضرًا في عصره بالإيمان والعمل الصالح والتلقي والتوريث والمصابرة فهو في خسران وتدهور: *والعصر إنّ الإنسان لفي خُسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصّبر*. **العصر:١-٣**.

عش عصرك؛ متطلباته وضروراته، اعرف إنسانه؛ حاجاته وتطلعاته، أغواره وأشواقه، واعمل لهذا ولذاك باذلاً كل جهدك لتكون حاضرًا حضاريًا، قف على أرضك، طورّها، ابنِها، عمّرها، احرُثها، ازرعها، لتكون حاضرًا فيها وبها، وحاضرة فيك وبك، وهيهات أن تكون الحضارة حلمًا وخيالاً، وإنما هي حقيقة وواقع، والعمل هو تلاقي الإنسان مع الزمان والمكان والحركة. فهل يصدر هذا العمل إنسانيًا طيبًا صالحًا أم لا إنسانيًا خبيثًا طالحًا؟ *فويلٌ للقاسية قلوبُهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين*. **الزمر:٢٢**.

ـ الغاية المناسبة للإنسان:

المناسبة المقصودة هي الانسجام بين طبيعة الإنسان وطبيعة الغاية، ولعل الإنسان، إذ يفكر بغايته، أي: بما من أجله وُجد وخُلق، لن يجد أولى من الذي خلقه برسم معالم هذه الغاية؛ لأن الخالق أعلم والصانع أدرى: *ألا يعلمُ من خَلَق وهو اللطيفُ الخبير*. **الملك:١٤**.

ومن أُولى مهام الحضارة أن تضع النقاط على الحروف فيما يتعلق بغاية الإنسان، وإلاّ تمزّق هذا الإنسان وتبعثر وتعثّر وضاع ناظمه بين بداياته ونهاياته، وطاش صوابه بين منطلقات مرسومة ونتائج موهومة.

وجاءت حضارة الإسلام لترسم للإنسان غاية هي العبادة: *وما خلقتُ الجنّ والإنس إلا ليعبدون*. **الذاريات:٥٦**. والعبادة صلة بالمطلق، وارتباط بالأعلى، ونظرة إلى الأبعد، وامتداد إلى اللانهاية، واستكشاف لما حول الإنسان، ولمن حوله، ووضع الخطوات في مسارها، فإن قصرت الغاية عن هذا تناهبت الإنسان وساوس الاضطراب، وغدا لاهثًا وراء سجف سرابية لا تخفى أبدًا، وراءها نداءات الوهم وشطحات الضلال البعيد، فيموت من يموت، ولا يدري لِمَ مات؟ ويعيش من يعيش وهو يظن أنْ لم يولد بعدا!.

فالحضارة من غير غاية لإنسانها تَعَب، ومن دون تطلّع محدد ضنى، والعبادة إذ تكون غاية تنتفي النفعية المقيتة، والوصولية البغيضة: *إنّما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورًا، إنّا نخافُ من ربِّنا يومًا عَبُوسًا قمطريرًا، فوقاهم اللهُ شرَّ ذلك اليوم ولقّاهم نضْرةً وسُرورًا، وجزاهم بما صَبروا جنّةً وحريرًا*. **الإنسان:٩-١٢**.

والجزاء ذو مظهر حضاري، وهو من جنس العمل. فالجنة والحرير إنتاج وصناعة لا أروع ولا أجمل.

ـ الهدف الجاد على المستويين الدنيوي والأخروي:

ما الذي تريد إصابته وتحقيقه أيها الإنسان على مستوى هذه الدنيا؟

ومن الذي تبغي الوصول إليه إذا لفّك الموت، واكتنفك الأجل المكتوب؟ هل ذكرت وتدبرت؟

بَسْطُ حكم الله وشريعته على وجه البسيطة هدف على المستوى الدنيوي: *الذين إنْ مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر*. **الحج**: ٤١.

وخلاصة شريعة الله: صلات وتعايش بين العبد وخالقه، وبين العبد ونظرائه، أعني الناس جميعاً، وتعاون مثمر بنّاء يقبع وراءه دافع الطهارة من كل دنس ورجس ومادية وأثرة، ونصح بين الجميع على أسس من معروفية الفطرة ومطاليبها، وأحكام العقل وقواعده. ومقبولية القلب واطمئنانه.

مَنْ الذي لا يبحث اليوم عن معان كتلك التي حددناها لترتسم أهدافاً في سماء هذه الدنيا يشعر الناس أنها مصابيح لهم يهتدون بها وإليها؟

لقد تأكد التعايش مطلباً، واللقاء قضية إنسانية، فهل من راسم لمعالم هذا؟ إننا لمنتظرون وبيدنا أقلامنا لنكتب: *اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم*. **العلق**: ١ـ ٥.

وإذا كان البعد الزمني لا يقف عند حدود الدنيا، فما الهدف الذي تسعى إليه لتناله بعد هذه الدنيا، وأنت من يرى كل يوم منتقلين إلى هناك، وسيأتي يوم يراك فيه غيرك منتقلاً لا تستأخر ساعة ولا تستقدم، كتاباً محتوماً، وأجلاً مقدراً مكتوباً.

فحضارة الإسلام تطرح مفهومي الجنة والنار، وتطرح قضية الفوز بالأولى، والنجاة من الثانية هدفاً يرتكز في الآخرة بعد الأولى.

أليس من الطرح وتمامه أن تكشف بنقل موثّق عن بعض ما سيجري بعد النقلة النوعية التي هي الموت؟

أليس من القصور أن توقف الحديث عند الموت؟ فالإنسان أكبر من أن ينتهي بنهاية سنوات عيش لا يعرف كميتها ولا عدّها ابتداءً واستمراراً.

فالحضارة إذاً: *ربّنا آتنا في الدُّنيا حسنة وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النّار*. **البقرة**: ٢٠١، ولا نريد أن نعيد كرة الحديث في تبيان ما غدا بيّناً بالقوة، وإن أنكره بعضهم، وتوضيح ما أضحى واضحاً، وإن غطّى بعضهم أبصارهم عنه.

إن الحضارة التي لا تأخذ في الحسبان المصطلحات كافة، وتجمع بينها بناظم عقلاني عرفاني، حضارة غابت عن هذه المصطلحات، ومن ثم فهي ناقصة قاصرة، والأصل فيها وفي موضوعها كمالُها وشمولُها وعمومُها وامتدادُها.

ـ السعة والاستيعاب:

الحضارة سعة، وصاحبها مستوعِب، وليس مستوعَباً، وغلبة الحضارة تعني اتساعها واستيعابها غيرها، فالحضارات لا تتصارع، وإنما هي حضارة واحدة في النهاية، ولا تقوم الحضارة على شتم الحضارات، وإنما الحضارة هي التي تتحمل شتم أشباه الحضارات.

> الحضارة ليست برنامجاً مسجلاً نعرضه ليُتفرّج عليه! وليست لوحة موروثة نعلّقها، ولكنها فعل مستمر، وعمل متتابع

إننا حين نتكلم على الاستيعاب والسعة أسلوباً فردياً يعبّر عن حضارة الفرد نذكر الأنبياء والمرسلين والمصلحين والمجدّدين فنرى هذه السمة جلية فيهم، غزيرة في صدورها عنهم، فهي التطبيق الأمثل لنصوص السماء التي دعتهم إلى هذا وطالبتهم أن يتبنوه ديناً يدينون به لله عز وجل. فالقرآن نصاً يقول: *وقولوا للناس حُسناً*. **البقرة**:٨٣. *ادفع بالتي هي أحسن*. **المؤمنون**:٩٦، **وفصلت**:٣٤. *ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة*. **النحل**:١٢٥.

والرسول صلى الله عليه وسلم يبيّن شارحاً في جملة ما يقول: «إنّ الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِبْحة» أخرجه الإمام مسلم.

والواقع التطبيقي الصادر كثير في مفرداته، وافر في أمثلته.

يروي البخاري عن ابن مسعود قال: «رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يحكي نبياً ضربه قومه فأدموه فجعل يمسح الدم عن جبينه ويقول: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون».

وإذ نذكر السعة أسلوبياً جماعياً ودولياً نذكر دولة الرشد والأمان وقوانين الاستيعاب التي ارتسمت في الحدود والتفاعل الجماعي والتعاون الدولي، نذكر رعاية الجوار، ووفاء العهود واحترام الكلمة، وفرضية العدل: ولا يجرمنّكم *شنآنُ قومٍ على ألاّ تعدلُوا اعدلُوا هو أقربُ للتقوى*. **المائدة:٨.**

ـ الممارسة والتطبيق:

الحديث هنا عن نتاج وواقع وفرز عملي، دون أن نبقى في حيّز القول والمدّعى، ولا نبغي في هذا البحث عرضاً موسعاً أو بسطاً لكل ما ظهر على أرض الواقع، وسجلته التأريخات على اختلافاتها، ولكننا نكتفي بإحالات وإرجاعات، عد إلى القرآن الكريم من أجل المنهاج النظري الحق، وعد إلى الواقع والملفات الحياتية فهي مخبر التفاعلات الإنسانية، ومحل تحقيق القضايا (اللا تجريبية)، فالتجريب لعلوم التجريب يتم في المخبر، والبرهان لعلوم الإنسان كامن في مستودعات الأيام والسنين، وينتظر معتبرين.

ولعلك أيها القارىء تطلب تأكيد الشق المادي في حضارتنا، الذي قصّر المسلمون فيه اليوم وأهملوه، ولم يرفعوه رايةً من جملة الرايات العبادية التي ينبغي حملها والجهاد دونها، إذاً اقرأ في القرآن الكريم عن الحديد والشمس والظل والحرور والقمر والليل والنهار والكواكب والبحار والأنهار والجاريات كالأعلام. والثقوب السوداء والطارق والزيتون، والنخل والصخر، والمياه والنحاس والذهب والسحاب والنار ووو..واقرأ دعوة أكيدة تشكّل حكماً تكليفياً اسمه الفرض مقرونة مع هذه الكلمات الكثيرة الغزيرة.

واقرأ ما خلّفه المتفاعلون بجد مع هذه النصوص، كالرازي وابن سينا وابن البيطار وابن ماجد وابن النفيس وابن رشد والبيروني والجبرتي والإدريسي وابن خلدون والفارابي وسواهم.

ورتّل معي شهادات جاءت من مختصين رفعت أسمى آيات التقدير لحصيلة كانت في هذا الميدان: ول ديورانت، ورامبو، وجوته، وآريس، ولوبون، والدوميلي، وكراتشوفسكي، وبروتس، وسواهم يشهدون ويعترفون ويتابعهم في عصرنا أحفاد لهم منصفون، وأكتفي هنا بنقل عبارة غوته إذ يقول: «إنّ المسلمين علّمونا صناعة البارود والكتابة وإبرة السفينة والورق والطباعة»، وعبارة «آريس» الذي يقول: «إنّ عمل المسلمين في الزراعة قديماً يشبه ما تقوم به الولايات المتحدة اليوم، وعلى كلٍ فللمقام للإشارة وللتفصيل مقامات أخرى.

ـ النقل والتوريث والمسؤولية:

هنا تكمن الطامة الكبرى، والكارثة القاتلة بالنسبة إلينا نحن من نجترُّ ونحكي، فالحضارة أيها الناس ليست برنامجاً مسجلاً نعرضه ليُتفرّج عليه! وليست لوحة موروثة نعلّقها، ولكنها فعل مستمر، وعمل متتابع، وتحقق مطّرد، لقد أخفقنا ـ وهذا اعتراف ـ أن نكون الوارثين، والخلَف لمورِّث وسلف حضر في عصره أيما حضور. وها نحن أولاء نمني ونتمنى لو كنا قد حضرنا معه في عصره على حساب فعل منا يحضِّرنا في عصرنا، وإنتاج ينقل تركة صالحة لمن بعدنا، فلا يكفي عصرنا حكاياتٌ وقصص، وترداد ما وقع، ولن يتم البناء ويستمر بشعارات وهتافات.

ليس هناك عمل أولى من عمل، وإنما المقدّم هو المقتضى زماناً ومكاناً ونفعاً

مشكلتنا في حضورنا، وليس في حضارتنا، فحضارتنا حاضرة، ولكن الحمَلة الوارثين غائبون. حضارتنا ماثلة أمام أعيننا، ولكننا عنها غائبون، ومشغولون بما يعود عليها بالرفض وفق قانون المنعكس الشرطي.

بأسنا بيننا شديد، صراعنا على مفاهيم لا تحتمل صراعاً، عبادتنا مقصورة على المباشر منها بشكلية محضة دون روح وحقيقة، آمالنا صغيرة، آلامنا منّا، عهدنا بيننا غير مرعي، لهجة خطابنا مفكّكة، الحلقة التي نضعها ليست من طبيعة السلسلة النورانية التي انقطعت بنا وعندنا، وحلّت محلها حلقة من صنع غيرنا، ربما كانت أكثر انسجاماً مع السلسلة حتى ولو اختلفت معها في بعض أوصافها، المهم فيها أنها حلقة، وليست وهم حلقة.

وعد الله لا يشمل من ادّعى وإنما من وعى.

والتمكين في الأرض هدفاً لا يصله الخامل، وإنما هو للفاعل.

والحضور ليس تاريخاً يحكى، وإنما حاضر يبنى متصلاً مع التاريخ وممتداً إلى المستقبل الواضح.

اللهم دعِّم وجودنا بحضور، وحضورنا بعطاء، وعطاءنا بقوة التوريث الحق والاستمرار.

قفط.. مدينة الحضارة والتاريخ

أحمد إسماعيل عبدالكريم



صورة من أعلى لمعبد الملك إيزيس «بالقلعة»

مدينة قديمة لها أمجادها العريقة التي تعانق الزمان، ولها أصالتها التي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، ولها مآثرها التي تخلدها عبر الأزمان، فتمتد حضارتها الراسخة إلى عصور ما قبل التاريخ، مرت بعصور مختلفة بدءاً من العصور الفرعونية بأسرها المتعاقبة، ثم بالحكم الفارسي واليوناني والروماني وغيرهم ممن تعاقبوا على حكم مصر، وقد نهلت قفْط من الحضارات المختلفة التي تزاوجت على أرضها، وذلك بفضل التجار والرحالين والعلماء الذين مروا بها ووفدوا إليها من كل حدب وصوب، وكذا القبائل العربية المهاجرة عبر طريق القوافل الذي يقع على رأسها.

وقد أخذت قفْط مكانها السامق في سجل التاريخ، ودورها الرائد في بناء الحضارة الإنسانية خلال الأحقاب الزمنية المختلفة، تقف شامخة الهامة، أبية لم تخضع لطاغية، ولم تستسلم لحاكم جبار، ولا خضعت لسلطان أو إمبراطور جائر، بل كانت دائماً سباقة إلى الثورة على الطغاة، ومقاومة العدوان ودحره، وكأني بالشاعر العربي يخص أهل قفط، فيصف سمو أخلاقهم، واستبسالهم في الحرب، وسرعة نجدتهم في الشدة، ومساندتهم للضعيف، وفرط سخائهم، وكرمهم الذي لا حدود له حين يعم العرب بقوله:

أمامك قصة عن مجد قوم
تقشع عن سمائهم السحابْ

مناصل إنْ دُعُوا للحرب لبَّوا
وإنْ نُودوا لمكرمة أجابوا

وقد حظيت قفط بمكانة كبيرة في التاريخ عبر عصوره المختلفة، ولاتزال إلى الآن ينظر إليها الباحثون والمؤرخون والرحالون بعين الاحترام والتقدير.

- أصل التسمية:

قفط، بكسر القاف وسكون الفاء والطاء المهملة في الآخر، اختلف المؤرخون في أصل تسميتها، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، وقد أرجع المؤرخ المقريزي (ت:٨٤٥هـ) في خططه أصل هذه التسمية إلى قبطيم بن مصرايم بن مصر بن حام بن نوح عليه السلام، ثم يقول: وكانت في الدهر الأول مدينة الإقليم، وإنما بدأ خرابها بعد الأربعمئة من تاريخ الهجرة النبوية، وآخر ما كان فيها بعد السبعمئة من سني الهجرة أربعون مسبكًا للسكر، وست معاصر للقصب.. إلى أن يقول: وقد قيل عن قبطيم: أنه ولي الملك بعد أبيه وكان أكبر ولد أبيه، وكان أول من عمل العجائب بمصر، وآثار بها المعادن وشق الأنهار(١).

ويرد القلقشندي أصل تسميتها إلى قفط بن قبطيم حيث يقول في كتابه صبح الأعشى(٢): «كانت مدينة قديمة بالبر الشرقي من النيل جنوبي قنا بناها قفط بن قبطيم بن مصر بن حام بن نوح عليه السلام» ثم يقول: «أحد ملوك مصر بعد الطوفان، فخربت، وبقيت آثارها وعمرت بالقرب منها مدينة صغيرة سميت باسمها». ويرى جوتلييه في قاموسه أن اسمها المصري QEPTIأو QEPTA والقبطي KEPTOU أو KEPT ومنه اسمها العربي قفط، والرومي KEP-TOU أو KOPTOS، واللاتيني COP-TOS، ومهما يكن من أمر، فإن جميع هذه الآراء التي ذكرها المؤرخون والرحالون لا يمكننا بحال من الأحوال أن نغمط من صحتها، أو من رؤيتهم لها، ولكننا نميل إلى ترجيح هذا الرأي الذي يرتاح إليه كثير من المؤرخين، وذكره الأستاذ نور علي القفطي في كتابه «قفط مدينة الخلود»(٣) حيث جاء فيه «وإنها اشتقت من التعبير» «ثا - بونت نتر» من جيبتو "GEBTYU" الذي يعني بلد القوافل، وهي حقيقة تعرض لها بالذكر كثير من المؤرخين؛ وذلك لموقعها على رأس الطريق الذي يربط بين النيل والبحر الأحمر، طريق القصير، والذي جعلها نافذة يطل بها الآسيوي على الإفريقي والعكس.

- الموقع الجغرافي وأهميته:

تقع مدينة قفط بالبر الشرقي من النيل على بعد ٢٢ كيلو مترًا جنوب قنا، وعلى بعد ٣٠ ميلاً شمال طيبة، الأقصر حاليًا، وتبعد عن النيل بما لا يزيد على ميلين ومثلها من الصحراء، وقد جاء ذكرها في كتاب EGYPTE الذي صدر بالفرنسية لمجموعة من الباحثين في الآثار الشرقية، في تناولهم لجميع المدن المصرية من الناحية التاريخية «... مدينة قفط على بعد ٦٧٩ كيلو مترًا جنوب القاهرة، اسمها القديم «كوبتوس» KOPTOS».

وتعد مدينة قفط واحدة من أعظم الأسواق الرئيسة بقنا، وكانت عاصمة لها أهميتها أيام الفراعنة، وبسبب موقعها المتميز ظلت واحدة من أهم مدن الاستقرار الحضاري، وقد قام الكثيرون من كبار رجال الآثار بزيارة هذه المدينة التاريخية العريقة لإجراء الدراسات التاريخية، والتنقيب عن آثارها التاريخية القديمة ومعابدها المتهدمة، وقد انفردت قفط بموقعها الجغرافي الممتاز من بين المدن المصرية سواء في العصور القديمة أو الحديثة؛ وذلك لموقعها على رأس طريق القوافل الذي يعدّ أقصر الطرق بين النيل والبحر الأحمر. ولذا كان الرحالون يرتادونها



جانب من بقايا قدس الأقداس للملك قفطيم


مئذنة المسجد العمري

قِفْطُ: بكسر أوله، وسكون ثانيه، كلمة عجمية لا أعرف في العربية لها أصلاً، وهي مسماة بقفط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح، عليه السلام، وقبط بالباء الموحدة، قالوا: إنه أخو قفط وأصله في كلامهم قفطيم ومصريم، ولما حاز مصر بن بيصر الديار المصرية، كما ذكرنا في مصر، وكثر ولده أقطع ابنه قفط بالصعيد الأعلى إلى أسوان في المشرق وابتنى مدينة قفط في وسط أعماله فسميت به، وهي الآن وقفٌ على العلوية من أيام أمير المؤمنين علي بن أبي الطالب، رضي الله عنه، وليس في ديار مصر ضيعةٌ وقفٌ ولا ملكٌ لأحد غيرها إنما الجميع للسلطان إلاّ الحُبْس الجيوشي وهو ضياع وقرى وقفها أمير الجيوش بدر الجمالي، قال: والغالب على معيشة أهلها التجارة والسفر إلى الهند، وليست على ضفة النيل، بل بينهما نحو الميل، وساحلها يسمى بقُطْر، وبينها وبين قُوص نحو الفرسخ، وفيها أسواق، وأهلها أصحاب ثروة، وحولها مزارع، وبساتين كثيرة فيها النخل والأترج والليمون، والجبل عليها مطلٌ، وإليها ينسب الوزير الصاحب جمال الدين الأكرم أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي، أصلُهم قديماً من أرض الكوفة انتقلوا إليها فأقاموا بها، ثم انتقل فأقام بحلب وولي الوزارة لصاحبها الملك العزيز ابن الملك الظاهر غازي بن أيوب، وهو الآن بها، وأبوه الأشرف ولي عدة ولايات منها البيت المقدس، وانتقل إلى اليمن فهو إلى الآن به في حياة، وأخوه مؤيد الدين إبراهيم بحلب أيضاً، وكلهم كُتّاب علماء فضلاء لهم تصانيف وأشعار وآداب وذكاء وفطنة وفضل غزير.

معجم البلدان لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ج٤/٣٨٣ (قفط)

وتقصدها القوافل من البحار، والحجاج، ومن ثم عدّ طريقًا يربط بين إفريقية وآسيا، وجعل قفطًا مهبطًا للحضارات، كما أغنى الحركة الاقتصادية، وأضحت قفط مركزًا تجاريًا مهمًا حيث تشير الدلائل التاريخية أن ثمة علاقة بين القبائل المعينية الموجودة في مصر - ومنهم قبيلة نجع معين الموجودة على رأس طريق - قفط القصير، والمعينيون الذين اشتهروا بتقدمهم الحضاري، ولاسيما امتهانهم التجارة، واشتغالهم بها على نطاق واسع، ويؤكد ذلك صاحب كتاب القبائل العربية في مصر(٤): «إن هؤلاء المعينيين أنفسهم زاولوا النقل التجاري بين دولة حمير المزدهرة في الجنوب حينذاك». ولقصر المسافة - ولذا يُرجع بعض الناس تسميتَها بطريق القصير - بين نهر النيل والبحر الأحمر في قفط - رأس طريق القوافل - إلى الدور الكبير في ازدهار الحركة التجارية، وتزاوج الحضارات على أرضها، وارتباط مصر بكثير من البلدان التي حولها، ولا سيما بلاد بونت التي كانت تمارس التجارة على نطاق واسع، وقد ذكر الدكتور عبدالعزيز صالح أهمية قفط من الناحية الاقتصادية والدور الذي أدته على مر العصور، إذ يقول(٥): «ظلت لمدينة قفط أهميتها الاقتصادية طوال العصور القديمة لوقوعها على بداية الطريق إلى محاجر الصحراء الشرقية ومناجمها إلى ميناء القصير على ساحل البحر الأحمر». وذكر أيضاً مؤلفو كتاب EGYPTE «أنها كانت في كل العصور مفتاح التجارة خصوصاً مع البلاد الواقعة على البحر الأحمر»(٦).

ولأهمية موقع قفط التجاري، وغنى أراضيها بالثروات الطبيعية فقد تنبهت القيادة السياسية في مصر إلى ضرورة الاستفادة منها بإقامة منطقة صناعية كبرى شرقها؛ وذلك بالشروع بإنشاء أول مصنع لإنتاج الإسمنت(٧)؛ وذلك باستثمارات تقدر بنحو ٦٠٠ مليون جنيه، وقد بدأ التنفيذ لإقامة هذا المصنع تلبية لدعوة السيد الرئيس محمد حسني مبارك، وهي مبادرة تستحق الإشادة؛ وذلك للاستفادة من موقع هذه المنطقة الإستراتيجي الممتاز.

وصف قفط

وصفها كثير من المؤرخين والرحالين والأثريين، فقال عنها الإدريسي (ت: ٥٦٠هـ): «إنها مدينة جامعة متحضرة بها أخلاط من الناس وأهلها شيعة وفيها بقايا من الروم»(٨)، وقال عنها واصفًا مزارعها الخضراء، ومروجها الشاسعة المترامية: «وبها مزارع كثيرة للبقول، وكثير من الخضراوات كاللفت والخس التي يجمعون بذورها ويطبخونها ويستخرجون أدهانها ويصنعون منها نوعًا من الصابون القفطي يتصرفون به في جميع أرض مصر»(٨)، وقال عنها الأدفوي: «إنها كانت مدينة الإقليم»(٩)، وقال عنها ياقوت الحموي

(ت:٦٢٦هـ): «أهلها أصحاب ثروة؛ ويحيط بقفط المزارع والبساتين الكثيرة، وكان يزرع بهذه البلدة أشجار السنط التي كان الفراعنة يصنعون منها القوارب والسفن».

وذكر الرحالة ابن جبير مدى رونقها وجمال مظهرها وفخامة بنياتها إذ يصفها بقوله: «إنها من المدن المذكورة في الصعيد حسناً ونظافة بنيان وإتقان وضع»(١٠).

وذكر ابن الجيعان دور قفط العلماء، والفقهاء والمحدثين وهم في طريقهم إلى الحج ، فعمرت مساجدها ومدارسها وأنديتها بهؤلاء العلماء الأجلاء الذين طاب لهم أن يعقدوا حلقات الدرس والوعظ، وازدهرت على إثر ذلك الحركة العلمية بمدينة «قفط» وقصدها الدارسون والباحثون فنشطت نشاطاً ملحوظاً».

قفط عبر التاريخ

ـ قفط في العصور الفرعونية:

تعدّ قفط من أقدم المدن المصرية



بقايا معبد الملك «مين» ويبدو بعدها سور النادي الرياضي بقفط

وإسهاماتها الاقتصادية من بين المدن المصرية: «إن عبرتها ـ أي خراجها ثلاثة وثلاثون وأربعمائة وخمسة آلاف دينار باسم أمير المدينة النبوية(١١)، وتعرض لذكرها من المحدثين الأستاذ الأديب المحقق محمد عبده الحجاجي في مجلة «الأمة» القطرية قائلاً: «إن هذه المدينة كما وصفها كثير من الرحالين والجغرافيين العرب كانت طريقاً آمناً للحج مرغوباً فأكسبها ذلك صيتاً بعيداً في ازدهار أسواقها وكثرة تجارتها وخيراتها، وكان ذلك سبباً في أنها جذبت إليها كثيراً من في التاريخ، إذ يمتد تاريخها إلى العصور الفرعونية، فيرجع تاريخها إلى الأسرة الأولى من الحكم الفرعوني، والتي نسبت إلى الملك مينا الذي نُعت بموحد القطرين، وكان ذلك في حدود سنة ٣٠٠٠ق.م وكانت قفط منذ ذلك التاريخ واحدة من أهم المدن، وقد اكتسبت هذه الأهمية لوقوعها على رأس طريق القوافل المسمى بوادي الحمامات الموصل بين البحر الأحمر ونهر النيل، بالإضافة إلى توافر نفائس المعادن في صحرائها، وعلى رأسها الذهب الذي لفت انتباه الملوك الفراعنة، ووفدت من أجله إلى صحراء قفط البعثات، وذلك من أجل الحصول عليه، وكذا الحجارة اللازمة لبناء المعابد. وقد عدد أحد الباحثين هذه البعثات خمساً.

وتشير بعض الدلائل التاريخية أن قفطاً كانت عاصمة الإقليم، وبها مقر الحكم؛ وذلك في الأسرة الثامنة، وقد أقر العالم «زيته» هذه الفكرة، وبنى رأيه هذا على وجود الكثير من آثار ملوكها هناك.

ويذكر أساتذة التاريخ أن قفط شبت قوية، وأن الفراعنة كانوا يعتمدون على مناصرة بعض البيوت القوية في الأقاليم، ويؤكد ذلك الدكتور أحمد فخري أستاذ تاريخ مصر الفرعونية في كتاب «مصر الفرعونية» إذ يقول: «إن الفراعنة في العصر الأول كانوا يعتمدون على مناصرة بعض البيوت القوية في الأقاليم، وكانوا أيضاً يصاهرونهم ويمنحونهم بعض الامتيازات، وقد حفظت لنا الأيام في خرائب معبد الإله «مين» في قفط بضعة مراسيم منحها آخر ثلاثة من ملوك الأسرة الثامنة لأعضاء هذا البيت واعتزوا بها، ووضعوا صورها منقوشة على لوحات حجرية في المعبد، وأكثر هذه المراسيم لمصلحة اثنين من هذا البيت هما «شماي» الذي كان أميراً لذلك الإقليم وابنه «إيدي»».

ويبدو أن نفوذ هذه الأسرة القفطية الحاكمة ازداد شيئاً فشيئاً حتى حكموا سبعة أقاليم من جنوب الصعيد لولا أن السلطة التي توافرت لهم لم تستمر أكثر من أربعين عاماً فيما يعتقد كورت زيته K- SETHE.

وهكذا بلغت قفط شأواً عظيماً خلال العصور الفرعونية المتعاقبة.

ـ قفط في العصر الروماني:

بعد انتصار أسطول روما على أسطول كليوباترا في موقعة «أكتيوم» عام ٣١ق.م دخلت الجيوش الرومانية مصر في العام التالي بقيادة أوكتافيا نوس الذي صار فيما بعد الإمبراطور «أوغسطس»، وأصبحت مصر إحدى الولايات التابعة للدولة الرومانية، واستمرت تحت نير الحكم الروماني نحو سبعة قرون(١٢).

ولما تنبه الرومان لأهمية قفط، قاموا بسرقة آثارها وتشويه معابدها، وفرض الضرائب على أهلها، وقاموا أيضاً ببناء الحصون الحربية التي لاتزال باقية حتى الآن.

وأخذت قفط مكانتها الحضارية ووضعها المتميز لكونها مدينة لها تاريخها المجيد، وازدادت قيمتها من الناحية التجارية، وتم أيضاً استغلال الموارد المكنونة في صحرائها من مناجم ومحاجر ونفائس.

ولما كانت طبيعة أهل قفط لا تعرف الخنوع ولا المهادنة والخضوع، يرفضون البغي والقهر والطغيان، قادتهم حميتهم إلى حمل لواء المقاومة ضد الاضطهاد الروماني للمسيحيين مما حدا بالإمبراطور الروماني ماكسيمان إلى تدمير قفط تدميراً هائلاً بيد أن أهالي قفط لم تثنهم بشاعة الرومان وجبروت إمبراطورهم عن الوقوف في وجه الظلم والطغيان، ولم يستسلم أهل قفط لما أصاب بلدهم من دمار شديد إزاء تصرف إمبراطور الرومان الطائش ونزقه المتوحش، فأعادوا الكرة عليه مرة أخرى ليثأروا منه ومن فعله، ولذا ثاروا في سنة ٢٩٢م على الإمبراطور قلديانوس فاضطر أن يهاجم قفطاً بقواته، فخربها وأحل نهبها وسلبها لعسكره حتى قضوا عليها، وبعد أن أعاد عمارتها مرة ثانية عزل زعماء هذه الثورة في نجع بوصير الذي سمي كوم الكفار ويسمى كوم المؤمنين حالياً(١٢).

إسترابون إلى أن العرب كانوا يسكنون مدينة قفط قبل الإسلام إذ يقول: «إن نصف سكان قفط منهم ـ أي من العرب ـ وربما أخذوا كلمة قبط من النسبة إلى هذه المدينة القديمة الواقعة على طريق الحجاز».

وقد أشار مؤلف كتاب عروبة مصر وأقباطها إلى قدم اتصال العرب بمصر عن طريق قفط إذ يقول: «عروبة مصر قديمة إذ تسبق الفتح الإسلامي بقرون



مدخل معبد الملك إيزيس «بالقلعة»

قفط في العصر الإسلامي

اكتسبت قفط بفضل طريق القوافل ووادي الحمامات أهمية كبيرة؛ إذ لفت الباحثون والرحالون النظر إلى أهميتها وجعلها ملتقىً حضارياً مهماً، وربطها أيضاً ببلاد العرب، فكانت واجهة مصر، وأول موطئ أقدام القادمين إلى أرض مصر ـ في مصر، وقد أشار كثير من الباحثين إلى أن اتصال العرب بقفط لم يكن وليد الفتح الإسلامي لمصر، لكنه يرجع إلى عصور سحيقة، ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ، وقد أشار المؤرخ اليوناني

عديدة حيث كانت هجرة القبائل العربية ولا سيما من جنوب الجزيرة العربية إلى مصر ـ عبر الحبشة والصومال والسودان»(١٣).

وكان من الطبيعي أن ينتشر الإسلام في قفط بفضل الحجاج والعلماء والمارين بها، الذاهبين إلى عيذاب وجدة أو عائدين من هذه البلاد بفضل طريق وادي الحمامات الذي كان أحد المنافذ المهمة للحجاج المصريين والمغاربة. وقد ذكر المقريزي في خططه أن حجاج مصر والمغرب أقاموا زيادة على

مـائتي سنة لا يتـوجهـون إلى مكة - شرفـها الله تعالى - إلا من صـحراء عيذاب(١٤).

ومن ثم ازدهرت الحركة الـعلمية والثقافية والاقتصادية في زمن الفتح الإسـلامي، وأصـبح لقـفط مكانة عظيمة، فأثرى أهلـها ثراءً عظيماً، وامتلأت أسواقها بشتى أنواع السلع والبضائع، وانـتشر بهـا العمـران، واجـتذبت إلـيها كـثيراً من العلمـاء الذين أقاموا فيها للتدريس والتعليم.

وكـانت قـفط مـركـزاً للإشـعـاع العلمي في العصـر الإسلامي حيث كانت بها «جامـعة ابن الحاج» التي كـانت جامـعـة لعلوم الدين والدنيـا، وقـد أدّت دوراً رائداً فـي الـثـقـافـة والـتعليم، وقـد ذكـر شـيـئًا من ذلك العـلامة المحـقق مـحمـد أبو الفـضل إبراهيم في مـعرض تحقيقـه لكتاب «إنبـاه الرواة علـى أنبـاه النحـاة» للقـفطي، ولم نجد لهـا أثراً عينيًـا إلا أنهـا أصـبحت درباً للمـارة ومناطق متاخمة له من الناحية الشرقية حتى الجامع العمـري، وهي على ما نرى قد أصبحت منطقة سكنية.

قفط في العصر الحديث

أما في العصـر الحـديث فقد وقفت قفط وشعبها موقفاً ينبئ عن شجاعة وإقدام؛ إذ اسـتطاعـوا أن يوقـفـوا هجوم الحـملة الفرنسيـة التي قدمت من القـاهرة في سـفنهـا الحـربيـة المدججـة بالسـلاح والعـتاد قـاصدة الجنوب؛ وذلـك بغـرض السـيطرة وإحكام قـبضـتهـا على هذه المنطقـة الحـيوية لكونهـا نافذة مـهمـة للركن الإفـريقي وشـبـه الجـزيرة العـربيـة وغـيـرهـا من المناطق المهمـة التي كانوا يعملون لأجل السيطرة عليها، وقـد ذكر المؤرخ الكبـير الرافـعي في كتـابه «مصـر في مواجـهة الحـملة الفرنسـيـة» في حـديثـه عن الدور البطولي الذي قامت به قفط ورجالها البواسل تحت عنوان «كارثة السفن الفـرنسـيـة في الـنيل ٣ مـارس سنة ١٧٩٩م»(١٥): «سـبق الجـنرال ديزيه عند سفره من قوص أسطوله الذي كـان يسـيـر ببطء في الـنيل ليلحق بالجيش في أسيوط، وبعدت الشـقة بينهـما، فـانتهـز الأهالي هذه الفـرصة لمهاجـمة الأسطـول، وكان عـدده نحـو اثنتي عـشـرة سفـينة حربيـة تقل ذخائـر الجيش ومؤونـته تتقـدمها السفـينة الحربية «إيتـاليا»، وقـد هاجم الأهالي هذه السـفينة يوم ٣مـارس سنة ١٧٩٩م على مـقـربة من قرية «البارود»، وأطلقـوا عليها الرصاص فأجابت السـفينة الحربية «إيتـاليـا» علـى هجـمـات الأهالي بإطلاق المدافع، فقتلت عـدداً كبيراً، لكن هل الأهالي استسلموا وتخوفوا من هجـمـات الفـرنسـيين الشنيـعـة وهابوا مدافعهم المسعورة؟! كلا. بل لم يغـير ذلك شيئاً ولـم يحرك فيـهم سـاكناً، بل اندفعـوا وكلهم يد واحـدة يهاجـمون الحملة الـفرنسيـة بكل ما أوتوا من قوة وحـشدوا لمقاومتـها كل طاقـاتهم»، ويسـتـطرد الرافـعي في حـديثـه عـن جسـارة أهالي قـفط فيقول: «لكن الأهالي ومعهم العرب القادمون من القصير تجمعوا وازداد عددهم ونزلوا النيل سباحة وهجموا على السـفن فاستـولوا عليهـا عنوة، وأفرغـوا شحنتـها من الذخـائر على شـاطئ النيل، ثم ركـبوهـا وقصـدوا إلى السـفـينة الحـربيـة «إيتـاليـا» للاسـتـيـلاء عليـهـا، وكـان يقـودها القـومنـدان مـوراندي MORANDI. فـضـاعـف إطـلاق الرصـاص على المهـاجـمين، ولـكنه رأى رجـال مـدفعيتـه قد أثـخنتهم الجـراح على ظهـر السـفـينـة، ورأى من جـهـة أخرى جـموع الأهالي من الـشاطئ الأيسر يتحفزون للـهجوم عليه ففكر في الانـسـحـاب ولكـن الريـح عـاكسـتـه، فـجنحت سـفينتـه، وعند ذلك هُرع الأهالي مـن كل حـدب وصـوب، وصـعـدوا علـى ظهـر السـفـينة فـتـحـقق مـوراندي الخطر المحـدق به ولـكنه أبـى التـسليم، فـأشعل النار في مـستودع البـارود، وألقى هو ورجـاله بـأنفسـهم في اليم



سفن الشحن على مرسى البارود وتظهر بعدها جزيرة

قاصدين النجاة، وانفجر مستودع البارود، فنسف السفينة نسفًا، وتفجرت شظايا القنابل على الشاطئ فقتلت عددًا كبيرًا من الأهالي، بيد أن الباقين منهم قاتلوا موراندي ورجاله فمات مثخنًا بجراحه، وقتل جميع الفرنسيين الذين كانوا على ظهر السفينة «إيتاليا» والسفن الأخرى، وكانت خسارة الفرنسيين خسارة جسيمة، فبلغ عدد قتلاهم من البحارة والجنود خمسمئة قتيل، وهي أكبر خسارة مني بها الجيش الفرنسي في الحملة على الوجه القبلي».

معركة ٨ مارس /آذار ١٧٩٩م:(١٦)

من المسلم به أن المحاربين لا يتخذون طريقًا واحدًا حال هجومهم على المواقع، لكنهم يسلكون طرقًا متفرقة ومسالك متشعبة؛ وذلك لتشتيت قوى المدافعين، ولذا سلكت الحملة طريقًا بريًا غير قواتهم البحرية التي أخفقت في تحقيق مهامها المكلفة بها، ومنيت بالخسائر الفادحة في «البارود».

ولذا رأى الجنرال بليار أن مهمته قد تضاعفت والخطر أضحى محدقًا، فقصد موقع الأهالي والعرب على مقربة من قفط، وهناك التقى جموعهم الذين كانوا يرابطون في السهل وعددهم نحو ثلاثة آلاف من الأهالي وعرب الحجاز و ٣٥٠ إلى ٤٠٠ من المماليك، والتقى الجمعان في سهل قفط يوم ٨ مارس ١٧٩٩م، فكانت معركة حامية الوطيس، اشتبك فيها المقاتلون وجهًا لوجه، وانتهت بهزيمة الأهالي والعرب وانسحابهم إلى «أبنود»، لكنهم لم يستسلموا أو



منظر لآثار الدفادف ويبدو خلفها الزحف العمراني

يبأسوا، وانضم أهالي قفط الأبطال والعرب إلى إخوانهم في «معركة أبنود» التي استمرت نحو ثلاثة أيام، فبدأت في اليوم الثامن من مارس وانتهت في العاشر منه سنة ١٧٩٩م وأخذوا يقاتلون قتالاً لا هوادة فيه، ويدافعون دفاعًا شديدًا عن كل قرية وعن كل مكان واستطاع أهالي قفط والعرب القادمون من الجزيرة العربية أن يكبدوا الفرنسيين خسائر فادحة في هذه المعركة.

معركة «بئر عنبر» ٢ أبريل/نيسان ١٧٩٩م:(١٧)

وفي هذه القرية الصغيرة دارت معركة شرسة ضارية بين الأهالي وقوات العدو في الثاني من أبريل وقد تكبد العدو خسائر فادحة، وبلغت خسائر الفرنسيين في هذه المعركة «٤٤ قتيلاً» و «٢٠ جريحًا» وهي خسائر كبيرة تدل على اشتداد القتال في تلك المعركة وكاد الأهالي يقتلون قائد الحملة ديزيه.

وهكذا استطاعت قفط أن تأخذ بحظ وافر في مسيرتها التاريخية - من بين المدن المصرية - مؤثرة في مجريات التاريخ الطويل، فوقفت صامدة تجابه الأنواء، وتقاوم الأعداء الألداء، ومن ثم أضحت أرضها مقبرة للطامعين الغزاة. وبذا استطاعت أن تسطر أمجادها العظيمة ومآثرها التاريخية الخالدة بحروف من نور.

الصناعات في قفط

لقد بلغت قفط مكانة كبيرة في المجال الصناعي، فقامت بها نهضة صناعية في مختلف الميادين وشتى الحرف، ومن خلال سياحتنا السريعة في بطون الكتب التاريخية سنقف عند بعض الصناعات التي امتازت بها قفط.

- بناء السفن:

كانت مدينة قفط في العصر الفرعوني ترسانة كبيرة لبناء السفن، حيث كانت تصنع بها السفن، ثم تنقل بعد ذلك على ظهور الدواب إلى ساحل البحر الأحمر ليعاد تركيبها، ثم الإبحار بها إلى بلاد بونت وغيرها من البلدان المرتبطة مع مصر بعلاقات تجارية واقتصادية(١٨).

ـ التحجير:

توافرت الأحجار في مصر القديمة، وكانت المناجم الشرقية ملأى بالفيروز والملخيت والزمرد، وكانت هذه الأحجار شبه الكريمة تستعمل في صناعة التمائم وتطعيم الخشب أو الذهب.. وكذلك كانت هناك أحجار تستعمل في عمل التماثيل، وبناء المقابر، وتشييد المعابد. وكان لدى المصريين القدماء أزاميل قوية من النحاس الأحمر أو البرونز لتشكيل الأحجار والنقش عليها، وفي صحراء قفط كان العمال ومعهم أسرى الحروب والمجرمون والمحكوم عليهم من قبل الفرعون يقومون بهذه الأعمال، ويقوم بالإشراف عليهم مستشارو الملك وكبار الموظفين بالدولة وبعض الضباط المحليين، وكان يرافق هؤلاء بعض الصناع المهرة المتخصصين في قطع الأحجار وتشكيلها (١٩).

ـ صناعة الصابون:

كانت قفط تصنع الصابون وتصدره لجميع مدن مصر، وقد ذكر ذلك صاحب كتاب «نزهة المشتاق»، إذ يقول: «.. وبعض البذور التي يستخرج منها الأدهان ويصنعون منها أنواعاً من الصابون الذي يصدر لجميع مدن مصر ويشتهر بجودته».

ـ صناعة السكر:

ذكر الأدفوي في الطالع السعيد أن قفط كان بها أربعون مسبكاً للسكر وست معاصر قصب، وذكر مثل ذلك المقريزي في خططه وأكد أن ذلك كان في أواخر ما كان فيها بعد خرابها، وهذا يدل على أنها كانت مدينة تملك من مظاهر التحضر ما يجلّ عن الوصف.

ـ استخراج الزمرد:

جاء في الخطط المقريزية: «وجدت جماعة من صعيد مصر من ذوي الدراية ممن اتصلت معرفته بهذا المعدن، وعرف هذا النوع من الجوهر، يخبرون أنه يكثر ويقل في فصول السنة، فيكثر في قوة مواد الهواء، وهبوب الرياح الأربع وتقوى الخضرة فيه والشعاع النوري في أوائل الشهر والزيادة في نور القمر، وكان الزمرد يستخرج من خلال عمل أنفاق عميقة مظلمة حيث يصل إليها العمال بواسطة مصابيح مضاءة، مشدودين بحبال حتى لا يفقدوا في متاهات هذه الدروب الضيقة، ويشرع العمال بعد ذلك في حفر الصخور بواسطة معاول في أيديهم حتى يصلوا إلى الزمرد، ثم يقومون بتنقيته من الشوائب التي تكون عالقة به، ويلف بعد ذلك في قطع الكتان لحفظه، ثم ينقل إلى القاهرة لكي يختم بالخاتم السلطاني كلاً على حسب درجته وقيمته.

ـ معامل تفريخ الفراريج:

كانت بقفط معامل لتفريخ الفراريج وقد ذكر ذلك علي مبارك في خططه الجديدة.. وبها ـ أي قفط ـ معامل للفراريج ونخل كثير.

تلك هي لمحة بسيطة عن الصناعة في قفط خلال الأزمنة الغابرة، التي كانت فيها قفط مدينة صناعية تغزو بصناعتها ومنتجاتها كل الأسواق المصرية.

أهم المعالم الأثرية

لفتت قفط أنظار الباحثين واهتمام علماء الآثار؛ لعراقة تاريخها، وتعاقب الزمان بأعصره عليها، وكونها إحدى مدن الاستقرار الحضاري عبر العصور التاريخية المختلفة، وقد وفد إلى قفط كثير من البعثات الأثرية للوقوف على آثارها التاريخية وبقايا معابدها الفرعونية القديمة، وقد عثرت هذه البعثات على عدد من الأشياء النفيسة، مثل تمثال الإله «مين» الذي كان يمثل شكل آدمي رافعاً يده اليمنى التي تمسك بسوط ولابساً ريشتين على رأسه(٢٠).



جانب من الزراعة في قفط

وقد بني له معبد في «قفط» في الأسرة الرابعة، ثم أعاد بناء هذا المعبد وأقام بترميمه أحد ملوك الأسرة السادسة واسمه «بيبي»، وقد أسفرت الحفائر التي أجراها W. M. FLINDORSPETRIE في المعبد من ١٨٩٣ - ١٨٩٤م عن كشف عدد من الآثار القيمة من بينها تمثال بشكل الإله «مين» وعليه رسوم محفورة لحيوانات من الصحراء وقواقع البحر الأحمر، وكذلك الثالوث الضخم المصنوع من الجرانيت الأسود الذي يمثل رمسيس الثاني ١٣٠١ - ١٢٣٥ق.م جالسًا بين إيزيس،

وهي الشخصية البارزة في مجموعة الآلهة المصرية وحتحور HATHOR، وكانت حتحور سيدة الجبلين القوصية وأطفيح وإيماو IMAU النوبة، وهذا التمثال حاليًا بالمتحف المصري(٢١). وقد عثر بالمعبد على إناء كبير كان مستعملاً في الطقوس الدينية عليه اسم الملك خوفو CHEOP أو سوفيس SUPHIS ثاني ملوك الأسرة الرابعة

٢٦٥٠ق.م الذي طار صيته في العالم كله من أجل هرمه الأكبر البالغ ارتفاعه ١٤٦٫٦ مترًا وطول ضلعه ٢٣٠٫٩ مترًا، وبالمتحف البريطاني الآن بردية طيبة بها نص يثبت أن محتوياتها قد اكتشفت في قفط أيام الملك خوفو من الأسرة الرابعة، وفي عام ١٩١٠م أجريت في المعبد حفائر أسفرت عن كشف مجموعة من اللوحات منها لوحة تمثل زيارة قام بها رمسيس الثاني وفي معيته أمراء وأميرات من الحثيين، ولوحة أخرى حفر فيها منظر يسجل «من خبروع ست» من موظفي الملك تحتمس الثالث

١٥٠٤ - ١٤٥٠ق.م وهو يستلم الذهب من رئيس شرطة قفط والحاكم لمقاطعة الذهب فيها.

كما عُثر على بقايا معبد من عصر سنوسرت الثاني ١٨٦٧ - ١٨٧٩ق.م وتحتمس الثالث به ترميمات قام بها البطالمة وأباطرة الرومان. ويشير الدكتور عبدالعزيز صالح إلى النصب الأثرية الموجودة في قفط في منطقة «الدفادف»



جانب لمدينة قفط من جهة الجنوب

بقوله: «ولا يكاد يعرف من آثارها المكتوبة غير عدة نصب عثر عليها في قفط، تضمنت بعض المراسيم والتقارير الخاصة بشؤون الحكم».

وقد كانت قفط غنية بآثارها حيث يذهب علماء الآثار إلى أن قفط كانت منطقة عامرة بالآثار، ولولا قيام الرومان بتدمير الكثير منها لكان لقفط الشأن الأعظم في دنيا السياحة والآثار.

معبد القلعة:

من الآثار التاريخية الفرعونية القيمة، التي لفتت أنظار علماء الآثار إليها، وقد قام أستاذان فرنسيان يهتمان بالآثار الشرقية هما الأستاذ لوربانتالكي LAURE-PANTLACI والأستاذ كلود ترونيكر CLAUD ETRAUN NECKER بوضع مؤلف عن هذا الأثر يقع في حدود مئة واثنتي عشرة صفحة من القطع الكبير متضمنًا مقدمة ومدخلاً، ثم تناول مؤلفاه المعبد بالشرح في نحو أربع عشرة صفحة وباقي الصفحات ضمَّنها صورًا فوتوغرافية ورسومًا توضيحية لجدران المعبد، وقد ذكر المؤلفان في مقدمتهما للكتاب تحت عنوان «الرحالة في القلعة» ما يلي: «ومع أن الآثار الفرعونية المنقوشة والمحفوظة تكاد تكون نسبيًا قليلة إلى حد ما، ومنها المعبد الصغير بالقلعة الذي يقع في الشمال الشرقي من الموقع القديم لمدينة قفط، وعلى بعد يقدر بنحو ٤٠ كيلو مترًا شمال مدينة الأقصر الذي لم يلق بعد إلا قليلاً من الاهتمام منذ اكتشافه، فقد أجريت عليه بعض الدراسات المحلية التي عرفت بأنه قلعة لها أهميتها، ويجب أن تعلق

الأهمية على هذا الموقع فيما بعد، وقد زاره العالم بوكوش R. POCOCHE في عام ١٧٣٧م».

دور العبادة في قفط

لقيت قفط عناية خاصة من الدولة الأيوبية، فبعثت إليها الوزراء والقضاة وكبار رجال الدين ممن كانوا يعملون في بلاد الشام ولاسيما مدينة حلب، وكان ذلك بقصد تغيير مذهبهم الشيعي إلى المذهب السني، ومن ثم عنيت ببناء المساجد التي لم يبق منها غير ثلاثة، أعادت أسرة محمد علي أقدمها والمسجد الذي ما يزال باقياً في حارة الحجاج بها وهو «الجامع العمري»(٢٢) الذي يعده العلماء والمؤرخون تحفة أثرية قيمة في الطابع المعماري، كما يعد من أهم مساجد محافظة قنا التي أعيد بناؤها في القرن التاسع عشر الميلادي.

- الوصف المعماري للمسجد:

وقد وصفت الدكتورة سعاد ماهر الجامع العمري في موسوعتها: «يتكون المسجد من مستطيل يتوسطه صحن مكشوف مربع الشكل به الأروقة من جميع جهاته، وتتكون الأروقة من بائكة واحدة من الأعمدة الرخامية، يعلوها عقود مدببة يحيط بها إطار من الطوب المنحور، على غرار ما اتبع في مساجد العصر العثماني وخاصة في دلتا مصر، أما الضلع الشرقي للمسجد وهو إيوان القبلة، فيحتوي على خمسة أروقة ويتوسط الجدار الشرقي صينية المحراب وعلى يساره يوجد المنبر، وفي الرواق الثالث من إيوان القبلة توجد دكة المبلغ مما يدل على أنه مسجد جامع. وقد غطي سقف المسجد بالأخشاب، وذلك لأن المنطقة غنية بأخشاب السنط التي كانت تصدر إلى الفسطاط.

وتوجد مئذنة المسجد في الجهة الغربية منه، وهي تشبه إلى حد كبير مئذنة مسجد «هو» وطراز المئذنة متأثر إلى حد كبير بالمآذن الأيوبية مما يقطع بأن المسجد القديم يرجع إلى ذلك العصر، وأن أسرة محمد علي عند إعادة بنائه حافظت على طراز مئذنته القديمة، وتتكون



نقش هيروغليفي

المئذنة من ثلاث دورات، الأولى مثمنة الشكل، والدورة الثانية مستديرة يفصل بينها وبين الدورة الأولى شرفة خشبية، أما الدورة الثالثة التي سقطت شرفتها فمثمنة الشكل، فتح في كل ضلع منها فتحة معقودة، ويعلو ذلك قبيبة صغيرة مخوصة»(٢٣).

وفي قفط كثير من المساجد التي أسست وتم بناؤها في العصر الحديث.

أعلام من قفط

تزخر قفط بالنوابغ من نحارير الفكر وأساطين الإبداع وفحول الشعراء وجهابذة الفقهاء الذين أثروا الحركة الفكرية والعلمية والثقافية على مر العصور والأزمان، وفي شتى ميادين المعرفة ومختلف الفنون وصنوف المجالات، وسنذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

- القفطي «علي بن يوسف الوزير جمال الدين القفطي» (ت ٦٤٦هـ):

هو علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبدالواحد بن موسى بن أحمد بن محمد بن إسحق بن محمد بن ربيعة الشيباني القفطي الوزير جمال الدين أبو الحسن(٢٤).

وقد كان لجمال الدين القفطي قدم راسخة في فنون العلوم والآداب، فكان له في كل فن صولة وجولة فألف في اللغة والنحو، والفقه والحديث وعلم القراءات والأصول والمنطق والتاريخ حتى الهندسة والنجوم، وقد مدحه البغدادي فذكر من محاسنه: «اجتمعت به فوجدته جم الفضائل ذا علوم غزيرة وفواصل مستنيرة، عظيم القدر».

وقد ترك القفطي عدداً من المؤلفات القيمة التي قيل: إنها بلغت، أو تعدت، الستة والعشرين مؤلفاً(٢٥) ولم تحفظ لنا ذاكرة الزمن إلا كتابه «إنباه الرواة على أنباه النحاة»، وقد ذكر الدكتور علي الخطيب قائمة بعناوين مؤلفات

القفطي منها: إصلاح خلل الصحاح، والأنيق في أخبار ابن رشيق، وكتاب الضاد والظاء، والرد على النصارى في مجامعهم، وأخبار المصنفين وما صنفوه، وكتاب أشعار اليزيديين.

ـ الشاعر حسن عبدالرحيم القفطي (١٢٥٣ ـ ١٣٢١هـ) (٢٦):

هو المرحوم الشيخ حسن عبدالرحيم علي زين الدين حامد زين الدين الخطيب الخزرجي، كان شاعراً مفلقًا نظم كثيراً من شعر المديح، وله العديد من المساجلات مع شعراء عصره. كان قليل الميل إلى شعر الهجاء، لتدينه الشديد، وكان بجانب شاعريته حجة في علم الميراث، شافعي المذهب، وقد ترك لنا ديواناً مطبوعاً بعنوان «ديوان القفطي» يقع في نحو ٢٠٠ ورقة من القطع المتوسط، وتضمن عدداً من قصائد المديح وكثيراً من الأزجال القيمة. ومن شعره في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم يقول في قصيدة مطلعها:

أحمد «المبعوث» من أم القرى
صفوة الخلاق من هذا الكيان
من به التوحيد أضحى ضاحكًا
حيث عز الكفر أمسى في هوان
معدن التفضيل محمود اللوا
مهبط التنزيل مرفوع المكان

في العصر الحديث

لم يضن الزمن على قفط بأن تنجب الجهابذة في كل عصر من العصور وكل زمن من الأزمان، فقد رزقت في العصر الحديث بعدد من نحارير الفكر وكبار المبدعين والشعراء الذين مازالوا يرفدون الحركة الثقافية بإبداعاتهم العظيمة ونتاجاتهم الثرة، ومن أولئك الشاعر أمل دنقل (١٩٤٠ ـ ١٩٨٣م) الذي كان «واحدا من أعظم الشعراء، وأنبغ ما أفرزته حقبة الستينيات»(٢٧)، كما قال الدكتور يوسف إدريس: وقد ترك عدداً كبيرا من الدواوين الشعرية.

قفط: مدينة بالديار المصرية متوسطة المقدار أولية. لها سور، وبينها وبين قوص أربعة أميال. وبها بربى، وبقربها شعراء كثيفة. وهي متباعدة من النيل، وفيها مزارع كثيرة البقول وصابونها معروف النظافة وأهلها شيعة، وهي مدينة جامعة متحضرة.

الروض المعطار في خبر الأقطار

تأليف: محمد عبدالمنعم الحميري، تحقيق: د. إحسان عباس، بيروت: مكتبة لبنان، ط١: ١٣٧٥هـ، ط٢: ١٩٨٤م.

المراجع والهوامش

١ـ المقريزي في خططه ٢/٤٨٠.
٢ـ القلقشندي في صبح الأعشى وصناعة الإنشا.
٣ـ القبائل العربية في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، د. عبدالله خورشيد البري ـ المصرية العامة للكتاب.
٤ـ عبدالعزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها ـ الجزء الأول، مطابع الشؤون الأميرية.
٥ـ نور علي القفطي: قفط مدينة الخلود عن كتاب EGYPTE.
٦ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، قفط مدينة الخلود ص١٥.
٧ـ السابق نزهة المشتاق.
٨ـ الطالع السعيد ص٣٣، وكذا قفط مدينة الخلود ص١٥.
٩ـ السابق ص١٥.
١٠ـ الأمة القطرية ربيع الآخر ١٤٠٢هـ
١١ـ من هذه البعثات:
البعثة الأولى: في عهد الأسرة السادسة حضر قبطان سفينة يدعى «إيبي» ليحصل على الأحجار اللازمة لهرم الملك آني، وقد صاحبه منتان من حملة الأقواس ومنتان من الحجارة على أن هذه البعثة قد تضاءلت أمام بعثة أخرى أتت ومعها ألف عامل ومئة من الحجّارة وألف ومنتان حفري ومائتا حمار وخمسون نوراً.
البعثة الثانية: في عهد الأسرة الحادية عشرة، وفي عهد الملك منتوحتب الرابع حضر «هنو» الذي كان يحمل لقب المشرف على المعابد والقاضي الأول لمحاكم العدل الست واجتاز مدينة قفط ووادي الحمامات ومعه بعثة مكونة من ثلاثة آلاف رجل في طريقه إلى البحر الأحمر.
البعثة الثالثة: أوفد الملك أمنمحات بعثة برئاسة وزيره ومعه عشرة آلاف رجل إلى الوادي لإحضار الأحجار. وقد قطعوا كتلة من الحجر لغطاء تابوت حجمها ١٤×٧×٥ر٣ أقدام، ويذكر الوزير أن ثلاثة آلاف عامل قاموا بنقل هذه الكتلة حتى وصلوا بها إلى نهر النيل ووضعوها في المركب.
البعثة الرابعة: في الأسرة الثانية عشرة أوفد الملك سنوسرت الأول ابن أمنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة موظفًا كبيراً من بلاطه اسمه «أمنى» ومعه ستمئة جندي لحراسته لإحضار حمولة من الذهب من قفط.
البعثة الخامسة: وفي هذه البعثة قام الملك رمسيس الرابع بزيارة المحاجر بنفسه، وبعد هذه الزيارة بواحد وعشرين يوماً أرسل بعثة كبيرة لاستغلال المحاجر وكان قوامها (٩٢٦٢) رجلاً لكنها عادت بعد أداء مهمتها وعددها ٨٣١٢ فكأنها فقدت تسعمئة رجل بين مجاهل الطريق ومتاعب العمل وأخطار التحجير.
تلكم هي البعثات الخمس المهمة إلى قفط في العصر الفرعوني، ذلك غير الرحلات العلمية المتتابعة التي قام بها علماء الآثار الذين جاؤوا بقصد اكتشاف آثارها الفرعونية القديمة.
١٢ ـ قفط مدينة الخلود، مرجع سابق.
١٣ ـ السابق ص٢٥٦ ص١٩.
١٤ ـ عروبة مصر وأقباطها إبراهيم المرشدي.
١٥ ـ المقريزي في خططه.
١٦ ـ الرافعي، مصر في مواجهة الحملة الفرنسية، وقفط مدينة الخلود ٤٣، ٦٧، وقد تحدث كثير من الأدباء عن هذه المعركة ومنهم الأديب محمود الشرقاوي وغيره الكثير.
١٧ ـ قفط مدينة الخلود.
١٨، ١٩، ـ٢٠، ٢١، ٢٢ ـ السابق

KEPTOS, W.M. FLINDERS PPLRIE - LONDON 1896.

٢٣ ـ سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها، الجزء ٥ ص٢٨٥.
٢٤ ـ السابق.
٢٥ ـ القفطي حياته وأدبه، د. علي الخطيب، وكذا في معجم البلدان لياقوت الحموي ١٥/١٧٥.
٢٦ ـ القفطي حياته وأدبه من ص ٩٣ ـ ٩٩. وهناك من يعد مؤلفات القفطي ويوصلها إلى سبع وعشرين مؤلفًا، وقد جاء ذكر مؤلفاته في عدد كثير من أمات التراث العربي كسير أعلام النبلاء، ومعجم الأدباء والأعلام للزركلي وغيرهم الكثير.
٢٧ ـ قفط مدينة الخلود ص٧٣.

أود الإشارة إلى أنني اعتمدت على كتاب الأستاذ نور علي القفطي في كثير من الإعداد لمادة هذا البحث، فله مني الشكر والتقدير على ما أسداه لي من النصح والإرشاد.
كما لا يفوتني أن أتقدم بخالص الشكر للأخ الأستاذ عبدالحكيم قاضي رئيس تحرير أخبار قنا على إمداده لنا ببعض الصور لمناطق لم أستطع الوصول إليها.

الباحث محمد قجّة واكتشاف بيت المتنبي في حلب

حوار: محمد جمال طحّان

الأستاذ الباحث محمد قجّة كان مربيًا وعضواً في جمعية العاديات بحلب، وأصبح رئيساً للجنة الثقافية فيها، وقد دأب على التفاني في الارتقاء بها وبدعم مقاصدها في حماية حلب القديمة وتراثها وآثارها، بما يتوافق والحفاظ على تراث الأمتين العربية والإسلامية. ويمثل اكتشاف بيت المتنبي في حلب آخر مآثره.

وعلى الرغم من مشاغله المتعددة، ومؤلفاته المتنوعة، يحرص الأستاذ قجّة على إجابة دعوات كل المنابر ، وهو في هذا الحوار يلقي الضوء على هذا الاكتشاف.

- منذ فترة وجيزة زارت جمعية الشعر في اتحاد الكتاب العرب موقع بيت المتنبي في حلب واستمعت إلى دراستكم حوله، وتبع ذلك ندوة من خمس جلسات أقامتها كلية الآداب في جامعة حلب على مدرج المتنبي تحت عنوان «المتنبي والشعر في حلب بين الماضي والحاضر» شارك فيها ما ينيف على عشرين باحثًا ودارسًا من الوطن العربي وجامعة طهران، هل لك أن تحدثنا عن قصة اكتشاف بيت المتنبي، من بدايتها، وما التحوّلات التي جرت على بيته منذ ذلك التاريخ حتى الآن؟

* خلال عملي في إنجاز كتاب «حلب في عيون الشعراء» حاولت التركيز على شعراء كانوا أكثر التصاقًا بالمدينة كالصنوبري والبحتري وعمر أبي ريشة



بهو بيت المتنبي

وسواهم.. ولكنّ طيف المتنبي كان يلاحقني في كل مراحل العمل. كان السؤال الذي يشغلني دائماً وأنا أقلب الكتب التي درست المتنبي: أين أقام شاعرنا في حلب؟ وكيف كانت حياته اليومية فيها؟ ولقد جاءني خيط من الإجابة عن تساؤلي في كتاب «بغية الطلب في تاريخ حلب» لابن العديم، حين تحدث عن قدوم المتنبي إلى حلب قائلاً: «كان دخوله إلى حلب سنة ٣٣٧هـ، وخروجه منها إلى مصر الدفعة الثانية في سنة ٣٤٦هـ،

وكان نزوله بحلب في محلتنا المعروفة بآدر(*) بني كسرى.. قال لي والدي: وكانت داره داراً هي الآن خانقاه سعد الدين كمشتكين ملاصقة لداري». من خلال قراءتي لهذا النص المهم أحسست أن هذا الكلام يجيب عن تساؤلات كثيراً ما طرحتها حول تفاصيل حياة أبي الطيب المتنبي في مدينة حلب: منزله، وأسرته، وأسلوب عيشه، وكان كل الذين شرحوا ديوان المتنبي، وأرّخوا له، أو نقدوه؛ لم يتناولوا مكان إقامته في حلب، ولعل ابن العديم هو الوحيد الذي ذكر ذلك في كتابه «بغيةالطلب». كما ذكر الأمر نفسه في كتابه «زبدة الحلب من تاريخ حلب» فقال: «وصار الأمر والتدبير إلى سعد الدين كمشتكين الخادم، وهو الذي بنى الخانقاه المنسوبة إليه بحلب في جوارنا، وهي كانت دار أبي الطيب المتنبي بحلب». ويحدد ابن شداد في كتابه «الأعلاق الخطيرة» مكان خانقاه سعد الدين كمشتكين فيقول: «خانقاه أنشأها سعد الدين كمشتكين الخادم مولى بيت الأتابك عماد الدين قرب دور بني العديم».. أمام هذه النصوص الموجزة كان لابد من معرفة دور بني كسرى، ودور آل العديم، وموقع خانقاه سعد الدين كمشتكين. فعدت إلى كتاب سبط بن العجمي الحلبي «كنوز الذهب في تاريخ حلب» الذي جاء فيه: «خانقاه أنشأها سعد الدين كمشتكين الخادم مولى بيت الأتابك عماد الدين قرب دور بني العديم.. وكان ملاصقًا للمدرسة الصلاحية من جهة الشرق.. والآن يعرف هذا المكان بالقلقاسية»، ويقول راغب الطباخ في كتابه «إعلام النبلاء» عن المدرسة ما يلي: «موقع هذه المدرسة شمالي الخان المعروف بخان خاير بك، وأمام الخان المعروف بخان الكتان، وهي مدرسة صغيرة، وقد كانت أشرفت



الباحث محمد قجة في أثناء بحثه في الوثائق

على الخراب فعمرها السيد بهاء الدين بن السيد تقي الدين القدسي في حدود ١٢٦٠هـ.. ومن ذلك الحين صار الناس يسمونها بالبهائية»، وهذا ما يؤكده كامل الغزي في كتابه «نهر الذهب في تاريخ حلب»، ومحمد أسعد طلس في كتابه «الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب».

فالمدرسة البهائية القائمة أمام خان الكتان، وخلف خان خاير بك، تقوم على أنقاض المدرسة الصلاحية التي كانت قائمة في منطقة آل العديم في حي سويقة على المشهور، والذي يضم خان الوزير. ويتحدث ابن العديم بوضوح على أن خانقاه سعد الدين كمشتكين قامت على أنقاض دار أبي الطيب المتنبي الذي سكن حلب بين (٩٤٨ - ٩٥٧م) ومن المؤكد أن دار المتنبي كانت ساحتها أكبر من



باب ونافذة إحدى الغرف

المدرسة البهائية الحالية، ثم دخلت أجزاء من هذه الدار في البناء المجاور وهو خان خاير بك. لا شك أن تدمير حلب أكثر من مرة غيّر شكل البناء والعمارة، ولكنّ الذي يهمنا هو المكان الذي حدّدناه وكانت فيه دار المتنبي.

- بيت المتنبي إذاً تحول إلى خانقاه كمشتكين ثم إلى دار ابن العديم فالمدرسة الصلاحية ثم المدرسة البهائية الموجودة حالياً.. بناءً عليه، ما الذي تقترحونه بخصوص بيت المتنبي القديم؟

* أرى أن يتم تنفيذ اقتراحات جمعية الشعر في اتحاد الكتاب العرب التي زار بعض أعضائها بيت المتنبي واقترحوا تحويله إلى متحف يحمل اسمه، ويزوّد بمكتبة تضم كل ما يتعلق به، ووضع تمثال له فيه، وإقامة ندوات ومهرجانات عالمية حوله، وتنظيم مسابقة تحمل اسمه.

ـ تحلم إذًا أن نحذو حذو الدول التي تهتم بمبدعيها، كما فعل الإنجليز بآثار شكسبير! فنضمّ هذا الحلم إلى مجمل أحلامنا راجين أن يتحقق بعضها، وألاّ تحذو هذه المقترحات حذو مصير بيت الكواكبي الذي لم يهتم به أحد حتى الآن، وعسى أن نتمكن من الحفاظ على قلعة حلب على الرغم من حلم بعض تجارها بهدمها وتحويلها إلى مجمّع تجاري ضخم!!..

ـ عود على بدء: كيف كانت علاقة المتنبي بحلب؟!

* السنوات التسع التي قضاها المتنبي في حلب (٣٣٧ ـ ٣٤٦هـ) كانت ذروة حياته وإنتاجه الشعري وعلاقاته المتوازنة. وهذه السنوات التسع كانت ذروة ما عرفه الشعر العربي من تألق وعظمة خلال تاريخه المديد. فالمتنبي قمة الشعر العربي في عصوره المتلاحقة، باتفاق النقاد ومؤرخي الأدب، وفترة إقامته في حلب قمة عطائه وإبداعه.

ـ حلب الشهباء، ورد اسمها في الكتابات الحثية في الألف الثانية قبل الميلاد بوصفها عاصمة لمملكة (يمحاض).. تناوشها كثيرون واندثروا، خرّبوها وعُمرت.. جعلها الحمدانيون عاصمة لدولتهم ٩٤٢م فازدهرت، واشتهر من أمرائها سيف الدولة.. احتُلت غير مرّة حتى استقلّت في العصر الحديث.

وأبو الطيّب المتنبي (٩١٥ ـ ٩٦٥م) شاعر عربي حكيم لا يجهله أحد، ولد في الكوفة، وعاش في حلب تسع سنوات، وكان طوال حياته شاغل الناس، كانت علاقته وطيدة بحلب وبسيف الدولة الحمداني الذي ولد ومات مع المتنبي، وحارب البيزنطيين، وازدهرت الآداب والعلوم في عهده الذي ضم أبا فراس الحمداني، وأبا النصر الفارابي، وأبا الفرج الأصفهاني.

حلب والمتنبي وسيف الدولة.. هذه الثلاثية ما الذي تثيره لديك؟

* حلب وسيف الدولة والمتنبي.. جدلية ثلاثية الأطراف، وكل طرف فيها مؤثر ومتأثر. حلب الحمدانية التي تصدت لمقارعة الإمبراطورية البيزنطية، وإيقاف خطرها الزاحف من الشمال، وقد تراخت قوة الخلافة العباسية، وغلب عليها المتنفذون. وسيف الدولة الذي لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك ما اجتمع ببابه من شيوخ



جانب من البيت



خان خلف البيت (خان الكتّان)


شرفات البيت


محراب القاعة الرئيسة من الداخل

الشعر ونجوم الدهر، حتى جمع في مديحه أكثر من عشرة آلاف بيت.

ونحن حينما نتحدث عن سيف الدولة وعصره الحلبي الحمداني، فإنما يقفز المتنبي إلى أذهاننا وتتدفق أشعاره على ألسنتنا، مع وجود مئات الشعراء، وعشرات ألوف الأبيات التي قالها سواه في سيف الدولة.

تسع سنوات في حلب، انقطع فيها المتنبي إلى سيف الدولة، ولم يقل في غيره بيتاً واحداً، انقطع إليه مادحاً واصفاً، راثياً ذويه معجباً بشخصه وبجهاده، مرافقاً له في حركته اليومية، صادقا في علاقته به كل الصدق.

كان الرجلان قد التقيا لقاء عابراً في بلدة «رأس العين» على الطريق بين حلب والموصل، وكان ذلك عام ٣٢١هـ وكل منهما في الثامنة عشرة من عمره، ويومها قال المتنبي يمدح سيف الدولة:

ذِكرُ الصبا ومراتعُ الآرام
جلبت حِمَامي قبل وقت حِمامي
أنت الغريبة في زمانِ أهلُه .
وُلِدَتْ مكارمُهمْ بغير تمام

ويمضي الرجلان كلٌ في سبيله.. ويدخل سيف الدولة حلب أميراً عام ٣٣٣هـ، ويلتقيه المتنبي في أنطاكية التي كانت جزءاً من دولته الحمدانية، في شهر جمادى الآخرة ٣٣٧هـ، ويمدحه بقوله:

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمُهْ
بأن تسعدا، والدمع أشفاه ساجمُهْ
وما أنا إلا عاشق، كل عاشق
أعق خليليه الصفيين لائمُهْ
لقد سلّ سيف الدولة المجد مُعلمًا
فلا المجد مخفيه ولا الضرب ثالمُهْ

ويصحب الشاعر أميره العربي النبيل إلى حلب عاصمة ملكه. لتُفتَح له أبواب الدنيا بعد عسر وسجن وتشرّد في بوادي العراق والشام، وسفرٍ غير موفق إلى مصر.

لقد عرفت دار المتنبي في حلب أجمل أيام حياته، وفيها نظم غرر قصائده في سيف الدولة، وشعره في حلب وسيف الدولة يبلغ ثلث إنتاجه الشعري، ولكنه في القمة من هذا الإنتاج. لقد كتب في سيف الدولة ٨٣ قطعة وقصيدة تقترب من ألف وسبعمئة بيت. كما أشار إليه في كثير من قصائده التي قالها بعد سفره من حلب إلى مصر ثم إلى العراق وفارس.


مدخل خان الوزير في الطريق إلى بيت المتنبي

وقد روى أبو سعد مدير أعماله كيف كان يدرس حتى يمضي من الليل أكثره قبل أن يأوي إلى فراشه. ويتّفق دارسوه على جديته وطموحه وبُعده عن اللهو ونفوره من الخمرة، كما يتّفقون على استقامة سلوكه. ومن ذلك ما يرويه ابن العديم عن علي بن حمزة البصري صديق المتنبي أنه قال:

«بلوت من المتنبي ثلاث خصال محمودة وتلك أنه ما كذب، ولا زنى، ولا لاط». وشكّك ابن العديم بالجزء الثاني من تلك الرواية التي يقول فيها البصري: «وبلوت منه ثلاث خلال ذميمة وتلك أنه ما صام، ولا صلّى، ولا قرأ القرآن، عفا الله عنا وعنه آمين».

لقد كان آخر عهد المتنبي بسيف الدولة وبلاطه قصيدته الميمية التي مطلعها:

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم
ماذا يفيدك في إقدامك القَسَمُ


جزء من صحن الدار


الباب الخارجي للبيت

وظنهم أنك المصباح في حلب
إذا قصدت سواها، عادها الظُّلَمُ
القائم الملك الهادي الذي شهدت
قيامه وهداه العرب والعَجَمُ

ولكن حلب وسيف الدولة بقيا في خاطر المتنبي وفي قصائده خلال السنوات الثماني التي قضاها بعد خروجه من حلب، ومصرعه عام ٣٥٤هـ.

ففي رثائه خولة يقول سنة ٣٥٢هـ:

أرى العراق طويل الليل مذ نعيت
فكيف ليلُ فتى الفتيان في حلب

ثم يشكر سيف الدولة على هداياه التي أرسلها إليه في العراق:

كلّما رحّبتْ بنا الروضُ قلنا
حلبٌ قصدنا وأنتِ السبيلُ
والمُسَمَّون بالأمير كثيرٌ
والأميرُ الذي بها المأمولُ

ويكتب إلى سيف الدولة بعد أن أرسل إليه يستدعيه إلى حلب ٣٥٣هـ:

فهمتُ الكتاب أبرّ الكتب
فسمعًا لأمر أمير العرب
وما قست كل ملوك البلاد
فدع ذكر بعض بمن في حلب
وأنت مع الله في جانب
قليل الرقاد كثير التعب

- لاشك أن لاكتشاف بيت المتنبي في حلب فوائد عظيمة لا تخفى على ذوي الرشاد، ولا بد من السعي لجني ثمار هذا الاكتشاف بكل الوسائل المكنة. هل لك أن تختم الحوار بكلمة أخيرة تخاطب فيها حلب التي نحب؟

* **شهباء إنّا بنوك الغرّ، مهجتنا**
عشقٌ، ومقلتنا ترنو إلى حلبِ
إن فاخر القوم في أرضٍ وفي نسبِ
إذا لفاخرتُ أني اليعربي الحلبي

هامش

بآدر: جمع دار.

اللغة والدلالة والتفكير

سليمان حسين

يقرر علم اجتماع اللغة أنّ اللغة كائن اجتماعي نشأ في المجتمع وتطور وارتقى وأخذ سماته العامة والخاصة من هذا المجتمع، وأصبحت اللغة، وظيفياً، نظاماً للتفكير الاجتماعي، تتقدم بتقدمه وتتأخر بتأخره، فيوجد بذلك النظام المجتمعيّ في التفكير لغةً خاصةً تعبّر عنه وتشير إليه بمجرد صدورها عن مرسل ما

وتتميز بعض الأنظمة اللغوية العريقة، كالنظام اللغوي العربيّ مثلاً، بقدرات لغوية هائلة ساعدته على الاستمرار والثبات والتغيّر والتقدّم على الرغم من العوامل الخارجية الكثيرة، من محاولات الإبادة والطمس والإزاحة من طريق الفعل الحضاريّ، ونعني بهذا أنّ بعض الأنظمة اللغوية تُسهم إسهاماً كبيراً في تكوين التفكير الاجتماعي وفي توجيهه، وتقوم بالمحافظة على عناصرها التكوينية بنظام دفاعيّ داخلي يكمن في ذاتها. وخلاصة قولنا: أن التفكير وطرائقه وأنماطه تقوم بدور كبير في انحراف اللغة عن وجهتها السليمة وإضعافها وتشويه ذائقتها، وتقريبها من الضحالة والترهّل.

ونحنُ، في هذا المجال، نريد أن نتحدث عن نمط معين من أنماط التفكير اللغوي لدى بعض المُشتغلين المعاصرين باللغة العربية، هذا النمط الذي يُسيء إساءة بالغة إلى العقل اللغوي السّامي، ويسيء إلى قدرات اللغة ذاتها!

لهذا أود أن أطرح بعض المنطلقات التي أنطلق منها في هذه المحاورة:

- لا بد من التعبير عن الاعتزاز العظيم باللغة العربية - على الرغم من أن الاعتزاز لفظ غير علمي، إذ نطمح إلى أن نغرق في العلمية والموضوعية ونبتعد عن الذاتية والادّعاء - وهذا الاعتزاز ليس نابعاً فقط من ارتباط لغتنا بمجالها الديني أو القومي أو الحضاري فحسب؛ وإنما من أنّ النظام البنائي للغة العربية يثير الإعجاب والاعتزاز، وتُضاف إلى ذلك القُدرة الدلالية لرصيديها العام والخاص، وتنوّع أنماط الأداء والأشكال الاشتقاقية الهائلة والمرنة في آن معاً.

- لذلك كان الإعجاب والاعتزاز دافعين مهمّين للبحث في هذا الموضوع، وكانت ضرورة الإدلاء بشهادة علمية عاملاً رئيساً في ذلك.

- وثالثًا: غرضنا أن نعرض جانبًا مضيئًا من سلوك اللغة العربية في الدلالة والاشتقاق مهتمين بالعقل اللغوي الذي يستخدم اللغة، ومهتمين بمستوى لغوي على قدر كبير من الأهمية، هو مستوى الدّال غير الواقعي ونقصد به الدلالة المجازية.

اللغة والدلالة

اللغة في فهم اللغويين المعاصرين نظام كُلي من الرموز والإشارات الدالة تتكوّن من مجموعة من المستويات: أولها وأبسطها المستوى الصوتي الذي يكوّن المادة الأساسية للغة، وثانيها المستوى الصرفي الذي يتكون منه بنيان اللغة التكويني في جميع تحولاته وتغيراته، وثالثها المستوى النحويّ، وهو المستوى الأكثر عمقًا لأنّه يقوم بعملية ضبط متقنة لنظام اللغة، ويقوم بإعطاء اللغة السمات التي تخولنا بإطلاق اسم لغة عليها.

أما المستوى الأخير؛ فهو المستوى الأرقى على الإطلاق، وهو أيضًا المستوى الوظيفي للغة، بل المستوى الذي وجدت اللغة من أجله على اختلاف فهمنا لوظائف اللغة التي منها:

- **الوظيفة التواصلية**: تقوم فيها اللغة مقام وسيلة التواصل الاجتماعي والفكري والإجرائي بين أفراد المجتمع والفئات الاجتماعية الأخرى.

- **الوظيفة الاختزالية**: وتتم هذه الوظيفة على مستويين: أولاً: على مستوى اختزال الواقع ونقله إلى لغة، وثانيًا: اختزال اللغة التي اختزلت الواقع ونقلها إلى قدرات دلالية أخرى.

- **الوظيفة الحضارية**: تضطلع فيها اللغة بحمل النتاج الفكري الإنساني عبر الزمن، بمعنى أنها تقوم بصنع ما يُسمى «أرشيفًا» للنتاج الحضاري الإنساني، ويضاف إلى ذلك أنها تقوم بنقل السمات النوعية والعقلية لشعب من جيل إلى جيل علاوة على كونها تقوم بنَقل الحضارات ومداولتها بين الأمم؛ ومن المعلوم أن نقل الثقافات إلى مناطق لغوية أخرى كان يتم وما زال عبر اللغة المنقولة (الترجمة).

- **الوظيفة التعبيرية**: وتدخل في إطارها الوظيفية الشعرية والتخييلية للغة، وقد أشرنا

في هذا المجال إلى الرمز، والدلالة المنزاحة فيما يتعلق بالوظيفة الشعرية وبهذا يمكن الحديث أيضاً عن وظيفة جمالية للغة.

وهذه الوظائف تتحدد وفق التصور ووفق الجانب اللذين ينظر منهما المستعمل اللغوي، بمعنى أنه يمكننا أن نجد أنواعًا كثيرة من الوظائف بحسب الاستعمالات الاجتماعية والعلمية والفنية.

قوانين التطور الدّلالي

- الانتقال من العام إلى الخاص، ويحوّل هذا القانون الدلالة العامة للفظ إلى دلالة خاصة، بمعنى أنه يقوم بإزاحة كلّ الدلالاتَ الجانبية وتخصيص اللفظ لمعنى معيّن دون غيره بعد أن كان دالاً على العموم.

- الانتقال من الخاص إلى العام، وهو عملية عكس للعملية السابقة تنتقل فيها الدلالة من خصوصية معنوية إلى عموم دلالي.

- التطور الدلالي من المحسوس إلى المجرد: وهو ما نَوَدّ تأكيده هنا في مجال بحثنا هذا، فالتطور الأسمى الذي ترتقي به اللغة هو هذا، إذ تنتقل فيه الدلالة من محسوس أدنى إلى مجرد أسمى.

- التطور بالانتقال من المحسوس إلى المجرد الذهني، ويقصد به التجريد الذهني العقلي لبعض الدلالات المحسوسة.

- التطور بين الدّالات على المحسوسات: كالتوسع، والتخصيص، والانتقال من محسوس إلى آخر.

- التطور الدّلاليّ بين حقول المعرفة المتنوعة، كالتطور الدلالي بين اللغة والنقد واللغة والأدب.

- انزياح الدلالة الشعرية والرمزية العامة والخاصة.

وطبيعي أن نذكر أن كلّ هذه القوانين تخضع للتأثير الاجتماعي الذي يؤدي، بفعل التحرك في المجتمع، إلى تحرّك لغوي يتوافق معه ويؤدي الغرض الدلالي منه، ويخضع أيضاً للتعبير السياسي الذي يحرّك الدلالة على ما يخدمه سواء أكان المستعمل اللغوي سلطة أم غير ذلك!.. ثم إنّ هناك العامل الاقتصادي الذي يقوم بدور فعال في إزاحة الدلالة عن موضعها إلى دلالة جديدة مستفيداً من التبدل الاقتصادي الدائب.. والعامل المهم الأخير هو ما يتعلق بطبيعة اللغة المتحركة داخليًا ضمن نظامها الدلالي وذلك بفعل السيرورة الزمنية، وهو ما يعني تاريخية اللغة، وقد أطلق عليه علماء اللغة الحديثون الوضع (الديكروني) للغة؛ أي التطور التاريخي.

خصائص اللغة

وتأكيدًا لما تقدم نسوق بعض خصائص اللغة في باب المجاز واستخدام الكلام في غير بابه الذي هو له أو وُضع له، وهذا

يلحق باللغة العربية الحيف والجور عندما نعاملها معاملة الجمادات، ونُسقط منها ذلك النسغ الحي، ونسقط كذلك التفكير المنطقي الذي تتحلى به اللغة

المسلك اللغوي خاصة رئيسة من خصائص اللغة العربية يكاد يسيطر على أكثر أنواع التعبير والدلالة، ويكون غرض اللغة من وراء ذلك بلاغيًا، وفق المصطلح العربي التراثي، لإيضاح شديد في المعنى، أو المبالغة في تقريره، أو إيجاد معادل شعوري لدى المتلقي، أو إثارة مخيلته أو ذهنه. وقد حدد الدارسون اللغويون كثيراً من طرائق انتقال الدلالات ضمن القوانين السابقة التي ذكرناها آنفًا، ويلخص الدكتور علي عبدالواحد وافي في كتابه «فقه اللغة»(١) هذه الطرائق فيما يلي:

- يستخدم اللفظ أحيانًا في غير ما وضع له لتشبيه أمر بأمر في صفة ما وهو مجاز بالاستعارة، أو علاقة السببية والمسببية والمجاورة والكلية واعتبار ما كان عليه الشيء أو ما يؤول إليه وهو مجاز مرسل.

- تطلق العبارة أحيانًا ويُراد بها ما يترتب على مدلولها ويلزمه وهو الكناية.

- ويغلب على استعمال اللفظ في غير ما وضع له على طريقة من الطرائق السابقة حتى ينسلخ عن معناه الأصلي أو يكاد، حتى يظن أن الأصل هو هذا المعنى المجازي، وذلك بطريق المجاز للمشابهة أو انتقال الكلي إلى جزئي من أجزائه، أو بطريق التوسع كما ذكر سابقًا، أو بوساطة النقل المقصود من معنى لغويّ دال خام إلى معنى مصطلحي.

- وتتحول الجمل في كثير من الأحيان عن دلالاتها الأصلية لأغراض بلاغية كتحول الجملة الخبرية إلى الالتماس أو الأمر، وتحوّل الأمر والنهي إلى دعاء أو تهديد أو تعجيز...إلخ.

في كُلّ ما تقدم وفي أمور أخرى أكثر مما ذكرناه بكثير تتبدى لنا أهمية الدلالة المجردة المنزاحة في اللغة العربية، ونستنتج النَّفس الحضارية للغة العربية، وهي دون ريب نفسٌ على قد عالٍ من الذوق والجمال والقدرة على الأداء والتنوّع الدلالي، والمهم أيضًا أننا نستنتج مقدار الحيف والجور الذي يلحق باللغة العربية عندما نعاملها معاملة الجمادات، ونُسقط منها ذلك النسغ الحي، ونسقط كذلك التفكير المنطقي الذي تتحلى به اللغة، وكذلك يكون الجور شديداً بل أشد ضرراً وإيلاماً عندما نريد أن نتهاون بها، ونستهتر بقوانينها ونُظمها.

عقلية التفكير اللغوي

وفي بحثنا هنا سنتناول بالمناقشة المستفيضة الجانب الأول الذي يعتدي على ذكاء اللغة وذائقتها، ويحرمها من العُمق الدلالي الأرقى والأسمى كما أسلفنا.

تطالعنا السلطات اللغوية في كثير من المواقف بالتحريم والمنع والرفض والفتوى

بالجواز وعدمه والتفكير اللغوي وهنا سأعرض بعض الأمثلة التي تتعلق بهذا المجال:

- فِكْرٌ، وفِكْرةٌ، وأفْكارٌ وفِكَرٌ:

يُصرّ كثير من المشتغلين باللغة على أن جمع كلمة فِكْرة فِكَرٌ ولا يجوز جمعها على أفكار لأن الجمع «أفكار» جمع فِكْر وليس جمع فِكْرة.

أولاً - وقبل مناقشة هذه المسألة على المستوى الصرفيّ سأقدّم ما تقوله المعاجم في ذلك وسأنقله حرفياً لئلا أتّهم بالتغيير أو الحذف أو الإضافة.

جاء في «تاج العروس» الذي ألّفه السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي*

«الفِكْرُ، بالكسر، ويفتح: إعمالُ النظر، هكذا في النّسخ. وفي المُحكَم: إعمالُ الخاطر في الشيء، كالفِكْرة، والفِكْري، بكسرهما، الأخيرة نقلها الليث، قال: وهي قليلةٌ، ج أفكار، عن ابن دُرَيْد. وقال سيبويه: ولا يُجمع الفكرُ ولا العلْمُ ولا النَّظَر.. وفي الصحاح: التفكّر: التأمّل، والاسمُ الفِكْرُ والفِكْرَة والمصدر الفَكْرُ بالفتح».

وفي اللسان* «الفَكْرُ والفِكْرُ: إعمال الخاطر في الشيء؛ قال سيبويه: ولا يُجمع الفكْرُ ولا العلم ولا النظر، قال: وقد حكى ابن دريد في جمعه أفكاراً. والفِكْرةُ كالفِكْر.. ومن العرب من يقول: الفِكْرُ الفِكْرَةُ..»

وبهذا يمكن القول: إنّ المعجميين العرب لم يذكروا الجمع فِكَر للمفرد فِكْرة، وبعضهم أعطاه حكم الفِكْر الذي يجمع على أفكار، ولكن هل يكفي أن نعتمد آراء المعجميين؟ فإذا كان ذلك كافياً؛ فإننا لا نقبل الجمع فِكَر وهو مردود؛ لأن المعاجم لم تذكره، ولكي نؤكد ذلك نقول: هناك كثير من الأسماء يجمع مذكرها كما يجمع المؤنث في جمع التكسير، يضاف إلى ذلك أننا نستطيع أن نرخّص استعمال الجمعين: فِعَل وهو جمع كثرة وأفعال وهو جمع قلة كما تقول لنا كتب الصرف، فنحن في النهاية إذا أردنا الأفكار القليلة جمعناها على أفكار وإذا أردنا الكثرة؛ قلنا فِكَر.

ويبدو أنّ من لا يُجيز استخدام أفعال مع فعلة (أفكار مع فكرة) يعتمد على أوزان جمع التكسير التي تقول: فِعَل بكسر ثم فتح جمع الاسم التام الذي على فِعْلة بالكسر، وهذا، وإن كان يثبت أن فِعْلة تجمع على فِعَل، فإنه لا ينفي أنها تجمع على غيره لغرض دلالي آخر، وإذا بحثنا في كتب الصرف عن جمع فعلة أي بعكس الترتيب السابق؛ فإننا نجد أن الصرفيين يقولون: إن فِعْلة مصدر هيئة أو يسمونه مصدر نوع ويقصرونه على النوع والهيئة ويُجمع بذلك على فِعَل، وإذا تقاطعت بعض الألفاظ معه بهذا الوزن فليس من الضروري أن يُجمع جَمْعَها.

والسؤال الأهم: هل نقبل رأي سيبويه، ولا نجمع الفكرَ ولا العلْمَ ولا النَّظَر؟ وإذا قبلنا ذلك؛ فإلى أين نذهب باستعمالاتنا المعاصرة أو غير المعاصرة وأقصد التراثية من «علوم - وأفكار - وأنظار؟»».

ونعود مرة أخرى إلى تأكيد أن ما نقوله ليس إلا حباً مُقدّساً ومقدّساً لحقيقة اللغة العربية وقدراتها، وإيماناً بضرورة الاستمرار في المحافظة عليها وصونها.

ولننطلق مرة أخرى لمناقشة بعض الأمثلة التي تتوجه بعقلية التكفير اللغوي دون أن تدقّق الرؤية وتعمّق التفكير، وربما يبدو أننا سنتحول إلى حدّة أقوى في المناقشات القادمة.

- المدفعية تُطلَقُ إحدى وعشرين طلقة - المدفعية تُطلِقُ بإحدى وعشرين طلْقة:

من المهتمين بهذا التركيب المشتغلون بالتدقيق اللغوي الإعلامي؛ فهم يرون أن التركيب الصّواب أن نقول «كانت المدفعية تُطلَق بإحدى وعشرين طلقةً»، ونسمع ذلك في نشرات الأخبار التلفازية والإذاعية*.

ووجهة نظر هؤلاء الإخوة أن المدفعية، وهي جمادات لا يمكن لها أن تقوم بفعل الإطلاق؛ لذلك يعدلون الفعلَ من صيغة البناء المعلوم إلى صيغة البناء للمجهول، والمجهول هنا معلوم وهو الجندي أو المهندس الذي يقوم بعملية الإطلاق، فتصبح العبارة الأصوب، بل ربّما العبارة الصواب هي: «كانت المدفعية تُطْلَق بإحدى وعشرين طلقة»؛ لأن عبارة «المدفعية تُطلَقُ» تدل على تشخيص؛ (أي جعل الجمادات مشخّصة) و(يا ويل اللغة من هذا الخرق)!!.. مع النيّة الخالصة الشريفة بالإحساس العارم الغامر بأنّهم يخدمون اللغة خدمة جليلة، ويخدمون المعنى والدلالة توخياً للدقة والصحة - وهم في هذه النية مشكورون جداً، وتُحْمَدُ مساعيهم الطيبة - ولكن، لدينا تصور آخر لواقع هذا الفهم، وهذا التصور سلبيّ؛ لأنّ الفهم الذي يقدمونه يؤذي رقيّ اللغة

الفهم القاصر لقدرات اللغة يلغي مستواها الأهمّ، والأكثر عمقاً، والأوسع دلالة وشمولاً، والأبلغ تعبيراً وتأثيراً

وذائقتها؛ لهذا سنقول لهم: نعم إن المدفعية تُطلِق (بكسر اللام) وهو أمثل للدلالة وللتخيل الذي تؤديه العبارة؛ لأن الذي يُطْلَق (بفتح اللام) هو القذيفة، [وللمناسبة هل سيحرم علينا استخدام (انطلقت القذيفة) وإحلال (أُطلقت القذيفة) والعرب تؤمن بأن البناء للمعلوم أقوى وأفضل من البناء للمجهول **، وهذا ينطبق أيضاً على المدفعية تُطلِق والمدفعية تُطلَقُ» فالمبنى للمجهول تُطلق ضعيف مع أن الفاعل المجازي موجود في الجملة وهو الفاعل اللغوي حقيقةً].

لقد أسلفنا أن الذي يُطلَق هو القذيفة وليس

المدفع، واللفظ تُطلَق يصرف الذهن إلى من يقوم على إطلاقها، وليس إلى عملية الإطلاق نفسها، والأصل المقصود والمهم لدى المخبر أن يركز على عملية الإطلاق؛ لأنها هي التي يدور حولها الكلام، وهي بذلك مصدر تكريم الزائر الذي تُطلَق له إحدى وعشرون طلقة، ويُضاف إلى ذلك أن الفعل تُطلق المضارع المبني للمجهول من الفعل الماضي أطلقَ المبني للمعلوم، وهو يتعدى بنفسه، وليس بحاجة إلى حرف الجرّ الباء الذي عدّوه به في هذه الجملة، فالمدفعية لا تُطلق بالطلقات وإنما بيد الرامي أو بحبل أو بضغط (زرّ) من موجِّه يدويّ.

الدلالة المصطلحية والدلالة المعجمية

أما إذا فهمنا فعل تُطلَق بمعنى إطلاق (العقَال كما يُقال: أطلقنا عقال الناقة فإن ذلك لا يصحّ للمدفع لأن المدفع غير معقول (مربوط)؛ بمعنى أنه ليس هناك عقالٌ يوقفه عن العمل أو عن الانطلاق، وإذا افترضنا أن هناك عقالاً؛ فهو ليس من خارجه وإنّما هو ذاتيّ، وهذه الذاتية هي التي تجعله قادراً على أن يطلِق...

إن المهمّ في الأمر نهايةً أن اللفظ (أطلق) أصبحت له دلالته المصطلحية، ولم يبق ضمن حدود الدلالة المعنوية (الخام) أو الصِّرْف التي ندعوها الدلالة المعجمية، فهذا اللفظ جزء من معجم عسكري يتعلق بالسلاح لذلك لا نرى من ضير أن يُستعمل بدلالته المصطلحية؛ لأنه فارق دلالته المعجمية، وانتمى إلى دلالة مصطلحية مناسبة للدلالة المعجمية ومنبثقة عنها؛ لذلك لا يحق لنا أن نناقشه بعد هذا وفق الدلالة المعجمية.

والأهم من ذلك كله ما نصرّ عليه أن يبقى أيّ مصطلح خاضعًا للنظام اللغوي العامّ المنضبط.

ولكي لا نكون مجحفين أو متجنين دون أدلة أو براهين؛ فإننا بعد كلّ ما تقدّم من مناقشة نعرض إمكانات بل ممكنات أخرى تتشابه والمثال الذي نناقشه، فإذا كان لا بدّ من أن نقول: «المدفعية تُطْلَق» فلابدّ أيضاً من أن نطالب بتعديل ثلاثة أرباع اللغة أو يزيد، فلماذا نقبل قولنا: الطائر يطير، ولا نعدِل قياساً على ذلك فنقول: الطائرة تُطيِّر أو طُيِّرت، ونكفِّر من يقول طارت، ولماذا نقول: جاء الشتاء ولا نقول: جيء بالشتاء؛ لأن الشتاء تسوقه قدرة خارجية ولا يأتي وحده، ولِمَ نعبر عن طلوع الشمس وغياب القمر بقولنا: غاب القمر، وطلعت الشمس؛ وليسا ممّا يغيب ويطلع بإرادة.

والأمثلة التي يمكن طرحها في هذا المجال لا تُحصى؛ بل إن الرصيد اللغوي الأعظم في اللغة يعتمد على هذا المستوى المجازي العميق، ويكون عمق الدلالة المجازية بحسب المعنى المقصود منها.

وفي نهاية هذا المثال نتساءل ألم يلفت انتباههم لفظ المدفعية إن كان صحيحاً أم غير صحيح؟ وفي هذا العرض لا يمكن أن ننسى «أساس البلاغة» الذي وضعه الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) خاصاً بالدلالات المجازية التي تحولت عبر تطور الدلالة في الزمن أقرب إلى الدلالة الحقيقية، وكذلك لا نستطيع أن نُغفل ما احتوته جميع المعاجم العربية من هذه الدلالات، ويكفي أن نلقي نظرة سريعة على مادة لغوية من المواد المعجمية في «لسان العرب» مثلاً، أو «تاج العروس»، أو «الصحاح»، أو «العين» أو «الجمهرة»، أو أي معجم من معاجم المعاني؛ لنكتشف (كمية) الدلالة المجرّدة أو المجازية أو الاستعارية في اشتقاقات الألفاظ، وإدراجها ضمن سياقات مختلفة؛ ففي أحد السياقات تكون الألفاظ ذات دلالة حقيقية لكنّها عندما تنتقل إلى سياق آخر تتجرد من دلالتها الحقيقية، وتكتسب دلالة أكثر نبلاً وأعمق وأقوى تأثيراً كما أسلفنا.

ولتوضيح هذا الكلام يمكننا طرح مثال توضيحي يرصد تباين معنى اللفظ الواحد في سياقاته المختلفة، وسنعمد إلى لفظ بسيط جداً ذي دلالة سائدة هو الفعل (جاء):

- في قولنا: «جاء أحمد» اختزالٌ لواقعة أو حدث لنقْله من مستوى الواقع إلى اللغة المختزلة في الذهن المجرّد.

- وفي قولنا «جاء أجل أحمد» أو «جاء نصر الله والفتح» اختزال مركّب، فالفعل جاء لا يحققه أجل أحمد، أو نصر الله على المستوى الواقعي، وإنما هو تمثيل غير الواقعيّ مجيء: (الأجل - النصر) بحدث واقعي (مجيء أحمد) وهنا يتحول معنى اللفظ نفسه من دلالته على الواقع إلى دلالة على المجرّد.

- أما في قولنا في الدلالة الشعرية مثلاً

التطور الدلالي للغة يسمح لكل موجودات الكون أن تفعل مجازاً أو حقيقة، فهي تقدم لنا محتويات الكتاب، كما تقدم البقرة الحليب

«جاء الوجودُ مجهشًا بالوجود» فهناك اختزال من نوع أكثر عمقًا يحتوي على المستويات السابقة كافة، ويحتوي على دلالات رمزية معمقة إلى جانب الدلالات النفسية.

وفي مثالنا الثاني سنكتفي بعرض مجموعة من الجمل التي تتبدل دلالة اللفظ فيها، فلنأخذ على سبيل التمثيل لا الحصر الفعل ضرب:

- ضربه على كاحله.
- ضرب أخماسه بأسداسه.
- ضرب في الآفاق
- *ضَرَبْنا على آذانهم*. **الكهف**:١١.
- *وضَرَبَ لنا مثلاً ونَسي خَلْقَه*. **يس**:٧٨.
- ضرب كلامي بعرض الحائط.

- ضرب على وجهه.
- ضرب النقود.
- ضرب مخيماً، أو خيامه.
- ضرب الناقوس.
- ضرب على الآلة الكاتبة (مستحدث).
- العرافة تضرب الودع أو الرمل.
- ضرب كفًا بكفٍ.
- ضرب الناسَ بعضهم ببعضٍ.
- ضرب صفحاً عن إساءة.
- ضربت مدافعنا مواقع العدو.
- ضرب له موعداً.

- مُقَدَّمة - مُقَدِّمَة:

والمثال الأخير الذي نطرحه في سياق المناقشة: التصويب الدائم الذي يتعرض به اللغويون (بفتح الغين أو سكونها) للمتكلم أن يفتح دال مقدمة إذا نطق بالكسر ويشنعون عليه ذلك، ونجد كثيراً من طلبة الجامعة الذين يتلقفون هذه التخطئة (ويتلمظون) بها كلّما أسمعتهم كلمة مقدمة بالكسر، دون أن يدروا سبب التخطئة إلا أنهم سمعوها من أستاذ من أساتذتهم. والواضح من هذا أنّ لكل كلمة من الكلمتين «مُقدِّمة ومُقدَّمة» معنًى خاصاً، أحدهما، وهو الأول، يدخل في باب الفاعل، والآخر، وهو الثاني، ويدخل في المفعول، والنقاش الذي يدور حول مشروعية استخدام مقدِّمة بالكسر لتدل على ما يقدمه الكاتب أو الباحث في مقدمة كتابه ليكون توطئة وشرحاً لمفاهيمه ومنهجه ومصطلحاته، ويعرّف القارئ الكتاب ومحتوياته، وينكر المنكرون ذلك لأنهم يرون أن هذه المقدمة ليست هي من يقوم بالتقديم، وإنما الكاتب هو من يفعل ذلك؛ لذلك فهي مقدَّمة من قبل الكاتب، وهي في باب المفعول؛ وعندئذ لا ينتابنا إلا نوع من الدهشة والابتسامة الساخرة لمناقشة أمر اللغة والدلالة بهذه الطريقة الساذجة جداً، والمسفّة بالعقل اللغوي، وبذائقة اللغة، أو أن من يقول ذلك لم يسمع بمقدمة الرأس، وبمعاجم المعاني التي يحوي كلٌّ منها فصلاً يصغر أو يكبر يتحدث عن مقدِّمة كل شيء ويحددها وها هو ذا اللسان* يقول: «ومقدِّمة العسكر وقادمتُهم وقُداماتُهم: متقدّموهم. التهذيب: مُقَدِّمة الجيش، بكسر الدال، أوّله الذين يتقدمون الجيش.. وقد استعير لكل شيء فقيل: مُقدِّمة الكتاب ومقدِّمة الكلام بكسر الدّال، قال وقد تُفتح، والخيل ومقدِّمتها، الأخيرة عن ثعلب» لذلك كيف نريد أن نثبت القليل النادر، وننفي السائد الذي يتفق مع ذائقة اللغة؟ وإذا كانت الحجّة أنها لا تُقدِّم (بالكسر) وإنما الذي يُقدِّم هو الكاتب؛ فهذا من قبيل الرَّجم بالغيب؛ بلى إنّها تقدِّم، وليس الذي يُقدِّم هو الإنسان فقط، بل إن التطور الدلالي للغة يسمح لكل موجودات الكون أن تفعل مجازاً أو حقيقةً، فهي تقدم لنا محتويات الكتاب، كما تقدم البقرة الحليب، كما يقدِّمُ العلم التقدمُ (والتطور)، وكما يقدِّم لك النادل طعامك، ثم يقدِّم لك التهنئة بالطعام، وهكذا.

إن الفهم القاصر لقدرات اللغة يلغي - كما أسلفنا - المستوى الأهمّ، والأكثر عمقاً، والأوسع دلالة وشمولاً، والأبلغ تعبيراً وتأثيراً، وكذلك الذي يعطي أي كلام ملفوظ أو مكتوب قيمته الفكرية. إن هذا الفهم يلغي الوظيفة الأهم للغة، وهي الوظيفة الاختزالية التي تختزل الواقع في مستوًى أول وتحوله إلى لغة منطوقة أو مكتوبة، وفي المستوى الأعمق تختزل الدلالة الواقعية للكلام إلى دلالة مجازية، وهذا يعيدنا إلى المشكلة الدلالية التي نشأت بين الشاعر العربي أبي تمام، وهو المتميز في مجال الدلالات المجازية، وقد خاض بشعره وبمواقف نقاش أخرى كثيرة في صراع الدلالة الحقيقية والمجازية، ومن المشهورحواره مع من سأله عن بيته «لا تسقني ماء الملام»: هل للملام ماء؟، فأجابه أبو تمام ببديهته ومقدرته دون تردد «وهل للذّل جناح؟» مشيراً بذلك إلى الآية القرآنية: *واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحمة*. **الإسراء: ٢٤.**

والأمثلة على ذلك كثيرة تعجّ بها كتب اللغة والأدب، وليس ذلك مقتصراً على الدلالة الشعرية؛ بل هو أسلوب من أساليب العرب في تعبيرهم في كل مجال لغوي أو فنّ سواء أكان نثراً أم شعراً.

والقول الفَصْلُ: إنّ اللغة العربية تملك الجمال والذائقة الرفيعة على المستوى الصوتي والصرفي والنّحويّ والدلالي، وتملك الشمول والاتساع والعمق، وتملك الشعرية بالقدر الذي تملك فيه القدرة العلمية؛ أقصد القدرة على نقل العلوم.

وفي النهاية تقتضي منا الأخلاق العلمية النبيلة أن نُقرَّ بأن كلّ ما تقدّم قد لا يكون صواباً، ولكننا توخينا أن يكون الصواب، وتوخينا الدقة في كل ما قلناه، وكان إيماننا المستند إلى مسوغات موضوعية المحفّز الأوّل في بحثنا هذا.

المراجع والهوامش

١- فقه اللغة، علي عبدالواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة، ص٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨.

* تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزّبيدي، المتوفى عام ١٢٠٥هـ، تحقيق د. حسين نصّار، مراجعة عبدالعليم الطحّاوي وعبدالستار أحمد فرّاج، مطبعة حكومة الكويت ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

* لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري (ت: ٧١١هـ)، دار صادر.

* في هذا السياق أبهجني جداً أن يقوم مجمع اللغة العربية في دمشق متعاوناً مع وزارة الإعلام في الجمهورية العربية السورية بعقد ندوة حول اللغة العربية والإعلام وهي اهتمام مشكور، نرجو أن تكون مثمرة - على أقل تقدير - بقدر الجهود التي بذلت، وأن تجد التوصيات مكانها في الواقع المنفّذ.

** يرى النّحاة أن البناء للمعلوم أصل والفرع عليه البناء للمجهول، والأصل أقوى وأمثل. وهو معيار القياس.

* مادة قدم.

الولاية في التشريع الإسلامي

شوكت محمد عليان

مما لا شك فيه أن الإنسان حين يولد يكون بحاجة إلى من يتولاه بالحفظ والتربية، ولا سيما في المرحلة الأولى من حياته. وهي ما يعبر عنها عند فقهاء الشريعة الإسلامية بمرحلة الحضانة. وهذه الولاية تكون على النفس، وتكون على المال.

تكون على النفس كالعاصب من الذكور يضم إليه الصغير بعد تجاوزه سن الحضانة، وتكون ولاية ماله لشخص آخر. فهذا العاصب ولي النفس فقط. وتكون على المال كوصي الأب أو الجد، والقاضي يتولى إدارة شأن مال الصغير حين يكون في مرحلة الحضانة.

وتكون الولاية على النفس والمال معًا للأب والجد يضم إليهما الصغير بعد انتهاء مدة الحضانة، ويكون له مال خاص تحت يدهما، فهنا تجتمع الولايتان في شخص واحد.

والولاية على النفس تكون ولاية في الحفظ والتربية والرعاية. وتكون ولاية خاصة في النكاح فقط.

الولاية على المال

ويراد بالولاية على المال، السلطة التي يملك بها الولي التصرفات والعقود التي تتعلق بمال المولّى عليه من البيع والشراء والإجارة ونحو ذلك.

وهذه الولاية تثبت على العاجزين عن تدبير شؤونهم المالية من الصغار والكبار من مجانين ومعتوهين وسفهاء وذوي الغفلة.

وقد مر بنا أن مرحلة الحضانة وهي من الولادة إلى بلوغ الطفل سبع سنوات تقريبًا، وهي سن التمييز، تكون الولاية عليه تامة، وأن جميع تصرفاته لوليه؛ لأن الصغير فيها لا إدراك له ولا تمييز، ومن ثمّ لا تكون له عبارة معتبرة.

فإذا تخطى سن التمييز، وفيها يدرك الطفل الفرق بين النافع والضار، ولو بصورة إجمالية، فيتحقق له بهذا أهلية للتصرف، لكن هذه الأهلية ناقصة يحتاج معها إلى رأي وليّه، وتمتد هذه المرحلة إلى نحو خمس عشرة سنة، وهي سن البلوغ، لما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: «عرضت على النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يجزني، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني»(١). فإجازة الرسول صلى الله عليه وسلم وإذنه بالقتال وهو ابن خمس عشرة سنة دليل على أن أدنى سن للبلوغ مبلغ الرجال هو ذلك.

وإذا بلغ عاقلا كملت أهليته، ولكن لا يُسلّم إليه المال إلا إذا تأكدنا من رشده وحسن تصرفه في المال بحيث لا ينفقه إلا على مقتضى المصلحة التي لا تتعارض مع الشرع.

وما دام لم يسلّم إليه ماله تبقى الولاية المقيدة لتصرفاته، فلا يتصرف إلا بالإذن، ولم يحدد الفقهاء للرشد سنًا معينة، بل وكلوا ذلك إلى التجربة والاختبار؛ لأن الرشد يختلف باختلاف الأشخاص والأزمان.

والأصل في ذلك قوله تعالى: *ولا تُؤتوا السفهاءَ أموالَكم التي جَعَلَ اللهُ لكم قيامًا وارزُقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفًا، وابتلُوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستُم منهم رُشدًا فادفعوا إليهم أموالهم*. النساء:٥-٦. يعني إذا ثبت الرشد بالفعل سلم إليه ماله.

وقوله تعالى: *فإنْ كان الذي عليه الحقُّ سفيهًا أو ضعيفًا أو لا يستطيع أن يُملَّ هو فلْيُملِلْ وليُّه بالعدل*. البقرة: ٢٨٢. فهذا صريح أيضًا في أن للسفيه وليًا يتصرف عنه.

أما المجنون: وهو عديم العقل فيجري عليه ما يجري على من دون سن التمييز.

وأما المعتوه: وهو القليل الفهم الفاسد التدبير فيجري عليه ما يجري على ما بعد التمييز.

وأما ذو الغفلة: وهو الذي لا يهتدي إلى التصرفات النافعة فيجري عليه ما يجري على السفيه، وهو البالغ العاقل غير الرشيد، فيجري عليه، ويمنع عنه ماله.

من تثبت له الولاية المالية؟

ذهب الحنفية إلى أن الولاية المالية على الصغير تكون للأب، ثم لوصيه، وللجد ثم لوصيه، لأن الأب أكثر شفقة وأكثر عطفًا على ولده، فلا يقيم وصيًا على ولده إلا إذا كان يرى أنه أصلح منه. ثم للقاضي، ثم لوصي القاضي(٢).

وذهب المالكية(٣) والحنابلة(٤) إلى أن الولاية تكون للأب ثم لوصيه، وللقاضي ثم لوصيه، ولا تثبت للجد ولا لوصيه؛ لأن الجد لا يقوم مقام الأب، وإذا عينه القاضي كان وصيًا من قبله.

وذهب الشافعية إلى أن الولاية تكون للأب ثم للجد الصحيح، ثم لوصي الأب ثم لوصي الجد، وهذا لأن الجد الصحيح ينزل منزلة الأب عند عدمه.

هذا وليس لأحد من العصبات غير الأب والجد حق في الولاية على المال، إلا إذا جاءت بطريق الوصاية من الأب والجد أو الاختيار من القاضي. وكذلك لا حق للنساء إلا من هذا الطريق(٥).

وبهذا تفترق الولاية على المال عن الولاية على النفس، فالولاية على المال أضيق منها على النفس، إذ الولاية على النفس تشمل كل العصبات، بل تتعداها إلى غيرهم من ذوي الأرحام من الرجال والنساء عند أبي حنيفة، ولهذا قد تجتمع الولايتان لشخص واحد. وقد تنفرد إحداهما عن الأخرى، فيكون للمال ولي، وللنفس ولي آخر في وقت واحد كالأخ مع الوصي عند عدم الأب والجد(٦).

مدى تصرف الوصي المختار

لا خلاف بين الفقهاء في أن الوصي له أن يتصرف في الأموال التي خوله فيها الموصي كافة، وهذا إذا كانت الوصية مطلقة غير مقيدة بشيء مخصوص، بأن قال الموصي: جعلتك وصيًا، أو أنت وصيي على كذا. وأما إذا كانت خاصة بمال معين أو مكان معين فإن الوصي يتخصص بما خصص به(٧) ويجوز تعدد الأوصياء، ويحق لكل منهم جميع التصرفات حسب الوصية.

شروط الوصي

اشترط الفقهاء في الوصي أن يكون كامل الأهلية عدلاً أمينًا قادرًا على إدارة شؤون الوصاية، وأن يكون متحدًا مع الموصى عليه في الدين. وهذه الشروط إنما تعدُّ بعد وفاة الموصي في الوصي المختار، لأنه الوقت الذي تنفذ فيه الوصية؛ لأن الوفاة شرط لنفاذ الوصاية، فإن لم يكن عدلاً، عدل عنه القاضي وأقام غيره إن لم يوجد من يستحق الولاية كما في إيصاء الأب.

ويستوي في الوصي المختار بعد توافر الشروط الرجل والمرأة، والقريب الوارث وغير الوارث والأجنبي.

انتهاء الوصاية

تنتهي الوصاية إذا بلغ القاصر سن الرشد على ما ذكرنا، أو فقد الوصيُّ أهليته، أو ثبتت غيبته بحيث يتعذر على القاضي الاستفادة منه، أو مات الوصي، أو مات القاصر، أو انتهى العمل الذي أقيم الوصي من أجله إذا كان وصيًا مؤقتًا، وكذلك بعودة الولاية إلى الأب أو الجد، أو عزله الوصيَّ.

ولاية الحفظ والتربية

الطفل منذ ولادته يكون بحاجة إلى من يقوم بحفظه ورعايته، والقائم على شؤونه إما امرأة وإما رجل، وإن الأم أحق الناس بحضانة ولدها، ما لم يمنع من ذلك مانع، فإذا بلغ الطفل حد التمييز، واستطاع أن يقوم ببعض شؤونه ظهرت حاجته إلى نوع آخر من الرعاية كالتعليم والتوجيه والإشراف على شؤونه العامة.

وحيث إن النساء أكثر شفقة على أولادهن جعل الشارع حق الحضانة لهن، ولما كان الرجال أكثر دراية بأمور الحياة فقد وكل حق رعاية الأولاد في التعليم والتوجيه للرجال.

وبهذا تكون المسؤولية مشتركة بين الطرفين.

ترتيب المستحقين للحضانة

من النساء والرجال

أحق الناس بالحضانة الأم ثم أمها وإن علت، ثم الأب ثم أمه وإن علت، ثم الجدُّ ثم أمه وإن علت، ثم أخت شقيقه، ثم أختٌ لأم، ثم أختٌ لأب، ثم خاله لأبوين، ثم خاله لأم،

ثم خاله لأب، ثم عمه لأبوين، ثم عمه لأب، ثم خالات أمه، وتقدّم الشقيقة، ثم التي لأم، ثم التي لأب، ثم خالات أبيه كذلك، ثم عمات أبيه كذلك، ثم بنات إخوته، ثم بنات أعمامه، ثم بنات عماته، ثم بنات أعمام أمه، وبنات أعمام أبيه كذلك، فتقدم في ذلك كله الأشقاء، ثم الذين لأم، ثم الذين لأب(٨).

فإن لم يوجد من النساء محرم للصغير أو الصغيرة انتقل حق الحضانة إلى المحارم من العصبة على حسب ترتيبهم في الإرث، فيقدم الأب ثم الجد أبو الأب وإن علا، ثم الأخ الشقيق، ثم الأخ لأب، ثم ابن الأخ الشقيق، ثم ابن الأخ لأب، ثم العم الشقيق، ثم العم لأب، ثم ابن العم إن كان المحضون ذكراً، وإن كان أنثى فلا حق له في حضانتها؛ لأنه ليس محرماً لها.

فإن لم يوجد أحد من العصبات المحارم، أو وجد ولم تتوافر فيه الشروط، انتقل حق الحضانة إلى المحارم من غير العصبة، فيقدم الجد أبو الأم ثم الأخ لأم، ثم العم لأم، ثم الخال الشقيق، ثم الخال لأب، ثم الخال لأم، وهذا خاص بمذهب أبي حنيفة(٩).

مدة الحضانة

ومدة الحضانة في هذه المرحلة سبع سنين للذكر والأنثى، وإذا بلغ الصبي سبع سنين واتفق أبواه أن يكون عند أحدهما فإنه يصح، وإن تنازعا خُيِّر الصبي، فكان مع من اختار منهما(١٠) أما الأنثى فلا خيار لها وتبقى في حضانة أبيها إلى أن تتزوج وهذا مذهب الحنابلة، وسوّى بينهما الشافعي في التخيير، ومالك وأبو حنيفة قالا إن الأم أحق بها(١١).

مدى ثبوت حق الولاية

يظل الطفل منذ ولادته إلى سن البلوغ بحاجة إلى التهذيب والتعليم، لذا فإن حق الولاية يظل قائماً جبراً على الصغير والولي، لا اختيار فيه لواحد منهما، فإذا امتنع من له حق الولاية من أخذ الصغير، فإن وُجد من يليه من العصبات من يقوم راضياً بهذا الواجب سقط حق الممتنع، وسُلِّم الصغير إلى هذا الذي يليه، وإن لم يوجد من يقبل راضياً القيام بحق الصغير أُجبر الممتنع على أخذه؛ لأن ضم الصغير إلى الولي العاصب في هذه المرحلة فيه حق الولي وحق الصغير.

فإذا تجاوز الصبي سن البلوغ كان أحق بنفسه، ولا سبيل للولي عليه، وله الخيار في الإقامة مع من أحب من أبيه أو أمه أو غيرهما؛ إلا أن يكون غير مأمون على نفسه فإنه يبقى كما كان في حالة الضم جبراً عنه.

وكذلك إذا بلغ مجنوناً أو معتوهاً فإن ولاية الولي العاصب على نفسه تبقى مستمرة حتى يزول هذا المرض.

أما البنت فإنها تبقى عند الأب أو الجد أو غيرهما كالعم والخال حتى تتزوج(١٢).

شروط الولي على النفس في الحفظ والتربية

أن يكون بالغاً عاقلاً قادراً على المحافظة على المولّى عليه، أميناً عليه غير مفسد له، متحداً معه في الدين.

فإذا تخلفت هذه الشروط أو بعضها في عاصب من هؤلاء العصبة الذين سبقت الإشارة إليهم سقط حقه في هذه الولاية، وانتقل إلى من يليه حسب الترتيب السابق.

فإن لم يوجد أحد من العصبة، أو وجد وكان غير صالح، كان الأمر مفوضاً لرأي القاضي واختياره بما تقتضيه المصلحة.

المراجع

١ـ الجامع الصحيح للترمذي، ج٣، ص١٢٧، باب ٣١، ما جاء في حدّ بلوغ الرجل، .بند رقم ١٧٦٣.
٢ـ شرح الدر المختار،ج٢، ص٥٥٠، للحصكفي.
٣ـ بداية المجتهد، ج٢، ص١٤، وما بعدها.
٤ـ المغني، ج١١، ص٤١٤.
٥ـ حاشية قليوبي وعميرة، ج٣، ص٣٠٤.
٦ـ ملخص من أحكام الأسرة في الإسلام، ص٨٠٤، للدكتور محمد مصطفى شلبي.
٧ـ حاشية رد المحتار على الدر المختار، ج٥، ص٦٣٢، لابن عابدين.
٨ـ انظر في هذا الموضوع: حاشية الرد المحتار على الدر المختار لابن عابدين، ج٤، ص٨٧٧، ونيل الأوطار للشوكاني، ج٦، ص٣٤٨، وسبل السلام للصنعاني، ج٣، ص٣٢٦، ومجمع الأنهر شرح ملتقى الأبحر، ج١، ص٤٨٨، وما بعدها، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، ج٣، ص٤٧، للزيلعي، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، ج٢، ص٤٨٨، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج لشمس الدين الرملي، ج٦، ص٢٧٠، والمهذب الشيرازي، ج٢ ص١٨١، وكشاف القناع للبهوتي، ج٣، ص٣٢٦، ، والمغني لابن قدامة المقدسي، ج٩، ص٣٠٧، والطبعة الأخيرة ج١١، ص٤١٣.
٩ـ شرح الدر المختار، ج٢، ص٥٥١، للحصكفي.
١٠ـ المغني، ج١١، ص٤١٥، طبعة الأمير.
١١ـ المغني، ج١١، ص٤١٨، طبعة الأمير.
١٢ـ المغني، ج١١، ص٤١٤، طبعة الأمير.

سقطرة.. جزيرة الرخاء

فيتالي نعومكين

عمدت مؤخراً إلى تصفح أوراقي القديمة المصفرة بفعل الزمن، وعليها ملاحظاتي المسجلة في أثناء زيارتي الأولى إلى هذه الجزيرة الغامضة التي دفعني إليها القدر بعدئذ غير مرة. حدث ذلك عام ١٩٧٤م، وكم من مياهٍ جرت وحوادث وقعت منذ ذلك الحين!!

طرأ التغير على جزيرة سقطرة وأهاليها، واعترى التغير شخصي أيضاً. وفي آن واحد تقريباً كفت عن الوجود كلتا الدولتين، وإلى إحداهما كانت تنتمي سقطرة وهي جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، وكنت واحداً من مواطني ثانيتهما، وهي الاتحاد السوفييتي، ولم أكد أحدث أي تغيير في ملاحظاتي؛ فليشاهد القارئ بعين المعرفة ما شاهدته أنا آنذاك بعيني باحث ورحالة روسي. وحين أعدت قراءة ملاحظاتي ساورتني مشاعر الحزن والكآبة، فعدد من أصدقائي السقطريين - ويا للأسف - لم يعودوا من ساكني هذا العالم، وأنا أشعر بالامتنان لهم لكونهم ساعدوني على اكتشاف عالم جديد وحضارة جديدة لم أكن أعرفهما من قبل. وعلى الرغم من ظروف الحياة العسيرة، التي كثيراً ما تكون فوق الاحتمال والطاقة، فإن هؤلاء الناس حافظوا في نفوسهم على أحاسيس التفاؤل المدهش، وحب الحياة وطمأنينة النفس والروح وكرامة بشرية خاصة. كانوا بشوشين ومرحبين وطيبين، كرماء



الجبليون منعزلون عن العالم الخارجي، ولا يملكون حتى أعواد الكبريت

وصبورين وحساسين. وإني لمغتبط وسعيد؛ لأن حياتي جمعتني بالسقطريين. أما تاريخ الجزيرة فقد أصبح منذ قدومي أول مرة إلى سقطرة وعلى مدى فترة مديدة من الزمن موضوعاً لبحوثي العلمية.

جزيرة الرخاء

راودت هذه الجزيرة أحلامي منذ أمد بعيد. أفيمكن أن يكون ثمة موضع أكثر غموضاً من سقطرة؟ هذه الجزيرة الكبرى في المحيط الهندي كانت معروفة لدى البشرية منذ أزمان سحيقة في القدم. وقد بدأ تاريخها مع تاريخ أقدم حضارات الشرق: المصرية، وجنوب الجزيرة العربية. عرفها الفينيقيون والرومان والإغريق والفرس والهنود الذين أطلقوا عليها تسمية «جزيرة الرخاء»، ويعرف أن اسم هذه الجزيرة يعود إلى اللغة السنسكريتية «فيبا سوكهادارا» أي جزيرة الرخاء. ثم ظلت على مدى عدة قرون مجهولة لدى العالم. ويقطن هذه الجزيرة أناس هم أحفاد أقدم

سكان جنوب شرقي الجزيرة العربية انتقلوا إليها من مهرا وربما من الإغريق والبرتغاليين وبدرجة ما الهنود والأحباش (الأثيوبيين) وسكان شرق أفريقية. وتعد لغة سكان سقطرة واحدة من لغات العالم القليلة التي تكاد تكون لحد غير مدروسة حتى الآن. وتطرح سقطرة علينا عدداً من الألغاز: عن أصل سكانها ولغتها وعالمها الحيواني (مثلاً سبب خلوها من الوحوش المفترسة) وعالمها النباتي (من المعروف أنه ينمو فيها ٦٠٠ نوع من النباتات، ٢٠٠ منها لا توجد إلا فيها دون أي مكان آخر في العالم) وهكذا دواليك.

ما القاسم المشترك العام ما بين الفيلسوف الإغريقي أرسطوطاليس والمؤرخ ديودور والقائد الفاتح الإسكندر المقدوني وحكام مصر البطليموسيين (البطالسة) والكسرى الفارسي دارا والرحالة الإيطالي ماركو بولو والرحالتين العربيين: القزويني وابن بطوطة والقائد البحري البرتغالي الإسكندر البوكيرك؟ ذلك أنهم جميعاً حلوا حيناً ما في سقطرة أو كتبوا عنها. بيد أنه في الوقت عينه حين تسنى لي القدوم إلى الجزيرة للمرة الأولى لم يكن ممكناً العثور سوى على أناس قلائل أتيح لي رؤيتهم رأي العين.

تاريخ سحيق

إن ظهور الإنسان في سقطرة والعصور الأولى من معيشته في الجزيرة فترة يكاد العلم لا يعرف عنها أي شيء. ونحن لا نعرف من الذين كانوا أول سكانها، ولكن يمكن الاعتقاد بأن المجتمع البشري عاش هناك منذ الأوقات المنسية والمهملة من طرف التاريخ وحتى نشوء التمدن في جنوب الجزيرة العربية أواسط الألف الثانية قبل الميلاد (قبل التاريخ). ثم حلت فترة الاستيطان المهري حين انتقلت إلى الجزيرة قبائل من القسم الشرقي للساحل الجنوبي لجزيرة العرب. وخلال القرون الوسطى تحركت نحو هذه الجزيرة كما يبدو موجة أخرى من المهريين. كانت سقطرة نقطة استراتيجية مهمة أيضاً خلال فترة ازدهار حضارات كالإغريقية والفينيقية والفارسية. ويقال: إن قدامى المصريين سموا هذه الجزيرة بناشيا، أي الإقليم المجاور للإقليم الأسطوري - بلاد التوابل والأفاويه والبخور والعطور والجواهر الذي يزعم أن المصريين خرجوا منه. ومنذ أعرق القدم كانت الجزيرة معروفة بالعطور وعود الند وشجرة اللبان والموسكي (المستكي) والصمغ النباتي والتوابل والأفاويه وسواها من ثمار العالم النباتي المستخدم في الطعام أو العلاج. قد تحدث عن سقطرة بالذات المؤرخ ديودور في وصفه الرحلة في البحر الأريتري (الأحمر). وقد قال إنه يتوافر هناك الكثير من العطور، ويقع فيها كذلك المعبد الشهير للرب جوبيتر. وذهب قدامى الفينيقيين إلى أن هذه الجزيرة هي نفسها «الإكسير» الذي يطير به طائر الفنيق المقدس الذي كان ينهض عائداً إلى الحياة من تحت الرماد، أي من عظامه ورفاته، حاملاً معه عشه إلى مدينة الشمس. وكان الكثير من أساطير الماضي مرتبطاً بأندر نبات في سقطرة وهو الشجرة المسماة في أوربا وفي الشرق العربي «دم الأخوين». وعصير هذه الشجرة الأحمر القاني بلون الدماء؛ إذا برد وتخثر غمق لونه وتحول إلى صمغ


بداية ظهور الإنسان في سقطرة لاتزال مجهولة

جامد. واعتقد الهنود أن هذه الشجرة بالذات نبتت فوق الدم المسفوك في المعركة بين الفيل والتنين في الملحمة الهندية عن «ويشا» و«شيوا».

اليونانيون نشروا المسيحية

وقد نصح أرسطوطاليس في رسالة له إلى الإسكندر المقدوني مشيراً عليه بفتح سقطرة لنفائسها. وحلَّ اليونانيون في الجزيرة وشيّدوا فيها كنائسهم. والمرجح هو أنهم كانوا أول من نشر المسيحية هناك. وشاهد ماركو بولو حتى في القرن الرابع عشر الكنائس المسيحية في الجزيرة . ويقال: إن البطليموسيين (البطالسة) الذين حكموا مصر بعد الاسكندر المقدوني أبقوا في الجزيرة حامية عسكرية للمحافظة على خط ملاحتهم. وفي وقت متأخر عن ذلك احتل الفرس الجزيرة في عهد الكسرى دارا لكي تستطيع سفنه الإبحار دونما عائق في المناطق القريبة من بلاد الفرس. وبعد القرن السابع حلَّ في الجزيرة العرب وظهر هناك الإسلام. وفي القرن العاشر كانت الجزيرة محط نزول للنورساريين. وقد كتب الرحالة العربي ابن بطوطة عن هذا في كتاب رحلاته؛ وذكر أنّ الجزيرة اشتهرت حينذاك بصمغها - عصير «شجرة التنين» وشجرة اللبان (المر) الرائعة. وقد كتب في القرن الثالث عشر عن هذا مؤلف معجم البلدان ياقوت الحموي لكونه من المعالم الرئيسة للجزيرة..

في سنة ١٥٠٧م حل في الجزيرة البرتغاليون وعلى رأسهم البوكيرك.

سقطرة تطرح كثيراً من الأسئلة والألغاز حول أصل سكانها ولغتها وعالمها الخاص بشراً وحيواناً ونباتاً



البيوت مشيدة بالحجر المثبت بالطين

وشيد البرتغاليون في الجزيرة القلاع وأهمها في العاصمة في شيكيه (وبالعربية: السوق) الواقعة في الجنوب الشرقي عن العاصمة الحالية للجزيرة مدينة خديبو وقلعة أخرى قربها. وأطلق البرتغاليون على الجزيرة اسم تمريدا أو مدينة النخيل والتمر. وشيّدت في شيكيه على أطلال مسجد مهدم كنيسة.

وخلال الفترة اللاحقة دخلت الجزيرة في سلطنة كيشنا (على اسم قبيلة في جنوب جزيرة العرب). وتسنى للإنجليز، في أثناء الصراع ضد الهولنديين والفرنسيين، بغية سيطرتهم على الجزيرة، سبق منافسيهم بعقد معاهدة مع السلطان حول فرض الحماية على الجزيرة. وفي سنة ١٨٣٥م قام الكابتن البريطاني هاينس، الذي فتح فيما بعد في سنة ١٨٣٩م عدن أول مرة، بإجراء المسح والتصوير من البحر لمناطق الجزيرة الساحلية. وعقب احتلال عدن أخذ اهتمام بريطانيا يضعف ويتضاءل. وخيم على الجزيرة مدة طويلة ضباب النسيان والإهمال. ودخلت سقطرة في سلطنة مهرا وسقطرة. وسلطان هذه الدولة، وهي إحدى أكثر دول الشرق تخلفاً، عاش في هذه الجزيرة من دون أن يغادرها مرة واحدة.

وفي الثلاثين من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٦٧م انتمت سلطنة مهرا وسقطرة السابقة إلى كيان جمهورية اليمن الجنوبية التي أقيمت حديثاً.

وها أنذا أحل في سقطرة. هبطت

الطائرة في موري وهي بلدة غير كبيرة تقع في ساحل الجزيرة الشمالي حيث ترابط حامية صغيرة من قوات مشاة البحرية لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية. ومن هنا يقود درب حجري كثير المطبات إلى الممر الجبلي المسمى خيبق. وكان على القادم قبل هذا إلى سقطرة أن يأتي إلى خيبق مشياً على الأقدام، (إذ خلت الجزيرة من طرق المواصلات) والذهاب مشياً على الأقدام كذلك عبر درب جبلي إلى عاصمة سقطرة - مدينة خديبو الواقعة إلى الشرق من موري. ويجري هنا منذ بضعة أشهر شق طريق وتعبيده ولم يبق سوى إنجاز قاطعه الأعقد، وهو الممر عبر خيبق. والطريق جاهزة من خيبق إلى خديبو. ويستغرق صعود المرتفع منا نحو نصف الساعة.

ومن الأعلى شاهدنا جمهوراً من الناس رجالاً ونسوة وشباباً وفتيات بينهم عدد من الجنود يشتغلون عملاً على التعجيل بتقريب إنجاز شق الطريق. وكانت بانتظارنا سيارة لاندروفر، وتوجهنا على متنها نحو العاصمة، وبعد انقضاء نصف ساعة حللنا في خديبو، بينما كان متعيناً علينا، لو كان قدومنا قبل سنة من الآن، أن نجرر أقدامنا مشياً من موري إلى العاصمة في زمن يزيد على أربع ساعات.

خديبو من ربع قرن مضى

وخديبو بلدة كبيرة على ساحل المحيط. ويقطن هنا (والحديث بالطبع يدور حول عام ١٩٧٤م) ٢٥٠٠ نسمة. والبيوت فيها غير كبيرة وهي جميعها مشيدة من الحجر المثبت بالطين مع تمليطه أحياناً من الخارج بكسوة من الجص الكلسي. وتلاقي في الشارع كثيراً من الأفارقة. ويمكن تقسيم سكان سقطرة جميعا بوجه عام إلى ثلاثة أنماط: سكان الجبال، وسكان السهول، وسكان المناطق الساحلية. والجبليون بيض البشرة تلوحها سمرة خفيفة رقاق الشفاه مستقيمو الأنوف. والناس في الأودية والسهول سمر الوجوه متوسطو القامة لا يختلفون إلا قليلاً عن إخوتهم في اليمن. ويقطن المناطق الساحلية زنوج ونمط مختلط من الناس. ويقال إنهم ذرية الرقيق، وهم العبيد المجلوبون من شرق إفريقية إلى الجزيرة للعمل وأداء الخدمة العسكرية. والأرجح هو أن الجبليين سليلو السقطريين القدماء الذين أزاحهم المستوطنون القادمون عن السهل. أتمشى في خديبو وتقع عيناي على اللوحة التي تمثلتها مراراً في خيالي: التحية التقليدية من السقطريين وهم ينحنون ويتلامسون. وبين ذوي القربى يبدأ الأصغر سناً بلمس عاتق الأكبر منه سناً بأنفه، ثم يمس أنفه بأنفه. وتستمر هذه المجاملات فترة طويلة بما فيه الكفاية. والقادم إلى الجزيرة محط للاستغراب، ولهذا يمتد خلفي ذيل من الصبية المحليين يتجادلون بصوت مرتفع عمن يمكن أن يكون هذا القادم الجديد.



الفقر لا يحول دون كرم الضيافة العجيب

ويعرفونني على دليلي، وهو جبلي اسمه عامر من أبناء قبيلة ديرخو الجبلية، وهو جبلي حقيقي ضامر ومفتول العضل فاتح البشرة. وملامح وجهه قليلة الشبه بقسمات الساميين، ويستحضر في الخاطر نموذج أولئك البرتغاليين الذين حلوا يوماً ما جزيرة سقطرة.

سوما وانتظار المجهول!

وفي أعقاب محاورة طويلة في أثناء تناول الغداء ناقشت خلالها مع أصدقائي الجدد السقطريين عدداً من المسائل انتقلنا إلى المطلوب. قلت لهم: إنني أتحرق رغبة في التوجه إلى الجبال. وبعد التحذير من مصاعب الطريق والمجادلات الطويلة بدأنا مسيرنا. وأخذنا نرتقي متشبثين على المنحدر الجبلي لنتسلق مرتفعاً بعد مرتفع. وبدت وراء الصخور حفنة أشخاص على رأسها شيخ له لحية بيضاء ناصعة يتأزر بإزار قماشي، وفي حزامه خنجر يدوي الصنع، ثم امرأة عجوز معها فتاة شابة رائعة الحسن لها عينان نجلاوان تحف بهما أجفان وطفاء الرموش وأنف أقنى وأخنس. والسمرة الناعمة في البشرة يبرزها الاخضرار اليانع لثوبها الموشى في حواشيه وأذياله بتطريز فضي الخيوط. وهذه الفتاة - وتدعى سوما - تسوق حماراً يحمل أوساق خرجيه. إنها أسرة عائدة إلى البيت في الجبال من جولة في الساحل حيث أعدت التمور للتخزين بتنظيفها من النويات وتصفيفها في قربة من جلد المعز. وهذا المقدار من الاحتياطي يكفيها إلى الموسم القادم. والفتاة سوما لا تستتر عنا ولا تتخفى وتتصرف بجرأة لا تخلو من التحدي والتصدي، وعامر (الدليل) يتجاذب أطراف الحديث مع أفراد الأسرة. أما صالح - وهو الجندي الذي يرافقنا من عدن - فيرنو إلى الصبية باهتمام وعناية، ويتلمظ بلسانه قائلاً: أما هذه فيبدو أنها تصلح. والجندي صالح يعتزم الزواج والسوقطريات مشهورات بجمالهن ثم - وهذا أمر غير قليل الأهمية للخاطب والمزمع على القران وهو من ذوي الدخل المحدود والمتواضع - إن صداق المهر في سقطرة أقل بكثير منه في البر اليمني ويمكن الزواج مقابل خمسة دنانير لا غير (زهاء ١٥ دولاراً). وفيما بعد قص علي عامر حكاية سوما.

قبل ثلاثة أعوام تزوجها أحد أفراد قبيلتها ولكنه سرعان ما سافر عقب ليلة الزفاف طلباً للارتزاق إلى إحدى الدول في خليج عدن وبقيت سوما وحيدة. ومنذ ذلك الحين لم تسمع عن زوجها أية أنباء. وتتولى سوما بنفسها تدبير جميع الشؤون المنزلية والاقتصادية وترعى الأغنام والماعز، ولكانت ستنتظر زوجها الغائب إلى آخر أيام عمرها، ولكن النساء الآن هن اللواتي يطلبن الطلاق أنفسهن أكثر فأكثر، إلا أن سوما لا تريد ذلك. إذ إنها تفضل الانتظار مع أن الحياة بمفردها عسيرة. ويسأل عامر عما إذا كانت توافق على تزوج صالح بها؟ ويقول لها محرضاً: انظري إليه إنه لفتى من ذهب! وتلقي سوما نظرة عجلى على صالح النحيف النحيل وتقول: «كلا إنه منحول القوام جداً، إنه لا يطفئ ناري ولا يبرد حرارة أواري». ثم أروح أنا بدوري عرضة لمثل ذلك الاستعراض العجول.



النساء يسرن حافيات من غير نعال

ويبدو أنني أروق لها من حيث الحجم على أقل تقدير. وتقول سوما: «أما هذا فلا بأس به، ولعله ينفع ولكني على أية حال أفضل مواصلة الانتظار لبعض الوقت».

وفي وقت ما كان التزوج في سقطرة من أبسط الأمور: ادفع الصداق والعروس لك ملك خالص بلا منازع. وكان الصداق أحياناً في الشكل الطبيعي رؤوساً من الضأن أو المعز.


السلطان عيسى بن عفرد

وكثيرًا ما كانت الأسرة الفقيرة تزوج بنتها للكهل أو العجوز الذي يعرض على الأسرة مهرًا حسنًا. وكان المهر هنا نزرًا يسيرًا وقدرًا زهيدًا بالقياس إلى ما كان يدفعه الأزواج في اليمن وفي حضرموت. وكان سهلاً كذلك إيقاع الطلاق. فالزوج يترك امرأته بل أحيانًا يختطف ما كان قد دفعه لها عندما كانت خطيبته من رؤوس المواشي. ولعل أمثال هذا لم يكن ليحدث سوى في سقطرة، فإن التجار الأغنياء «حسب عدد رؤوس المواشي التي يمتلكونها» وأصحاب زوارق صيد الأسماك وأقرباء السلطان كانوا يعيشون مع الزوجة الشابة بضعة أشهر أو سنة كاملة ثم يغيّرون هذه الزوجة الشابة مستبدلين بها أخرى أحدث سنًا منها. وقد أروني في خديبو شيخًا كان معروفًا بعدم الاعتدال قد تزوج أكثر من ستين مرة. وعندما لاحظ في يدي آلة التصوير سرعان ما اختفى متسترًا وراء باب أحد المنازل.

بيد أنه هناك في قرى الرعاة حيث كانت المرأة تشتغل، كانت تبدو بحق ربة البيت وسيّدة المنزل ورأس الأسرة. ولقد قيض لي أن أتحقق من هذا بعدئذ غير مرة، وأتيحت لي مثلاً هذه الفرصة أثناء جولاتي في الجزيرة.

وبعد مسيرة ساعة واحدة مشيًا وصلنا إلى المرتفعات التي تنمو فيها أشجار «التنين» الشهيرة. وندنو من هذه الشجرة البالغ ارتفاعها ٦ ـ ٧ أمتار. ساقها متينة ولا تتفرع منها أغصان سوى أنها تنتهي في الأعلى بإكليل أو تاج من الأوراق القوية والطويلة كالقبعة. والعرب يسمونها كما سبق أن قلنا «دم الأخوين».

وأخذ عامر يتسلقها إلى الأعلى منقلاً ببراعة قدميه الحافيتين على لحاء الشجرة البني اللماع، وأحدث شقًا في أعلاها، وعقب مضيّ بعض الوقت سال من جرحها في اللحاء عصير قاني اللون صار يغمق ويتجمد أمام أنظارنا. وفي كل مكان حولنا وبين أيدينا أزهار حمراء زاهية وساطعة حيث تنمو أشجار الند العطرة التي تعطي زهورًا جميلة تشبه من حيث الشكل أزهار الزنبق البنفسجية. وعقب استراحة استجمام تحت ظلال الإكليل الضخم لشجرة التنين نواصل التحرك إلى الأمام. وبعد مرور ثلاث ساعات إثر صعودنا إلى الهضاب الخضر لجبال سقطرة نصل أخيرًا إلى منطقة معيشة القبائل الجبلية. وينفسح أمام أنظارنا منظر فخم على الأودية المخضرة، تقسمها صخور ناصعة البياض حيث لا يعيش من البشر والحيوان، إلا تيوس الجبال وقلة من الجبليين.

العيش خارج العصر

ويعيش الجبليون في سقطرة في ظروف بالغة العسر، وليس من المستغرب إذن كونهم نحافًا جدًا. إذ يتعين عليهم أن يجوبوا كل الأمكنة ويجروا ويقفزوا في المناطق الجبلية أيامًا وأيامًا متصلة، علمًا بأنهم يفعلون ذلك وهم حفاة وشبه عراة. ويتوجب عليهم في بعض الأحايين الهبوط إلى الساحل مع كل أمتعتهم وقطعانهم. والجبلي لا يتحرج ولا يتطلب فهو يستطيع أن يرقد حيثما كان وكيفما اتفق، على الحجر

السقطريون تسيطر على عقولهم مفاهيم القوة الغيبية الخارقة، فاستحقت جزيرتهم أن تكون جزيرة الأرواح والأشباح

والصخر، أو على الرمل والتراب، وفي كهف أو مغارة. في جبال خاكهيرا يشتد البرد القارس ويتناثر على الدوام رذاذ المطر، ويحدث أحيانًا أن تهبط غمامة على القرية مباشرة فلا يعود يرى أي شيء على مبعدة متر واحد. ويرتدي الجبليون إزارًا يلف الحقوين، هو قطعة من قماش خشن بلون أصفر - أغبر أي غير فاقع ولا يسر الناظرين، يلتف على الردفين ويستر الساقين فوق الركبتين بقليل، ويلقون أحيانًا قطعة ثانية مثل هذه على الكتفين، ولكنهم كثيرًا جدًا ما يسيرون عراة حتى الخصر والحزام. ويعيش الجبليون إما في الكهوف والمغارات، وإما في بيوت مصفوفة من جلاميد الصخور من دون أي ملاط يلصقها بعضها ببعض. وفي الكهف تفرش عادة حصائر وتصف جرار فخارية وتشتعل النار. والجبليون يديرون تدبيرهم الاقتصادي على الطبيعة، ولا يكادون يمارسون التبادل منعزلين عن العالم الخارجي، وليست لديهم حتى أعواد الكبريت. والأرجح أن هذا كان حينئذ واحدًا من المواضع القليلة في العالم حيث كانت النار لا تزال تشعل بالطريقة البدائية إما قدحًا بحجرين أو حكًا لعودين الواحد بالآخر. وهذه الأعواد كانت تؤخذ بتكسير أغصان أنواع بعينها من الأشجار التي لا تنمو إلا في سقطرة، وتحفر في أحد العودين (الغصنين) ثغرة غير عميقة، ويشعل الجبلي النار منه قاعدًا على الأرض وجاعلاً نهاية العود الثاني في الثغرة ثم يبدأ التحريك براحتي يديه سريعًا من الأعلى إلى الأسفل، وفي الوقت نفسه ينفخ بهذا الشكل على العود السفلي وسرعان ما يبدأ العود الأسفل يلتمع في الثغرة المحكوكة، ثم تدس فيها نشارة من العفن أو نشارة من الخشب أو كسارة قرص مجفف من بعر الحمار أو الجمل وإذا بالنار تشتعل وتلتهب والموقد جاهز. وهذه العملية لا تستغرق من الجبلي ما لا يزيد على دقيقتين



المرأة سيدة الموقف

اثنتين. وقد حاولت مدة طويلة أن أتعلم هذه الطريقة البدائية في إشعال النار وحككت يدي إلى حد نزف الدم بقطعة ناعمة من خشب الشجر السريع الاحتراق وأنا أحاول الحصول على شعلة النار فلم يظهر إلا بصيص مصحوب بخيط من الدخان. ولم يحصل هذا في أحسن الحالات إلا بعد انقضاء عشر دقائق على البدء وبعد طول التدريب.

وتستدعي العجب وتثيره مساكن الجبليين المنصوبة من الحجر وهي أحجار كبيرة المقياس بما فيه الكفاية، ويخيل أنه يصعب رفعها باليدين. وليس مفهومًا أبدًا كيف أن بناية كهذه لم تنقض حتى الآن على رؤوس بُناتها، ومع ذلك، وعلى الرغم مما يبدو لأول وهلة من عدم المتانة وضعف الأمانة فإنها تقف صامدة على رؤوس الأشهاد، وهي قائمة ولم تسقط منها لا شعرة ولا بعرة.

ها نحن أولاء ندخل إلى أحد هذه «البيوت». يفضي مدخله إلى فسحه (فضوة على شكل مربع). ويتألف «البيت» من «غرفة» واحدة مفروشة أرضيتها بالتبن «القش»، وبالجوار أدوات ولوازم ساذجة. وأمام المدخل رحبة صغيرة محوطة بعارض غير مرتفع يبلغ زهاء نصف المتر من تلك الأحجار (الجلاميد) نفسها. وبقرب المسكن الحجري كتلة ملساء ضخمة من الصلصال كانت في وقت ما

مطروحــــة على سطح الأرض، ولكنها الآن قائمة من أحد جوانبها وجاثمة وهي مدعومة بما تحتها من أحجار بحجم ٥٠ ـ ٦٠سنتيمتراً. ثم يظهر لنا أن هذه هي «مـخـدع الزوجين» صاحبي البيت، ويرقد الأطفال في «حجرة» نومهم داخل «البيت» أما الوالدان فإنهما يرتقيان ليلاً فوق الكتلة الصلصالية حيث يتخذان منها «مقصورة» للرقاد وهي كذلك مفروشة بالهشيم «التبن»

صورة من الداخل

كنا خمسة: أنا وعامر وصالح الذي يبحث لنفسه عن زوجة وضابط مسلح وجندي مع آلة مبرقة

ومثل هذه الحدائق حول البيوت في باحاتها يمكن مشاهدتها في سقطرة كثيراً وبخاصة لدى سكان السهل. ومساحة مئتي متر مربع إلى ثلاثمئة هي القدر الأقصى لأمثال هذه الحدائق (وفي الحقول الساحلية تحفر دائماً آبار) وتزرع هنا الطماطم واليقطين والخضرة، ولكن هذه الكمية النزرة من الخضراوات تمثل زينة للبيت أكثر من كونها مادة غذائية للأسرة. ولدى طانوف ثلاثة أطفال وهم صبيان أعمارهم ٧ و ٩سنوات و ١١سنة على التوالي. وهم عراة حتى الخصر. ولكنهم لا يلتفون بقطعة قماش بل بفوطة

الجزيرة العربية في الماضي السحيق قبل حصول الجفاف في المناخ. وهذه الأبقار يمكن رؤيتها كذلك في مهرا وفي دفار (ظفار) والمسافة من الأنف إلى العصعوص (عظم العصعص) تساوي متراً واحداً وعشرين سنتيمتراً وهو ما يماثل حجم العجل البالغ ستة أشهر من الأنواع المعروفة لدينا. وبعض هذه البقرات وحشية تقريباً، ولهذا فإنها كانت تهاجمنا في المراعي أحياناً محاولة أن تنطحنا بقرونها. ولدى طانوف زوج من الحمير، وهي هنا من نوع الحمير العدنية، وفي الأساس ترتع في المرعى بحريتها. ولهذا تبدو وحشية الطبيعة.

ولكل أسرة في الجبال مرعاها، والحدود بين مراعي مختلف العوائل عوارض قليلة الارتفاع مرصوفة من الحجارة المصفوفة، والمواشي تعودت أن ترعى في مرعاها الخاص بها، ولكنها تتجول أيضاً في المنطقة الجبلية وبين الحشائش مقتلعة العشب. والمعزى تعرف صاحبها، وصاحب المعز يعرف كل واحدة من معزاه، ولكن، مع ذلك، كل معزاة ربما تُرَى فجأة في أبعد المواضع عن احتمال وجودها. أما الأشخاص فلا يحصل لهم هذا فهم يعرفون سادتهم ولا يضلون عنهم. ويتحدث طانوف أن الأرض كلها في القرية مقسمة إلى قواطع، وإذا أكلت معزاة أو شاة كل العشب في مرعاها فإنها تنتقل إلى أرض الجار. ويقول طانوف: «وكيف لا؟ إن البيت هو بيتك أما الطعام فهو لله، والمال مال الله، وما

يفضل السقطري الموت على بيع معزه ويهوى القفز فوق الجبال والتباري فيه ويعالج أمراضه بالكي

من الحامية المحلية. وهنا يمكن أن يحدث أي شيء، وقد حدثني الضابط بأن بضعة مجرمين قد هربوا من تحت الحراسة، ولم يبق لي أن أفعل شيئاً سوى أن آخذ هذا التوضيح في الحسبان.

وفي الجبال على مقربة من القرية يقوم بيت صغير عائد إلى طانوف وهو مثلٌ للرجل الميسور الحال بدرجة كافية وفق مفاهيم تلك الفترة البعيدة الآن، كان لديه من رؤوس الماشية خمس عشرة بقرة، وبضع عشرات من المعز والضأن. وحول البيت حديقة لا تتجاوز المئة متر مربع تنمو فيها بعض الخضراوات.

حضرمية حقيقية هي تنورة رحالة مشدودة من فوق بحزام عريض. وهذا هو اللباس الأساسي لكل السكان في جنوب الجزيرة العربية وبعض أقاليم إفريقية الشرقية.

ويساعد الصبيان في رعي الأبقار وحلبها، وهي واطئة الحجم جداً ونحيفة ولونها أصهب مع بقع سوداء وبيضاء مثلما هي في أوربا تماماً إلا أنها أصغر من تلك حجماً بمرتين.

ويجدر بالذكر أن هذه الأبقار هزيلة بنتيجة التأقلم والتكيف مع الطقس الجاف، وهي سليلة تلك الأبقار التي كانت منتشرة في جنوب

الجدوى للجار إذا أنا مت جوعًا؟ معزاتي ترعى اليوم عنده وربما غدًا يتعين عليّ إطعام ماشيته».

تضامن اجتماعي

أجل يتوافر هنا التضامن الجماعي، ولا يزال فوق علاقات الملكية التي أخذت تتكون. ولكن ملكية المواشي محدودة، وحتى في الأسرة الواحدة كثيرًا ما يحافظ على تقسيم ملكية المواشي؛ ففي أسرة طانوف ثلاثة أرباع المعز والضأن تعود إلى زوجته وربعها له. وإذا بدا له أن يترك زوجته إلى أخرى شابة فإنه سيأخذ معه ربع عدد الشياه والمعزى. وعلى معزاه علامة خاصة. وكل المعز والضأن، والمولود من معزاه وشياهه يعود له كذلك. وعقب وفاة الوالدين تقسم جميع المواشي بالسواء بين الأولاد، وإن كانت لديهما أيضًا بنات فسوف تعطى لهن أيضًا حصة، وهي نصف حصة الصبيان على قاعدة: للذكر مثل حظ الأنثيين النساء:١١. ولكن إذا تزوجت إحدى بنات العائلة رجلاً غنيًا وتزوجت أخرى منهن فقيرًا فإن حصة الأولى يمكن أن تنتقل إلى الثانية.

وإدارة اقتصاد الجبليين في سقطرة بقيت على الطبيعة. وأنا أعرف أن الحكومة تعدّ خططًا لتطوير الجزيرة. وقد تحدثت إلى طانوف وقلت له: إنه وأولاده لن يكونوا في المستقبل مضطرين إلى العمل منذ الصباح الباكر حتى وقت متأخر من ساعات الليل متراكضين في الجبال، ولن تموت المعزى بسبب الأمراض؛ إذ سيعمل في الجزيرة أطباء بيطريون، وسوف يجلب إلى الجزيرة الرز والدقيق (الطحين) وعلب الكبريت، وسيكون بوسعه هو نفسه مراجعة الطبيب. أما المعز التي أصبحت كثيرًا ما تضيع وتفقد فسوف تنقل إلى البر اليمني لئلا يبقى متعينًا على البلاد شراء اللحوم الغالية من الخارج. واستغرب طانوف وقال: «أبيع معزي؟ كلا ثم كلا. تنقل إلى سطح الباخرة وأنا أنظر إلى ذلك بهدوء وسكينة. أفضل لي أن أموت. نحن من دون هذا نكاد نموت من الجوع. فما الذي سوف نأكله إذا بدأنا نرسل معزنا إلى عدن».

المعازي تطعم السقطريين. وفي الجبال الكثير من المعز والضأن. لكن أصحابها لا يميلون إلى بيعها، ولا يعجبهم ذلك، ولا يرغبون فيه. وفي وقت ما عندما لم يكن يتوجه إلى سقطرة تقريبًا أي أحد كانت المعزاة تساوي هنا ٣ - ٤ شلنات (نصف دولار)، والآن نحن نتفق مع طانوف على شراء المعزاة لأكلها مقابل عشرين شلنًا، وهذا ليس غاليًا كذلك. وفي الوقت الحاضر تكاثر المنتقلون من عدن إلى سقطرة وهم يتلقون رواتب. وفي الجزيرة يعرفون أكثر وأحسن من سواهم الوجوه التي تصرف بها النقود. وطانوف يشتري بهذه النقود كومة من الرز. ويذبح عامر المعزاة بسرعة ويسلخها ويقصبها وينتزع منها الكبد وهي دامية ومتبخرة. وبعد شيها قليلاً على النار يقطعها إلى أفلاذ، ويوزعها على الجميع، ويخصني بها قبل الآخرين. ولا بد من أكل الكبد وهي شبه نيئة، ويعدّ هذا هنا من أفضل ما يقدم من الطعام للضيوف والأهل.

وبينما طعام الغداء على النار يجري طبخه وهو الذي نعدّه لكي نقدم منه إلى صاحب الدار أيضًا.



لكل أسرة في الجبال مرعاها

يجلب طانوف البــقــرات. وهنا يعرفون قيمة الوقت. والصبيان في هذا الوقت يستخرجون الزبدة من الحليب بضربهم بشكل رتيب القربة المصنوعة من جلد المعز والمملوءة حليباً على الحجر للحصول منه على الزبدة، وينبغي الاستمرار في ضرب القربة على الحجر مدة خمس ساعات، ثم يجري تحضير الزبدة بطريقة خاصة لكي تبقى دوماً بشكل مائع. وتحفظ الزبدة للمنفعة لأجل تبادلها أو «لليوم الأسود». والخثارة الباقية من الحليب التي تسمى هنا «روبة» يتخذها الجبليون مادة غذائية رئيسة. أولاد طانوف نموا على هذه الخثارة، وهي المخيض أو (المذق) مع التمور. وقيض لهم تناول اللحوم بضع مرات في حياتهم فحسب. وبضع مرات أكلوا الأسماك، وذاقوا طعم الرز في السنة الماضية فقط.

مشي وقفز

وليس الجبليون مشاة ممتازين فحسب وإنما هم مهرة في القفز أيضًا، ويهوى الشبان التباري فيه. وهم يتقافزون إما من حجر إلى آخر وإما ثلاث مرات على التوالي بكلتا القدمين على غرار اللعبة الرياضية لثلاث قفزات (القفزة المثلثة) على أن تبقى الساقان مضمومتين معًا، والقفز بهذا الشكل عسير. وسألت أولاد طانوف إذا كانوا هم أيضًا يستطيعون القفز. كيف لا؟ واصطف الصبيان بكل ارتياح يجاور بعضهم بعضا، وبعد التهيؤ للقفز بالتحفز، قفزوا ثلاث مرات مثل الأرانب، وفاز على الجميع أوسطهم المسمى عيسى. وكان مدى قفزته زهاء ١٢ متراً. ونتمطق بالألسنة معجبين، ويرتقي الصغير عيسى وكان له من العمر تسع سنين، وهو يرتدي الأطمار والأسمال حجراً لكي يرينا مرة أخرى فنّه. إنه يهم بالقفز إلى جلمود صخري آخر وهو حاد وليس مستوياً


بيت يظهر جمال العمارة والإبداع في التعامل مع البيئة

وتفصله عنه مسافة تقارب أربعة أمتار. وأخذت أهيئ جهاز التصوير ولكني ألتقي نظرة محذرة من عين والد الصبي المحذرة. ويجرني عامر من ذراعي قائلاً: «لا حاجة إلى التقاط الصور. إن لم ينجح في إنجاز قفزته فإنه يصاب بجرح بليغ، وحينئذ سوف يعد الوالد أن الذنب يعود إلى العين الشريرة التي في يديك (عدسة الكاميرا) والجبليون لهم دماء حارة». ويخطر على بالي لسبب ما أنه في ديرهو قرية عامر حيث أمضينا الليلة، سلّ أحد الجبليين خنجره اليدوي الصنع وهبطت يدي بالكاميرا لا إرادياً. فالجبليون كما هو معروف ومسموع عنهم أناس مسالمون، وهم لا يخافون أحدا ولا يخشون شيئًا. وقفز الصبي بمهارة طائراً إلى الأعلى وهبط فوق هدفه بالضبط. وأحسده على متانة حذائه الرياضي.

الحرق علاجاً!!

والابن الأكبر محمد صدره كله والقسم الأيمن من رأسه تملؤها آثار كبيرة من الجراح والإصابات وهي أيضًا آثار الكي كنوع من العلاج المحلي، وكان حيناً ما من الدهر شائع الاستخدام في العالم العربي بأسره، بل لا يزال محتفظاً به حتى الآن في القرى السحيقة والأغوار العميقة بمصر وفي الشمال الإفريقي والجزيرة العربية. والكي، وهو آخر العلاج، وهو حرق الجلد بقطعه معدنية محمية على النار، وهذا في الطب القديم والشعبي والبدوي بمنزلة العملية الجراحية في الطب الحديث. ويظهر أن الولد كان مصاباً بالتهاب رئوي أو ربما بالتدرن (السل) الذي يتعرض له نصف الناس فأكثر، وقد عانى من

الحمى الشديدة، وشكا من ألم في الصدر وصداع. وأتصور الحكيم المحلي المداوي وهو يدس في الجمر والنار قضيباً معدنياً ليحمى إلى حد الاحمرار، أو سكيناً للغرض نفسه ويمسك بالصبي أقرباؤه، ويتناول الحكيم القضيب المعدني ويلمس به عدة مرات صدر الغلام ورأسه بلذعات، وكذلك تلك المواضع التي «وصلها الداء». ومن الصعب النظر إلى منظر كهذا من دون أن يضطرب الجسم، ويرتعش الجلد، ويقف الشعر. وهذه الطريقة القاسية خطرة وهي تنفذ في الظروف غير الصحية للحياة في الجزيرة. ومواضع الكي والحروق تلتهب، وقد تدخلها العدوى. ولكن صدمة الألم الشديدة ترغم على نسيان الألم السابق وتناسيه وإغفاله وإهماله من النظر والإحساس. وبين من يتداوى بهذا الأسلوب من يلقى حتفه ومن ينال الشفاء. ويتعالج بالكي الجميع ولا يصادف في الجزيرة شخص يخلو وجهه وجسمه من الآثار الفظيعة لقطعة الحديد المحمية بشدة.

مراسيم الختان

ويشكل واحداً من أكثر الأحداث احتفالاً وفخامة في حياة الفتى من قبائل سقطرة تكريسه وإعلان بلوغه مبلغ الرجال. وفي هذا اليوم تجري للصبي عملية الختان. وقد سمعت منذ أمد بعيد عن الأسلوب الفريد لهذه العادة الشرقية القديمة على الطريقة السقطرية. أما حينما وصلت إلى الجزيرة فقد تحرقت رغبة في رؤية إجرائها رأي العين وعن كثب. وعند السقطريين لا تزال عملية الختان مرتبطة بتلك التقاليد والمراسيم والشعائر القديمة والعريقة التي كانت أصولها شائعة بين سكان شبه الجزيرة العربية، وهي تجري لمن بلغوا مرحلة النضج من العمر في سن الثانية عشرة إلى الرابعة عشرة. ومثل هذا الذي يحدث في سقطرة لم يكن من الممكن مصادفته في ذلك الوقت في أي مكان من العالم العربي عداها.

ولسماعي بتلك المصاعب التي تصاحب محاولات حضور الأجانب اللطيف، وإن المراسيم لم تعد حالياً على ما كانت عليه في الماضي من الإمتاع، ثم إنه ليس من المعروف متى سيحدث ذلك. وعلى الرغم من ذلك وعقب مرور يومين وجهت إليّ الدعوة لحضور المراسيم، إما أن يكون تصبري وعدم إلحاحي، قد أدى دوره، وإما لمجرد أنه لم يعد يأتي إلى الجزيرة أناس كثيرون من المهتمين بحياة أهاليها ولغتهم.

الميلاد الثاني

وها قد حلّ يوم الاحتفال. ويتجمع في ساحة الفضوة أهل القرية



تطل الجبال والصخور برأسها في معظم سقطرة

أمثال هذه المراسيم في إفريقية ومشاهدتهم إياها توقعت أن ألاقي مقاومة كبيرة، وحين طلبت من أحد أكبر الرجال سناً في ديرهو دعوتي للحضور في الاحتفال بهذه المراسيم عندما كانت القرية تتهيأ لإجراء الاحتفال بتحويل عدد من المراهقين إلى رجال بالغين. واعترض الشيخ قائلاً: إن ذلك ليس بالطريف ولا

بأجمعهم، يجلس الرجال على هيئة قوس نصف حلقي في الأمام والنساء على مبعدة وبشكل حلقة قوس كذلك، وخلفهن الصبيان. وفي المركز بقرب جلمود ضخم يجلس الحكيم المطبب، وهو أحد الناس المحترمين في القبيلة متربعاً. وفي هذه اللحظة يبدأ قرع الطبول وتحت دقاتها الرتيبة تنطلق عقيرة الرجال

والنسـاء بالغناء تشـجيـعًا للفـتى المحتـفى به بما في معناه: «اليوم سيجري لك الختان وستصبح رجلاً كاملاً بمعنى الكلمة.. اليوم سنذبح عـددًا من رؤوس الأغنام وسـوف نحتفل بيوم ميلادك الثاني عيدًا سعيدًا..» ويتسارع إيقاع الدقات ويدنو من الصبي شيخ بيده سكين مشحوذة جيدًا ومسنونة بالحجر، هي قطعة مصهورة في النار من المعدن ومطروقة مثبتة في قبضة من قرن معزى، وبمثلها تنحر المواشي، ويقطع الحرفيون الأخشاب. وبحركة من إحدى اليدين المشدودة إلى النفس والتلويح بالأخرى ينتهي كل شيء. ويجلس الصبي من دون أية حركة. ويظهر أنه يحس بألم شديد، ولكن الشرط الرئيس لتكريسه هو ضبط النفس ورباطة الجأش وكبت الشعور بالألم؛ إذ لا يجوز له الارتعاش ولا الانكماش ولا الصراخ وإلا ستعلن القبيلة أنه جبان أو رعديد، ولن ترضى فتاة واحدة بأن تغدو له زوجة صالحة وحليلة فالحة. والآن تساعد أيضًا فخامة جو الاحتفال والأغاني المشجعة وأصوات قرع الطبول الطنانة. ولا يفعل أي شيء لوقف نزيف الدم. وبعد إتمام المراسيم يؤخذ بيد الفتى إلى الكوخ. وتطرح أسرته الخروف عند المدخل، وتذبحه، ويدعى إلى المأدبة جميع أهالي القرية. وعقب مضي بضعة أيام يأخذ الرجل الجديد بالتمشي على رجليه، بل ويحلب الشياه ويرعى القطعان، ويقصب اللحم.

رواسب عبادة القمر

ويمكن العثور في عادات السقطريين على آثار الديانات المنتشرة في الجزيرة في العصور الوسطى بين سكان جنوب الجزيرة العربية والحميريين. وحتى الآن إذا حدث الجفاف وانقطاع الأمطار يتجمع أهالي القرى الجبلية عند بدء العتمة في الحقول مرددين الترانيم، ورافعين الصلوات الطقوسية، ويقدمون الذبائح من المواشي كقرابين. وفي هذه العادات لا تزال محفوظة رواسب عبادة القمر. وتُتَناقل لدى الجبليين ذكريات عن العادات القاسية القديمة. فخلال فترة الجفاف الفظيع كانوا يختارون أحد أبناء العشيرة ويتحلقون حوله مرددين الصلوات والابتهالات متوسلين إلى القمر، فإذا لم يهطل المطر بتروا يده عادّين ذلك تضحية مقدسة للآلهة. ولدى قبائل سقطرة سحرة ومشعوذون ومنجمون، والناس يعتقدون أنهم يستطيعون معرفة مستقبل الإنسان، وتعيين الكيفية التي يجب أن يتصرف بها وعليها، واستدعاء المطر أو رمي الداء على الإنسان والحيوان. وقد قصوا علي حادثة لشخص تنبأ له الساحر بالموت بعد ثلاثة أيام، وبالفعل توفي في الموعد المضروب. وهذا لا يدل سوى على قوة الاعتقاد لدى الناس بحتمية وقوع ما يتنبأ به السحرة.

والإيمان بالقوة الغيبية الخارقة المسيطرة على أذهان الناس هنا من سكان الجزيرة بوجه عام قوي جدًا. ولهذا، فإن من كتبوا عن هذه الجزيرة كثيرًا ما يصفونها تارة بأنها «جزيرة الأرواح والأشباح، وتارة أخرى بأنها «جزيرة الأساطير والخرافات». وما أكثر هذه الأحاديث عن المخلوقات ذوات الخوارق والجن والأرواح! وهي من يطلق عليهم السقطريون تسمية «ديديخين». وينسب إلى تصرفات هذه المخلوقات والأشباح الكثير مما يحدث للناس، ويعتقد السقطريون بأن بعض البشر الذين يمتلكون قدرات سحرية التأثير يستطيعون التفاهم مع الجن ومحاورتهم والاتفاق مع الأرواح والأشباح وإخضاعها لإرادتهم وتسييرها وفقًا لمشيئتهم ورغباتهم.

ظهرت الفتاة ثومة على غلاف مجلة العربي، فأصيب وجهها بالتشوه

الأرواح تنتقم

وقد قصوا علي كيف أنه في عهد البريطانيين (كانت الجزيرة في غضون عدد من السنين قاعدة بريطانية للقوات الجوية) هاجمت

الأرواح إنجليـزيًا أمـضى ليلة في الجبال. وبتر «الديديخـينيـون» أي الأرواح أطرافه الأربعة ولكن لم يتح لأي أحد رؤيتهم.

وانبـرى أحـدهم وهـو راع من خاكهير قائلاً إن الإنجليز أرسلوا إلى هذا المسكين حشرة طائرة ضخمة، يقصد بهذا طائرة الهليوكوبتر. وأقول له وأنا أضحك: أفلم تكن من قريتكم تلك الأرواح (يو بيبي؟) أي يا أبتي، ولكن وجه العجوز يبقى ساكن القسمات وهو يقول لي بجد: «من يستطيع فعل ذلك عدا «الديديخـينيين»؟ إن أفراد قومنا لم يكونوا ليجرؤوا قط ومطلقًا على مهاجمة بريطاني».

سألته «ولماذا»؟ فأجاب: «إن الشخص الذي يجرؤ على عمل السوء بأي واحد من الإنجليز كان السلطان سيعدمه».

وأقول مستغربًا: «أفمن المعقول أن السلطان كان سيتوصل إلى القبض على أي شخص كان؟ أليس من الصعب على أي أحد الوصول إليكم؟!

وكان جواب الشيخ لي: «ماذا تقول؟ إن السلطان كان مشاءً كأي واحد منا، وبوسعه التجول في الجبال بصحبة معاونيه وكان سيستطيع العثورعلى المذنب».

ويقسم الجبليون الناس جميعًا إلى «مشائين» و«غير مشائين»، والأولون هم الذين يستطيعون الانتقال في ظرف يوم واحد من الجبال إلى الساحل أو الارتفاع من الساحل إلى ذرا الجبال دونما استراحة أو استجمام، ويوسعهم السير عدة أيام على التوالي. أما غير المشائين فإنهم يخشون صعود الجبال، وليس بوسعهم الارتقاء إلى مساكن الجبليين، وبعد التسلق في المرتفعات الجبلية ساعات تقارب



منظر طبيعي من سقطرة

الخمس يتهالكون من التعب طالبين الراحة. أما أنت فيبدو أنك من المشائين. كان هذا الإطراء الذي سمعته بحقي من فم الجبلي طيب الوقع على سمعي وفي نفسي.

وتتحدث إحدى الأساطير التي سمعتها من أهالي الجزيرة عن المرأة التي تستطيع إذا شاءت أن تتحول إلى طائر يحلق حول بيت الذي تحبه، فإن لم يرد عليها ذلك بالمثل من المحبة بوسعها تحويله إلى حيوان ما. وتتحدث الأساطير أيضًا عن السحرة الذين يستطيعون متطلعين إلى أوعية فيها ماء تخليص الإنسان من سحر السحرة الآخرين وفك سحرهم، وفي هذا يساعدهم الجن الخاضعون لسيطرة السحرة.

وقد سمعت في الجزيرة الحكاية التالية التي ذاعت حينًا بين سكانها: إحدى النساء من كيشنا تزوجت أحد السقطريين، ولكنه أهملها وتركها وحيدة، ومرت على ذلك سبع سنين حسومًا، واستحوذت عليها الكآبة، وذات مرة اشتكت نادبة حظها التعس إلى صديقاتها اللواتي سبحت معهن في أحد الأيام الأوائل من شهر المحرم الحرام في نهير قريب، ثم في المساء شاركتهن الرقص. واقترحت عليها إحدى الصديقات الذهاب في مساء اليوم التالي والتوجه وحيدة بمفردها إلى ساحل البحر قائلة لها: إنها ستشاهد هناك وحشًا ضخمًا يجب عليها أن تمتطي صهوته وعندئذ سيحملها ويوصلها إلى زوجها الغائب. واستولى على الامرأة الفزع ولم تذهب إلى البحر، ولكن صديقتها كررت عليها مرة أخرى نصيحتها السابقة، وذكرت

لها أنها ستصادف في مساء اليوم التالي طيرا ضخماً لا وحشاً ويجب أن تجلس بين جناحيه الهائلين فيحلق بها إلى حيث تريد. وعلى هذا النحو حدث كل شيء. ويعد قضائها الليل بطوله مع زوجها تهيأت للعودة إلى بيتها. وقررت الزوجة على أية حال أن تأخذ معها دليلاً يبرهن على صحة حدوث حيلتها وأخذت خلسة من الرجل خنجره وخاتمه. ولكن الطير امتنع عن نقلها في طريق الإياب قبل أن تتطهر. وبعد أن فعلت ذلك



بيت من مواد بيئية يحتضنه الجبل

استطاعت حتى الصباح الرجوع إلى البيت. وسرعان ما بدأ يظهر أنها حامل وأخذت جاراتها يتحدثن عنها بالسوء حول هذا الموضوع، عندئذ عرضت عليهن خنجر زوجها وخاتمه فقطعت الشك باليقين وبرأت ساحتها من إثم الزنا بالدليل والبرهان، والجارات بدورهن صدقنها ونفين عنها التهمة بأنها امرأة سوء، وبهذا انتهت الحكاية بخاتمة سعيدة.

مأساة الفتاة ثومة

يخشى السقاطرة كثيراً العين الشريرة أو عين الحسود وبهذا يمكن تفسير الخوف المذعور في الفترة الحالية من الكاميرا (جهاز التصوير). والتقاط صورة فوتوغرافية لوجه امرأة في سقطرة متعذر، ويكاد يكون أمراً مستحيلاً. وقبل بضعة أعوام حل في الجزيرة صحفيون كويتيون كان دليلهم أيضا عامراً، وقد أخذهم إلى قريته ديرهو. وأراد مراسل مجلة العربي سالم زبيد التقاط صورة ملونة لغلاف عدد المجلة التي سينشر فيها الاستطلاع (الريبورتاج) عن سقطرة ووقع اختياره على أجمل فتاة في القرية وهي جارة عامر، واسمها ثومة.

وما كانت عيون ملايين القراء لتلك المجلة، وهي إحدى أكثر المجلات العربية المصورة انتشاراً، لتقع على صورة السقطرية الحسناء لولا مساعدة عامر الذي تسنى له إقناع الفتاة. ومرت بضعة أشهر، وعلمت ثومة أن صورتها طبعت على الورق، ونظر إليها الكثير من الناس. وهنا أدهش الفتاة أن وجهها وصدرها عراهما احمرار وانتفاخ، وطرأ عليهما ورم ما. وتشوهت الفتاة حتى أصبحت لا تكاد تعرف. ولم يعد ممكناً أن تعرف فيها «نجمة الغلاف» تلك، وأصبح مستحيلاً إقناع أية فتاة ما من فتيات ديرهو بالوقوف أمام عدسة التصوير، فقد أصبحن متيقنات بأنهن إن فعلن ذلك سيحيق بهن مصير الحسناء ثومة.

ولم يتح لنا الحصول على لقطة لوجه أثينة الفتاة الرشيقة البيضاء البشرة من خديبو إلا بعد أن أكدنا لها مع الأيمان المغلظة أن صورتها ستذهب إلى البلد الشمالي السحيق، وأن أي واحد من أبناء جزيرتها لن تقع عيناه عليها إلى أبد الآبدين.

جهاز كشف الكذب المحلي

وهنا يشعر المرء بالخوف الشديد من الأشخاص الذين يقال: إن لهم صلة بالقوة الشريرة للأرواح والسحر. والشكوك بشأن مزاولة السحر الأسود، وهنا كان يعاقب عليها تقريباً كما كان يحدث في أوربا القرون الوسطى من مكافحة الأبالسة والساحرات. ولكي يتم التحقق من أن الامرأة صادقة أم كاذبة كانوا يلقونها في البحر مشدودة بحجر ثقيل فإذا غطست ثم بعد ذلك طفت كان ذلك دليلاً على أنها بريئة فكانوا يخلصونها من الحجر وينتشلونها من الماء، وإذا لم تغطس وبقيت طافية على سطح الماء بادئ ذي بدء اتهمت بممارسة السحر

وعُدت التهمة الموجهة إليها ثابتة وعندئذ استحقت القتل. ومن يدري لعل هذه العادة قد نقلت إلى هنا من أوربا المسيحية. والطريقة الأخرى لجهاز «كاشف الكذب» واضح أنها محلية المنشأ. وهي عبارة عن جمرة عادية توضع على لسان الشخص المتهم بالكذب، جمرة متوهجة فإذا أخذ يصرخ مرتعباً كان معنى ذلك أنه مذنب ويحكم عليه بالموت، أما إذا كان غير ذلك لم يلحق به أذى ولم يحسَّ ألمًا فهو إذن بريء فيحرر ويخلص. وهذه العادة عربية وهي كذلك منتشرة وذائعة بين البدو في الصحراء المصرية.

وعقب مرور بضعة أيام ذهبت مع رئيس حامية مشاة البحرية في سقطرة حسن عزازي ونزلنا ضيوفاً على قرية قيدة الواقعة على الساحل الشمالي من الجزيرة بين مورا وقاديب. كانت أكواخ أهالي قيده مرصوفة من الحجر مجصصا بملاط طيني. أما السقوف فمنصوبة بمهارة من سعف النخل والخوص وورق الأشجار، وهي مفروشة على الأعواد. ويرى المختصون في علم الأجناس والأقوام (الإثنوغرافيا) أن طريقة بناء البيوت في ساحل سقطرة الشمالي تشبه الطريقة الإفريقية. وليس هذا بالمستغرب إذ يعيش في هذا الساحل كثير ممن يعود أصلهم إلى إفريقية الشرقية وكانوا قبل يوم ٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٦٧م عبيد السلطان من آل بن أفرار والجواري السابقات يتصرفن بمزيد من الحرية أكثر من سواهن.

فقر وكرم ضيافة

وكل كوخ في قيدة أمامه باحة غير كبيرة محاطة بسياج حجري قليل الارتفاع. واستقبلنا أحد السكان المحليين ودعانا للدخول إلى البيت. وندخل عبر الباحة ونتوجه إلى البيت، وأمام الباب المفضي إلى الحجرة شرفة مسقوفة، أي قطعة من الأرض مفروشة بخوص النخيل وفوقها سقف من السعف. وهنا تستقبلنا ربة البيت مريم وهي امرأة بعينين واسعتين معبرتين. وفي أذنيها قرطان فضيان ضخمان، وشعرها مضفور من الخلف في خصلتين مهدلتين إلى الأمام تنوسان على صدرها. ومريم مشاركة نشيطة في الحركة النسوية بالجزيرة. وأسرة مريم فقيرة شأن جميع الأسر في قيده. وهي ترعى المعزى، ولكن العنزات قليلة. أما العشب في مراعي الساحل فغير طري. ويقول أهالي قيدة: ولولا التمور لكنا قد متنا من الجوع. والذين يعيشون في قرى صيادي الأسماك أحسن حالاً إلا أن الفقر لا يشكل عائقًا ولا يحول دون كرم الضيافة العجيب لدى السكان المحليين. وندعى كضيوف شرف مكرمين. تدعونا إلى وليمة العشاء حليمة وهي امرأة لطيفة المظهر متوسطة العمر أي إنها امرأة نصف جاءت تتطلع وتلقي نظرة على الضيوف القادمين. ولا جدوى من الاعتذار من قبول الدعوة. وبعد بضع ساعات عندما حلت العتمة عرجنا من جديد على قيدة. وحين وصلنا مشارف القرية أطفأنا مصابيح السيارة وأصبحنا غارقين في ظلام دامس. وسرعان ما أحسسنا بدفء المس بالأيدي الحارة، وتطرق آذاننا عبارات التحية والترحيب «علكا هاب» أي مساء الخير. ويستقبلنا الرجال ممسكين بأيدينا ويقودوننا في الظلمة الحالكة عبر درب حجري إلى البيت. وندخل الباحة حيث كان كل شيء معداً لمائدة الاحتفال. فرشت الساحة، وعند الحائط عدد من

أشار عليّ مرافقي بعدم تصوير طفل ماهر في القفز على الصخور حتى لا يصاب الطفل، فيتهم الأب العين الشريرة التي في يديّ «آلة التصوير»

الوسائد، إنه المكان المعد للضيوف. وبعد عدد من عبارات الترحيب والتحيات الطوال والتمنيات بالصحة والعافية جلسنا مستندين إلى الحائط متكئين على الوسائد، وبعدنا جلس أصحاب الدار في قوس على هيئة نصف حلقة.

زينة النساء

وكنا نرى حولنا عدداً من الرجال وعدداً من النساء. والنساء متبرجات ومتجملات ومسرفات في الزينة واللباس، ومضخمات بالعطور، ومدخنات بالبخور، وتفوح منهن الروائح والطيب. وبشرتهن

مـدعـوكـة بـزيت يراوح لونـه بين الصفرة والخضـرة، ومن صفـاته التطهير والتنظيف. والجلد المدعوك بهذا الزيت يلتمع على لهيب ضـوء المصبـاح الكيروسـيني (النفطي) متلألئًا بالبروق ومتموجًا باللمعان. وعلى أكف النساء وأقدامهن (وهن هنا لا ينتـعلن بأحـذية بل يسـرن حـافيات) رسـوم خاصـة بصبغـة حمراء قانية لعلها الحناء هي خطوط ونقاط بشكل مرتب، وتتميز الرسوم

ويحـمل الزينات والحلى الفضـيـة أيضًا صغار الأطفال وحتى الرجال. ويتحلى الرجال والغلمان والصبيان من القبائل الجبلية عادة بأساور فضـية على الذراعين فوق المرفق بقليل. ولكن الرجـال في المنطقـة السـاحليـة لا يحـملون الزينات والحليّ. في حين أن النسـاء كـمـا يظهـر قررن التـعـويض عن هذا النقص بكثرة ما يحملن من الحليّ والزينة، وأعـجب مـا في الأمـر هو

رأيت في سقطرة نساء آذانهن كلها ثقوب من أسفل اللحمة إلى أعلى الصيـوان. وذات مـرة قابلت في منطقة الجبال صاحبة (ضاربة) «الرقم القياسي»: كانت معلقة في كل أذن من أذنيها اثني عشر قرطًا! والنساء يرتدين ثيابًا من قماش أسود أو بلون أخضر غامق أو ثيابًا حمراء قانية أو رمانية موشاة في الأذيال والهوامش بخيط فضي. والثياب فضفاضة جدًا، وهي تنتفخ وتلتصق ملتفة على الخصر بحزام من القروش المعدنية تتدلى منه حلقة علقت فيها عدة مفاتيح. وهي مفاتيح عادية صغيرة مثل مفاتيح الأقفال «الإنجليزية» عندنا. وهذه المفاتيح ليست لها أية دلالة وظيفية. وذلك لأن الأقفال غير معروفة هنا ولكنها حلية لا معدى عنها من لوازم الزينة النسوية، وتعدّ جالبة للسعادة. ولدى بعض النساء ترنّ في الحزام بضع عشرات من المفاتيح. والنساء يتزين بالحليّ المؤلفة من قطع فضية مصنوعة بشكل بدائي. أما اللواتي هن أحسن حالاً وأكثر مالاً فإنهن يتخذنها من الذهب. وكثيرًا ما تتدلى من أحد منخري أنف إحداهن المخروم بثقب أيضًا حلي ذهبية من التي تدعى في الشرق بالخزامة. والنساء والأطفال بل حتى الرجال يحملون التمائم والعقود والحُجُب والطلاسم التي يعتقدون أنها تحفظهم من العين الشريرة وعين الحسود أو من الأمراض والعلل.

ونتجاذب أطراف الحديث الذي لا يكاد يشترك فيه الرجال. وتتحدث



السقطريات مولعات بالتزين

تبعًا للوضع الاجتماعي والعائلي، وكذلك كل رسم من الوشم له دلالته. والمرأة المتزوجة تزين نهايات الأنامل من أصابع اليدين وتمتد منها إلى الأعلى خطوط رسمت بينها نقاط عديدة، والأقدام مزينة، وعلى طول القدم كذلك صف من النقاط الكبيرة. والسقطريات مولعات بالتزيين، وليس بينهن حتى ولا واحدة لم تكن تحمل زينة فضية، ومن كانت منهن أغنى وأثرى تتخذها من الذهب.

الأقراط. إنها كبيرة وعلى شكل حلقات مضخمة في أسفلها، وتتدلى منها حمائل أنيقة الصنع تثقل الآذان وتشدها إلى الأسفل، إلى حد أنه من غير المفهوم كيف تتحمل الأذن قرطًا ثقيلاً كهذا. ولو كان قرطا واحدًا فحسب لهان الأمر! ولدى معظم النسوة الجالسات معنا خلف مائدة الطعام قرطان في كل أذن الواحد إلى جانب الآخر، وفي كل لحمة أذن من الصيوان ثقبان. وقد

في الأساس النساء. وتختلط نكهة أجسادهن المدهونة بالزيت برائحة التوابل والأفاويه للحم المعز وهو يطبخ. ففي المطبخ تطهى في القدر الكبيرة عنزتان ذبحتا إكرامًا للضيوف، ويا لها من ضربة موجعة لميزانية الأسرة!!

المرأة رأس الأسرة

ويشعر الضيف أن المرأة هنا هي ربة البيت ورأس الأسرة حقًا. وفي المجتمع الرعوي هنا في سقطرة تقوم المرأة بجميع الأنواع الأساسية من الأعمال المنزلية الاقتصادية، أعمال التدبير المنزلي، وهي ترعى القطيع وتحلب النعاج (الشياه) والمعزى السخلات وتحمل الماء من العيون والآبار، وتطبخ الطعام، وتستخرج الزبدة من الحليب، وتعصر الزيوت، وتذري الحبوب وتنظفها على الأحجار من التبن والشوائب، وتربي الأطفال، وتخيط وتحوك الشملة، وهي كساء طويل مخطط تشتهر بصنعه سقطرة شأن عدد من مناطق شبه الجزيرة العربية الأخرى وتكاد تشكل المادة الوحيدة للتبادل التجاري. أما الرجال فيرعون القطعان سوية مع النساء، ويصيدون الأسماك، ويجمعون الصمغ من «شجرة التنين»، ويجمعون ويقطفون التمور بالارتقاء على النخيل بمساعدة حزام عريض خاص مفتول من ليف النخل يلف على الظهر وجذع النخلة وهو واسع في المنطقة التي تلف ظهر الرجل الذي يجمع التمر.

والرجال يبنون الأكواخ ولكن النساء يساعدنهم في هذا العمل أيضًا.

والدور البارز للمرأة السقطرية في تدبير الحياة الاقتصادية أشار إليه في حينه فاسكو دي غاما الذي وصف زيارته إلى هذه الجزيرة ضمن سياحاته.

وكوخ مريم يكاد يكون خاليًا: على الجدران صحون عريضة ومستديرة يضعون عليها الطعام وبعض اللوازم المنزلية، وعلى الأرضية فرشت بطانية طرحت عليها بضع وسائد طويلة. ومن الغريب أن تشاهد في هذا البيت الصغير ماكينة خياطة من ماركة «سنجر» الألمانية الشهيرة التي تشاهد في الجزيرة في عدد من البيوت. والسقطريات يَخِطْن ثيابهن وثياب أفراد الأسرة من كبار وصغار بأنفسهن من القماش الذي يجلب من البر اليمني ومن حضرموت بالذات.

ينمو في سقطرة ٦٠٠ نوع من النباتات، ٢٠٠ منها لا توجد إلا فيها

وفي هذه القرية كما هو الشأن في القرى الأخرى بجزيرة سقطرة لا تمارس الزراعة. وهذا يبين درجة تأثير التقاليد. لعله كان من الممكن على الأقل أن تكون حول كل بيت حديقته الصغيرة المغروسة. أما هنا فالأرض فارغة مهملة لا ينبت فيها سوى نخيلات منفردة تتوزع تحتها وحولها متفرقة بصورة نادرة بعض الأعشاب.

ويدور حديث طويل موضوعه أن الحياة شاقة، وكم من الأعمال يتعين على النساء القيام بها وكم سيكون حسنًا لو أن أطفالهن سوف يعيشون حياة أفضل!! وسرعان ما قدم الطعام على هيئة صحون عليها أكوام من الرز تسمى هنا «كسكس» والرز أكلة نادرة وفوقها قطع اللحم الساخنة الداخنة. وبدأنا بتناول الطعام. وتلقى إلى الضيوف خيرة القطع منها: الكبدة واللسان والرز المشبع بماء لحم الضأن وكان ينبغي جمعه في بطن الراحة من كف اليد اليمنى على هيئة مكورة ثم تلقى في الفم لقمة سائغة. وأخذت أنا أصف بعناية العظام فوق الصينية المصنوعة من القش والتي تحمل الصحون والطعام، وذلك لأني أعرف أن أصحاب الدار بعد انتهاء العشاء لن يقذفوا بالعظام بل سيكسرونها ويتعرّقون ما عليها من لحم وشحم، أما البواقي فيعيدون سلقها؛ إذ إن اللحم هنا يؤكل بصورة نادرة جدًا. وأطفئت حرارة الطعام الساخن والدسم بشرب الماء. ثم يقدم الشاي مع حليب المعز. وقد أخذ سكان سقطرة يتعودون شرب الشاي والقهوة مؤخرًا. وهما يجلبان إلى الجزيرة من البر. أما في الجبال فما زال الكثيرون من السكان لا عهد لهم حتى الآن بطعمهما ومذاقهما. وبعد ارتشاف الشاي يدخن الرجال.

والغلايين هي عظام الغنم المجوفة. ويحشى العظم من أحد طرفيه بالتبغ الهولندي الرخيص الذي يجلبه إلى الجزيرة الباعة الحضارمة. وأخيراً نغادر البيت المضياف، وتودعنا النسوة إلى السيارة، ويوجهن إلينا الدعوة لنعود مرة أخرى، فإن كرم الضيافة وحسن الوفادة عندهن بلا حدود.

السينما: المرآة الحية

وأثناء فترة العشاء تذكرت النسوة أيضاً السينما وطلبن منا أن نوضح لهن كيف أنه من الممكن أن يتحرك على سطح «المرآة» (وهكذا يسمين الشاشة) بشر أحياء. أفليس هذا من باب السحر؟!

وقبطان سفينة البحث العلمي الروسية «أيزومرود» الراسية منذ بضعة أيام عند الرصيف قرب شواطئ سقطرة (وكان ذلك آنئذ من الندرة إلى حد كبير) ولقبه بلوتنيتسكي، من المستبعد أنه تصور بالشكل الكامل ما الذي كان يعنيه بالنسبة إلى سكان الجزيرة، الذين لم يتعرفوا أبسط منجزات التمدن العصري الحديث إلا خلال العامين الأخيرين، أول عرض في الجزيرة لأفلام السينما (أول مرة!) التي نقلها إلى الشاطئ الفتيان من السفينة الروسية وأجهزة الفيديو غير المعروفة في ذلك الوقت. وسرى النبأ في أنحاء الجزيرة سريان النار في الهشيم، وفي غضون ثلاثة أيام تقاطر البدو لمشاهدة ما يجري على «المرآة الحية». وقبيل بدء العرض في الساحة الرئيسة بخديبو أمام مبنى قصر السلطان السابق علقت على الجدار شاشة وجلس على تراب الأرض مباشرة الرجال ثم بعد بدء العرض جلست النساء وراءهم على شكل حلقة نصف دائرية، وتصوروا هذه اللوحة: المبني وفي واجهته النوافذ المشبكة بالقضبان الحديدية والساحة المكسوة بالرمل التي تتفرع منها في مختلف النواحي أزقة ضيقة ملتوية، وفي وسط الساحة لا تزال مطروحة سبطانة مدفع قديم من العهد البرتغالي للقرن السادس عشر، التي كان يربط إليها بأمر من السلطان من يعاقبون جلدا بالسياط. حشد من الناس على اختلاف أنواعهم وأشكالهم تجمعوا من شتى أنحاء الجزيرة ومعظمهم ليس لديهم تصور عن الاتحاد السوفييتي وما هيته، وما الأفلام السوفييتية المعروضة على الشاشة؟ وقد عرض فتياننا بضعة أفلام روائية وتسجيلية، وحصلت على شهرة خاصة، وحازت إعجاباً خاصاً بها الأفلام عن الحرب الوطنية العظمى (الحرب العالمية الثانية). وكم هو مؤسف أنه لم يكن بين هذه الأفلام حتى ولا فيلم واحد مصحوب بترجمة إلى اللغة العربية (وهنا الكثير ممن يستطيعون فهمها) والكثير من أهالي القرى البعيدة من حيث الموقع عن خديبو لدى سماعهم بأمر السينما خرجوا من بيوتهم في صباح اليوم التالي مبكرين لكي يصلوا عند المساء إلى العاصمة ويشاهدوا كيف أن الفتيان الروس يعرضون في «المرآة» صوراً متحركة؟. ومن العسير تصور أن منظراً كهذا يثير في وقتنا مثل هذه الدهشة والحيرة. وكان ذلك بالنسبة إلى البدو بمنزلة المعجزة، وراحت النسوة يصرخن ثلاثاً «يا محمد، يا محمد، يا محمد» ومثل هذا الهتاف يطلقه السقاطرة دوماً وهو يمكن أن يعبر عن التعجب والإعجاب والفزع والتقدير العظيم ويمكن أن يكون كذلك تأكيداً للقسم أو لعنة.



الكاتب في إحدى الخيام مع مجموعة من السقطريين

وحليمة التي دعتنا إلى وليمة العشاء في قيدة ذهبت لمشاهدة أفلام السينما أربع مرات. وقد حدثتني فيما بعد قائلة: «جميل جداً وطريف جداً. ولكن كان الأمر مفزعاً جداً. وذلك عندما ظهر ذلك الشخص الضخم ورأسه بحجم هذا البيت، والحمد لله، لم يستمر ذلك طويلاً وإلا فإننا هممنا بالهروب، ثم ظهر لي هذا الجني الكبير ليلاً في المنام، ولم يحرسني وينقذني منه إلا النبي محمد». وكان ذلك الجني الكبير هو مهرج السيرك السوفييتي الشهير الذي عرض الفتيان فيلماً عنه على أبناء الجزيرة، وقد عرض وجهه على الشاشة بالكامل في منظر عام فملأ الشاشة، وهكذا أفزع النسوان المصدقات بالخرافات.

قلنسية
مدينة قروش البحر

قلنسية هي المدينة الثانية في سقطرة بعد خديبو، وتقع في طرف الجزيرة الغربي، وهي مدينة صيادي الأسماك. وأول ما يسترعي الأنظار النظافة الباهرة التي تكاد تعشي العين في بنايات طينية صفراء صهباء فاقع لونها يسر الناظرين. وجدران البيوت البيضاء المكسوة بالنورة وهي كلس محلي الصنعة. ومادتها الخام هي كسارات الكتل المرجانية، وهي هنا، شأنها في خديبو والمناطق الساحلية من شبه الجزيرة العربية، تحرق في حفر دائرية محفورة في الأرض، وترصف جدرانها الداخلية بالحجارة. وشكل الأبواب هنا يذكر

سقطرة

تقع سقطرة في الجانب الشرقي من قارة إفريقية، شرق رأس غار «دافوي» بمسافة ١٧٠ كلم. وهي إحدى جزر بحر المحيط الهندي الواقعة على خط الطول ٥٠ درجة و ٤٥ دقيقة، وعلى خط العرض ١١ درجة و ٥٠ دقيقة وأيضاً ١٢ درجة و ٣٠ دقيقة.

تتكون مساحة الجزيرة من ١١٥ كيلومتراً طولاً، و٤٠ كيلومتراً عرضاً. وعدد سكانها نحو ستة آلاف نسمة تقريباً. وتتميز بمنتوجاتها من الصبر الأصفر، وهو أعلاه، والبخور، وقاراداش قاني [لم يستطع المترجم معرفة هذا النوع من النبات] والمرجان، والهيل.

من كتاب «مرآة الحرمين» بالتركية لأيوب صبري باشا، مطبعة بحرية، قسطنطينية، ١٣٠٦هـ
[الفيصل]



الكاتب بين رجل وامرأة مرتدياً الملابس التقليدية للسقطريين

بالأبواب الحضرمية، فهي من الخشب بتحليات جميلة وأحياناً مختلفة خشبية أيضاً ملصقة عليها وتزينها قطع معدنية.

وقلنسية أكبر منطقة في الجزيرة لإنتاج اللحوم المجففة لأسماك قروش البحر. وصيادو الأسماك المحليون يصيدون أسماك القروش من مراكب (شخاتير) أو زوارق (لانشات) غير كبيرة، وهناك في الحال على الشاطئ تقصب وتخلص منها الأحشاء وتقطع زعانفها ثم تصف في هوة محفورة في الأرض وتغمر بمحلول ملحي يحصل عليه هنا من مكان غير بعيد بمنطقة «شعبة». وهكذا يملح اللحم ويجفف على الشمس من شهر إلى ثلاثة أشهر حتى يغدو شبيهاً بقطعة خشبية" قوية وذات لون بني غامق، وتبدو للوهلة الأولى غير صالحة للأكل. وبغية استعمال لحم القروش المجفف في الطعام ينشر إلى قطع صغيرة بالمنشار، ثم يسلق بالماء على النار. ولحم قروش البحر يشكل إحدى المواد الغذائية الأساسية في حضرموت والمناطق الساحلية في جنوب الجزيرة العربية، وكذلك في إفريقية الشرقية. ويبيع صيادو

الأسماك السقاطرة منتوجهم في إفريقية وحضرموت حيث يحظى لحم القروش المجفف في أسواقها بالإقبال والرواج على نطاق واسع. وفي قلنسية تصاد أيضاً أنواع أخرى كثيرة من الأسماك. وتقع أحياناً في أيدي صيادي الأسماك الغيالم وهي السلاحف البحرية الضخمة.

ولقد تناقص عدد هذه الحيوانات المسكينة البريئة في العالم بدرجة كبيرة ولم يبق منها سوى القليل ولكن لحم الغيالم والسلاحف وبيوضها هنا ليست لوناً شهيّا من الأكلات النادرة كما في الأماكن الأخرى، وإنما هي غذاء لازم وضروري على مدى بضعة أيام. وتنطرح على الشاطئ دروع السلاحف وقحوفها وجماجمها، وهذا هو كل ما يتبقى من حسناء البحر - السلحفاة - التي يبلغ طولها زهاء المترين.

ويقال ان تسمية قلنسية منحدرة أصلاً من كلمة ايكليسيا اليونانية التي تعني الكنيسة أو المعبد. ويذهب بعض المؤلفين إلى الظن بأن هذه التسمية جاءت من مدينة فلنسيا في أندلس القرون الوسطى - الجزء الذي فتحه العرب من إسبانيا والمعروفة لدينا حالياً باسم فالينسيا. ومهما كان من أمر فإن هذه التسمية واردة من الأزمان السحيقة شأن العديد من التسميات الأخرى في جزيرة سقطرة مثل موري وديشاس وغلسونة ومومي.

طلبت النساء أن أفسر لهن كيف يتسنى للبشر الأحياء أن يتحركوا على سطح المرآة



شجرة دم الأخوين أو التنين الشهيرة

عمل ورقص

ويقطن في قلنسية الآن زهاء ١٥٠٠ نسمة. وحوفظ هنا على أقدم حرف السكان في سواحل سقطرة، وهي حرفة صيد اللؤلؤ. وفي موسم صيد اللؤلؤ تخرج إلى البحر قوارب، ويغوص الغواصون لأخذ الأصداف خاطفين معهم إلى سطح الماء الحمل المستطاع منها مستعينين بالحبال. وبتأثير البقاء فترة طويلة في الماء المالح بالقاع البحري يتشقق جلد الغواصين صيادي اللؤلؤ ويتقرح ويتقيح، وتؤلمهم آذانهم، ويعتريهم الصداع، وتقصر أعمارهم.

وبعد تناول لحم قروش البحر مع الرز المشبع بمرق هذا اللحم عدنا في اليوم نفسه إلى خديبو. ويبدأ موسم الرياح والحياة هنا تتوقف؛ لا يخرج إلى البحر صيادو الأسماك، ويلزم الناس بيوتهم. والريح من الشدة بحيث تمنع أحياناً السير في الشارع، ويصدم الوجه إعصار عاصف من الغبار وأحياناً الحصى وصغار الأحجار، وهي تضرب الجسم مسببة له الألم. وفي الأطلس البحري للاميرال ايساكوف (اسحاقف) خلال الفترة حزيران (يونيو) - آب (أغسطس) تفرد سقطرة من بين جميع مناطق العالم ببقعة صفراء غامقة معناها أنه تهب هنا ريح هي من أشد الرياح في الأقيانوس العالمي، فحذار أيها البحارة! وموسم الرياح والسيول والجفاف لا تذهب بأرواح الحيوانات والمواشي فحسب، وإنما تذهب معها أحياناً أرواح البشر. وخلال هذه الفترة ينقطع كل اتصال مع الجزيرة، وحتى الطائرة ليس بوسعها الهبوط في مطار موري الطبيعي إلا خلال ساعات الهدوء ما بين العواصف والزوابع والأعاصير

التي تحل في أيام نادرة من الساعة الثالثة حتى الخامسة بعد الظهر. وعلى الرغم من الريح التي تبدأ الهبوب بنشاط خاص من الساعة الحادية عشرة مساءً تتعالى في خديبو في أثناء ساعات المساء أصوات دق الطبلة، وهي الآلة الموسيقية الوحيدة في الجزيرة، عندما يتجمع الشباب لأداء الرقصة الليلية المسماة بالرامسا. وعلى صوت الإيقاعات الرتيبة للطبلة وتصفيق راحات أكف المجتمعين في حلقة تحت كنف الظلمة الحالكة أو ضوء القمر، يؤدي فريق من الفتيان والصبايا المنتشرين بالإيقاع الرقص: تارة مع التحرك يقابل بعضهم بعضًا، وتارة أخرى بالتراجع إلى الخلف مبتعدين وهم يرفسون بقوة بأقدامهم الحافية في موجة من الغبار الرملي. وتستمر «الرامسا» أحيانًا حتى طلوع الفجر إذ لا مجال للأعمال على أية حال.

التعليم والنقلة الحضارية المتوقعة

ويقول لي سالم علي وهو المسؤول عن المدارس في الجزيرة: العمل هنا شاق كثيرًا. والبدو لا يريدون أن يذهب أولادهم إلى المدارس؛ وذلك لأن الأطفال منذ سن السادسة - السابعة يحلبون ويرعون الحيوانات ويتعهدون المواليد. والحكومة مضطرة أن تنشئ لأبناء البدو الذين لم يسبق لهم عهد بالمدرسة قط مدارس داخلية حيث يجمع الأطفال من القرى النائية. وهناك يقدم لهم الطعام



بيت من الحجر تمتد أمامه حظيرة

مجانًا، وهذا حتى الآن هو الحافز الرئيس المشجع الذي يدفع البدو إلى الموافقة على إرسال أولادهم إلى المدارس الداخلية. والآن يتغير موقف البدو حيال المدرسة والكثيرون منهم يريدون أن يحصل أبناؤهم على التعليم. وحتى الوقت الحاضر تعمل في الجزيرة ١٤مدرسة يشتغل فيها ٣٨ معلمًا قدموا من عدن. وهذه المدارس متواضعة من حيث المنظر والمظهر، فهي مبان بسيطة مرصوفة من الحجر المجصص بالملاط الطيني. ولكن عندما تعرف مقدار الجهد المبذول، ومدى الحماسة المشتعلة في نفوس أولئك الأشخاص الساعين إلى نقل سكان الجزيرة من القرون الوسطى رأسًا إلى القرن العشرين، لن يكون بوسعك سوى أن تندهش لطاقة السكان المحليين وصبرهم. وقد زاد عدد التلامذة في الجزيرة من ٢٥٠ تلميذًا في سنة ١٩٧٣م إلى ١٥٠٠ تلميذ في سنة ١٩٧٤م.

ويبلغ محمد وهو واحد من أولاد عامر التسعة سن التاسعة من عمره. وقد كان يتعلم في مدرسة بمدينة خديبو، ولكنه هرب مؤخرًا عائدًا إلى البيت في الجبال بقرية ديرهو.

وأسأل الصبي: ألا تريد أن تغدو مهندسًا أو طبيبًا؟ - «أريد. ولكن كيف يمكن البقاء في بيت واحد؟ وحتى في يوم الجمعة لا يسمح لنا بالجري بين الجبال. إنني لا أستطيع العيش طيلة الوقت في المدينة». وكلمة مدينة اسم فرضي صرف لتلك البلدة التي هي في واقع الأمر بالفعل عاصمة سقطرة أي خديبو. ولكن في موقف الصبي حيال الحياة في الساحل يتجلى تعوّد الجبليين على الحياة الحرة المطلقة، وهو المتوارث من جيل إلى جيل على مدى عدد من القرون.

يشاهدون السيارة لأول مرة!

والآن نتجه نحو الشرق إلى جهة رأس مومي طرف الجزيرة الشرقي. والسيارة هنا لا تظهر كثيرًا، بل إن أول سيارة في الجزيرة لم تظهر إلا قبل ثلاثة أعوام. والتضاريس هنا بديعة إلى درجة لا تكاد تخطر إلا

في الخيال بسبب ما ينمو على جانبي الطريق من الأشجار المسماة بالقناني. وساقها مكسوة بقشرة لحائية كأنما صقلت ولمعت بالأيدي الماهرة وذات لون أصفر. وهذه الشجرة غليظة في أسفلها رقيقة في أعلاها بحيث تبدو وكأنها أشبه ما تكون بالقنينة الزجاجية. وفي قمة هذه الشجرة إكليل من الأغصان الملتوية العارية من الأوراق. ومن مزايا هذه الشجرة قدرتها على تجميع الرطوبة والماء وحفظهما بكميات كبيرة وفترة طويلة. وكثيراً ما نشاهد في الطريق البدو الذين عندما يرون السيارة من بعيد يطلعون إلى الطريق ويلوحون بأيديهم طالبين إركابهم فيها ونقلهم. وسرعان ما شحنت سيارتنا اللاندروفر المكشوفة بالأشخاص حتى الآخر وصارت السيارة تهتز متثاقلة على الأحجار مثيرة علينا الغبار الرملي الأحمر، الذي يتخلل الشعر ويجعله أشعث أغبر وأجعد، وكذلك شعرات الحاجبين ورموش العين وكأنما تصبغها بلون أصهب. والبدو مع ذلك يشيرون طالبين منا الوقوف لكي يصعدوا إلى السيارة. وهم يقفزون من السيارة برهة ثم يقفزون إليها من جديد لأنهم بسبب عدم التعود يشعرون بالغثيان والرغبة في التقيؤ. ولا يزال الكثير من البدو الذين هبطوا من الجبال إلى الوادي أو إلى الساحل حتى الآن أيضًا يفزعون من السيارة لأنهم يشاهدونها أول مرة. ومع ذلك فإنهم يتصرفون حيال هذا الشيء المجهول عندهم بصورة لائقة تدل على الاحتفاظ بالكرامة الشخصية. وقد صادفنا واحداً من هؤلاء البدو قرب رأس مومي. وقع نظره على سيارتنا اللاندروفر واقفة عند شاطئ البحر (وكنا في ذلك الوقت نطفئ غليلنا من العطش بالماء عند أحد الرعاة). ودنا البدوي العجوز إلى السيارة بجرأة رافعًا بفخر رأسه الحليق وكانت تسير خلفه بحذر وتردد زوجته الشابة بثوبها الأخضر الطويل حاملة على صدرها أحد طفليها وممسكة بيد الآخر، وكان رأس الصبي قد حلق مع إبقاء خصلة شعر في قمته، وحول الرأس طوق دقيق من الشعر (ومن الطريف أنه يمكن رؤية مثل هذه الحلاقة لرؤوس الصبيان في الصومال)، دنا العجوز وهو يرنو بتطفل وحب استطلاع إلى هذا «الشيء» المجهول الغريب. وعندما اقترب البدوي من السيارة سار من جهة المحرك وتوقف ثم راح يتحدث مخاطباً «اللاندروفر» بقوله: «مون بو؟ مي أو أو غيد» أي «من أنت؟ ومن أين جئت؟» وتعين علينا أن نعرف هذه العائلة على القادم العجيب. وبعد التجول بهؤلاء البدويين راكبين السيارة على طول الساحل يظهر أنهم شعروا بالارتياح إلا أنهم لم يجهروا بعبارات الإعجاب.

فرقة التطور المحتالة

وفي الطريق نحو الشرق على مبعدة بضعة كيلومترات عن العاصمة نشاهد عدة بيوت مبنية كما يبدو مؤخراً، ويجلس قربها على حصيرة مجدولة من الأغصان عدد من الرجال بلحى كثيفة، وهم أشبه ما يكونون بأهل اليمن، وكلهم يرتدون الفوطة وهي التنورة اليمنية الرجالية، وأحدهم يرتدي السروال. وننزل من السيارة ونتعارف معهم. ونسمع اللهجة اليمانية ونعرف أن هؤلاء هم «فرقة التطور» نفسها التي سمعت عنها الكثير جداً في



مجموعة متناثرة من البيوت التقليدية

سقطرى: بضم أوله وثانيـه، وسكون طائه، وراء، وألف مقصورة، ورواه ابن القطاع سُقَطْرا، بالمدّ، في كتاب الأبنية: اسم جزيرة عظيمة كبيرة فيها عدّة قرى ومدن تناوح عدَنَ جنوبيها عنها، وهي إلى برّ العرب أقرب منها إلى برّ الهند، والسالك إلى بلاد الزنج يمرّ عليها، وأكثر أهلها نصارى عربٌ، يجلب منها الصبـر ودمُ الأخوين، وهـو صمغ شـجـر لا يوجـد إلا في هذه الجزيرة ويسمونه القاطر، وهو صنفان: خالصٌ يكون شبيهًا بالصمغ في الحلقة إلا أن لونه كأحمر شيء خلقه الله تعالى، والصنف الآخر مصنوع من ذلك، وكان أرسطاطاليس كتب إلى الإسكندر حين سار إلى الشام في أمر هذه الجزيرة يوصيه بها وأرسل إليه جماعة من اليونانيين ليسكنهم بها لأجل الصبر القاطر الذي يقع في الأيارجات، فسيّر الإسكندر إلى هذه الجزيرة جماعة من اليونانيين وأكثرهم من مدينة أرسطاطاليس، وهي مدينة اسطاغرا، في المراكب بأهاليهم وسيّرهم في بحر القلزم فلمّا حصلوا بها غلبوا على من كان بها من الهند وملكوا الجزيرة بأسرها، وكان للهند بها صنم عظيم فنقل ذلك الصنم إلى بلاد الهند في أخبار يطول شرحها، فلما مات الإسكندر وظهر المسيح بن مريم، عليه السلام، تنصّر من كان من اليونانيين وبقوا على ذلك إلى هذا الوقت، فليس في الدنيا موضع، والله أعلم، فيه قوم من اليونانيين يحفظون أنسابهم ولم يداخلهم فيها غيرهم غير أهل جزيرة سقطرى، وكان يأوي إليها بوارج الهند الذين يقطعون على المسافرين من التجار، فأمّا الآن فلا؛ وقال الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني اليمني: وممّا يجاور سواحل اليمن من الجزائر جزيرة سُقْطرَى وإليها ينسب الصبر السقطري، وهي جزيرة بربر ممّا يقع بين عدَن وبلد الزنج، فإذا خرج الخارج من عدن إلى بلد الزنج أخذ كأنه يريد عُمان، وجزيرة سقطرى تماشيه عن يمينه حتى ينقطع، ثم التوى بها من ناحية بحر الزنج، وطول هذه الجزيرة ثمانون فرسخًا، وفيها من جميع قبائل مَهْرَة، وبها نحو عشرة آلاف مقاتل، وهم نصارى، ويذكرون أن قومًا من بلد الروم طرحهم بها كسرى ثمّ نزلت بهم قبائل من مهرة فساكنوهم وتنصر معهم بعضهم، وبها نخل كثير، ويسقط بها العنبر، وبها دم الأخوين وهو الأيدَع والصَّبِر الكثير، قال: وأما أهل عدن فإنهم يقولون لم يدخلها من الروم أحد، ولكن كان لأهلها الرهبانية ثمّ فنوا، وسكنها مهرة وقوم من الشراة، وظهرت فيها دعوة الإسلام ثم كثر بها الشراة فعَدوا على من بها من المسلمين وقتلوهم غير عشرة أناسية، وبها مسجد بموضع يقال له السوق.

معجم البلدان لياقوت الحموي

[الفيصل]

عدن. وهذه التسمية تطلق على المحتالين في لعب الورق المبعدين إلى جزيرة سقطرة عقاباً لهم؛ لأنهم كانوا في مقاهي عدن الرخيصة يغشون الفلاحين القادمين إلى المدينة وسكان المحافظات الذين يبيتون في أفواههم عشب القات فيفرغون جيوبهم من آخر ما لديهم من النقود. وتكافح الحكومة هذه الزمرة من الناس وتبعد المحتالين إلى سقطرة حيث يجب عليهم إمضاء سنين عدداً في حفر الآبار وعددها في الجزيرة قليل إلى حد كارثي. وتجلب إلى الشطار المعاقبين الأدوات والأطعمة وتخصم أثمانها من أجور عملهم. وتفادياً للإساءة إليهم بالصفات المهينة تطلق عليهم تسمية «فرقة التطور». وفي رأيي



شاب سقطري يتأهب لرحلة عمل شاقة

هذا قرار حكيم. ويقدم المبعدون لنا قهوة يمنية جيدة، ويشكون من سوء مصيرهم ونكد طالعهم ومن رداءة الغذاء، فبدلاً من الرز تعطى لهم نخالة الرز؛ وكثيراً ما كانوا يحسبون كم بقي عليهم من الوقت لكي تنتهي مدة الحكم عليهم بالأعمال الشاقة ويستبشرون بأنهم بعد بضعة أشهر سوف يعودون إلى بيوتهم.

السكان يفرّون خوفاً!!

ومأمور جزيرة سقطرة سالم خانقي هو الرجل الذي بدأ تحت قيادته استيطان الجزيرة وتحسينها. وهو موجود فيها منذ سنة واحدة ليس غير. وقبل سنة ١٩٧٣م كانت سقطرة تكاد تكون خاوية على عروشها، ولم يكن فيها أي شيء تقريباً، وكانت تحتاج إلى الكثير من الأموال والملاكات، بينما كانت الجمهورية الفتية مشغولة بكثير من المشاغل.

ويقول خانقي: عندما قدمنا بالطائرة إلى الجزيرة للمرة الأولى

تعين علينا الانتقال من المطار إلى خديبو مشيًا على الأقدام مدة تربو على ثلاث ساعات؛ إذ لم يكن في الجزيرة حتى ولا طريق واحد، وعندما انتقلنا أول مرة من خديبو إلى رأس مومي طرف الجزيرة الشمالي واستغرق الطريق منا ساعات عدة وارتقينا إلى الجبال، هرب السكان المحليون منا في شتى الجهات. ولم يبق أمامنا سوى امرأة منفردة مع طفلها المريض تحمله على صدرها ولم يكن ذلك إلا لأنها لم تكن لتستطيع الجري شأنها شأن الآخرين جميعًا. وأخذنا نشرح لها أنه لا ينبغي الخشية منا، وأننا أناس مثلهم، وقد جئنا لتقديم المساعدة لهم، وأننا سنعطيهم الرز والأدوية وسوف نداوي ولدها ونشق في الجزيرة الطرق، ونبني المدارس والمستشفيات.

وقد جرب الراحلون إلى الجزيرة من بر اليمن أن يزرعوا هنا المانغو والسرجو والخضار وأنواع البطيخ والبرسيم والأعشاب. شاعت في منطقة الجبال أشجار الليمون الباقية كما يظهر من أزمان البرتغاليين. وهي تنمو بصورة وحشية وثمارها مرة وقابضة وحجمها كالبرتقالات الكبيرة.

أمسية احتفالية

وقبل إقلاعي جوا من سقطرة دعيت إلى «محضرة» أو «ضيفة» عند أحد الموظفين وهو يقطن ويعمل في الجزيرة. وهذه العادة واسعة الانتشار في عدد من البلدان العربية. وعلى الأرجح أن هذا هنا بدعة وتقليعة جديدة، ولكن اليمانيين

كانت الحكومة تبعد المحتالين إلى سقطرة ليمضوا سنين عدداً في حفر الآبار



لم تمنعها طفولتها من العمل في التحطيب

القادمين إلى الجزيرة نشروها في العاصمة السقطرية. وهي احتفال يقيمه الرجل الذي يزمع الزواج قبل عقد القران، وهو يدعو إلى هذه الأمسية الاحتفالية عدداً من الناس، وجميع الأقرباء والأصدقاء والمعارف والزملاء. والطعام فيها يمكن أن يكون متنوعًا تبعًا للحالة المادية لزوج المستقبل من مجرد شرب الماء إلى العشاء الدسم. وفي اليمن يحضر مثل هذه الأمسية عادة الرجال وحدهم، أما هنا فيجتمع فيها الجنسان ذكوراً وإناثًا. وعند مغادرة الأمسية يجب على كل مدعو أن يقدم إلى العريس مبلغًا ما من النقود لمساعدته في مصروفات الزواج.

واليوم هنا في باحة أحد أكبر البيوت في خديبو تجمع أكثر من أربعمئة شخص، وقدم للجميع لحم الضأن مع الأرز. وبعد التحدث بحرية ما شاء لهم الحديث، وإسباغ عبارات المدح والثناء والإطناب على الخطيب الداعي يبدأ الناس بالرقص والغناء، وتستمر حفلة المرح إلى ما بعد منتصف الليل بكثير. وعند الذهاب يقبل كل ضيف الخطيب في وجنتيه أو خديه ويدس له في جيبه ورقة نقدية وبعض المدعوين يتهربون بصورة مضحكة من هذا الدفع.

كيف العمل والجيوب عندهم فارغة كفؤاد أم موسى؟ وأدس في جيب الخطيب ثلاث ورقات نقود لها خشخشة. ويقول لي الخطيب وهو يخالجه مس من الحياء مردداً بهمس: «إنها عادة قديمة غير حسنة». وأطمئنه مطيبًا خاطره بقولي: «لا بأس في ذلك، إنها لعادة طيبة؛ إذ إنها تقرب ما بين الناس».

وبعد مضي بضعة أيام أقلعت الطائرة التي يندر ظهورها هنا مرتفعة بشكل حاد، وها أنا كما يخيل إلي أنظر بخشية آخر مرة من فوق إلى ما يسبح تحتي من الجبال والسهول والشواطئ الرملية لجزيرة «الرخاء والهناء».

ولم أكن أعرف عندها أنني سوف يتاح لي بعد بضع سنين العودة من جديد إلى سقطرة وإمضاء وقت غير قصير هنا دارسًا تاريخ سكان هذه الجزيرة وحضارتهم. ولكن الحديث عن هذا سيكون له وقته.

أمن المعلومات وجرائم الحاسوب

عدنان عضيمة

إن جرائم الحاسوب Computer Crimes أصبحت سبباً لخسائر سنوية بليغة في الدول المتطورة؛ حيث تكلف الاقتصاد الألماني وحده مايقدر بخمسة مليارات مارك سنويًا. وذلك بعد استثناء حوادث التلف الناتجة من الحرائق أو تسرب المياه إلى أجهزة الحاسوب والشبكات، وأخطاء المكونات اللينة، واحتقان البرامج التطبيقية بالفيروسات. ولقد أدى الإحساس المتنامي بهذا الخطر إلى مسارعة هذه الدول إلى استحداث أنظمة للأمن والوقاية ترمي إلى حماية مخزوناتها المهمة من البيانات والمعلومات.

في أحد أيام شهر يناير/ كانون الثاني من عام ١٩٩٥، توقفت شاحنة أمام السياج المخصص للحماية المشددة المحيط بمركز خدمات الأنظمة في ضاحية «أوتوبرون» القريبة من مدينة ميونيخ الألمانية لتبدأ ساعة الصفر بالنسبة إلى خبراء الحاسوب، فلقد كانت مهمتهم غاية في الوضوح، وتتمثل في إعادة تأسيس شبكة الاتصالات الحاسوبية للشركة الفضائية للحافلة الجوية وزرعها Aero-space Airbus Company بين هامبورغ وميونيخ، التي تعد الجهاز العصبي للشركة برمتها. وهذا يعني، بالتعبير التقني، أنّ الشاحنة كانت محملة بنحو ١٢٠٠ قرص ممغنط، تشتمل بمجملها على نحو ١٫٥ تيرابايت من البيانات (أو ١٥٠٠ مليار بايت،



يشكل المخربون ولصوص المعلومات والفيروسات خطرًا كبيرًا على أمن الشبكات الحاسوبية

والبايت byte هو وحدة المعلومات ويوازي حرفًا واحداً أو رقمًا أو علامة). والمعلومات التي تم نقلها تكافئ محتوى مكتبة وطنية تشتمل على نحو مليون مجلد ضخم.

وخلال ٣٦ ساعة فقط، كان على

الخبراء أن يستخدموا هذه البيانات لإنشاء بديل لمركز هامبورغ للحاسوب والتكفل بالسيطرة على توصيلاته وتفرعاته كافة بعد إشعارهم بأن هذا المركز تعرض لحادث أدى إلى تلاشي المعلومات والبيانات من شبكته المعلوماتية عندما تعطل حاسوبه الرئيس. ولم يكن في وسع الخبراء أن يهدروا لحظة واحدة للتحرّي عن هذه الكارثة، أكانت قد نجمت عن تسرب المياه أم عن الحرائق أم عن ارتطام طائرة أم عن عبث المخربين ولصوص المعلومات. ولو لم تكن الشركة قد أعدت عدتها مسبقًا لمثل هذا الحادث الطارئ بتسجيل معلوماتها وبياناتها على الأقراص المغنطة أولاً بأول لأصابها الإفلاس الأكيد. وبناء على مايقوله خبراء التأمين فإن أية مؤسسة مصرفية أو صناعية في العالم لاتستطيع الاستمرار في الأداء لأكثر من يومين بعد أن تفقد ملفات بياناتها، وسوف تعاني من الشلل والإفلاس.

والسبب الأساسي لمثل هذا الشلل المفاجئ يمكن أن يعزى إلى التكامل المتزايد والمتنامي للنشاطات الاقتصادية، وبعد أن سمح التطور الكبير المسجل في تقانة (تكنولوجيا) الشبكات الحاسوبية بحلول عصر غدا فيه إبرام الصفقات والعمليات التجارية يتم بسرعة هائلة ودقة متناهية. وحالما يتصدع المنهج المعتاد للعمل عبر الشبكات الحاسوبية لأي سبب من الأسباب، فإن المصارف تصبح عاجزة عن إبرام صفقاتها، وتغدو المؤسسات الصناعية غير قادرة على تلبية حاجات الزبائن في الآجال المحددة، وتترتب على ذلك كله سلسلة متلاحقة من العواقب، يطلق عليها اصطلاحاً اسم «تأثير الدومينو» Domino effect، الذي اشتق من الظاهرة المعروفة المتمثلة بالسقوط المتعاقب لسلسلة طويلة من أحجار الدومينو المستطيلة المصفوفة وقوفًا وعلى بعد مناسب بعضها من بعض بمجرد سقوط الحجر الأول على الحجر المجاور له.

أخطار الفيروسات

في عالم معالجة المعلومات، يمكن لأصغر مشكلة أن تفضي إلى أفدح العواقب. وتُعدّ «فيروسات الحاسوب» Computer Viruses من أخطر تلك المشكلات وأكثرها انتشاراً؛ وذلك لتكاثرها السريع وتزايد تعقيد مؤلفاتها وتعدّد أنواعها، بحيث يوجد منها الآن بضعة ألوف من الأنواع المختلفة المنتشرة في شبكات المعلومات العالمية. وكما هي الحال بالنسبة إلى الفيروس المجهري الحيّ الذي يصيب بعض أعضاء الإنسان، ويستشري فيها مؤدياً إلى التهابها واحتقانها وتعطيلها عن أداء وظائفها على النحو المعتاد ، فإن فيروس الحاسوب، الذي يمكن عدّه «برنامجًا صغيرًا»متخصصًا في إتلاف البرامج الأخرى، يستشري ضرره في مخزونات الحاسوب من المعلومات والبيانات ويفسدها.

وعندما تصاب شبكة المعلومات، التي تتألف عادة من عدّة حواسيب فرعية موصولة إلى حاسوب رئيس، بفيروس ما، فإن الثمن الباهظ الذي يدفعه الخبراء لعلاج مثل هذه المشكلة لايقتصر على المحاولات المضنية التي يكون عليهم أن يبذلوها من أجل تحديد مواضع البيانات والمعلومات التي أصابها هذا الفيروس بالتلف أو التغيير، بل على الجهود الشاقة والوقت الطويل اللذين يتطلبهما التحقق من «تطهير» الحواسيب الموصولة إلى شبكة المعلومات كافة من هذا الفيروس. وفي معظم الحالات، تبقى الشبكة الحاسوبية برمتها خارج إطار العمل والنشاط خلال أدائهم لهذه المهمة المعقدة. وقد يؤدي مثل هذا التوقف المتكرر عن الأداء إلى فقدان الشركة أو المؤسسة المعنيّة لسمعتها في السوق.

وبالنظر إلى حجم الأخطار الكبيرة التي تنطوي عليها حوادث الحاسوب، يكون من المدهش ألاّ يكون أكثر من ربع مستعملي أنظمة الشبكات الحاسوبية الرئيسة في الولايات المتحدة قد اتخذوا احتياطاتهم ورسموا خطة للطوارئ بالتعاون مع المراكز الحاسوبية البديلة تحسّبًا لمثل هذه الأخطار. وفي ألمانيا، تنخفض نسبة المحتاطين لحوادث الحاسوب عن ذلك بكثير إذ لايزيد عدد المؤسسات التي اتخذت مثل هذه التدابير الاحتياطية على ٨ بالمئة. ويكون مستعملو الحاسوب في المؤسسات والشركات العامة عادة أقل اكتراثًا بعواقب مشكلة الأمن الحاسوبي. إذ كثيراً ما يقوم هؤلاء بنسخ الألعاب الحاسوبية المسجلة على أقراص موبوءة بالفيروسات على حواسيب الشركة لغاية التسلية وقتل الوقت مما يؤدي إلى انتشار الفيروسات ضمن الشبكة كلها. ومن المعروف أن الكثيرين من مستعملي الحاسوب لا يعون الأخطار الحقيقية الكامنة في الأجهزة التي يستخدمونها. وعلى هذا يكون على المسؤولين عن ضمان الأمن الحاسوبي

في أماكن العمل المختلفة أن يحظروا تمامًا على العاملين إحضار أقراصهم الشخصية إلى أماكن عملهم . وينطبق هذا التحذير أيضـــــا حتى على مالكي الحواسيب الشخصية المنزلية المعرضين لتناقل الفيروسات عبر الأقراص الغريبة.

قراصنة المعلومات والبيانات

وللمخربين ولصوص المعلومات تأثير خطير في أمن شبكات الأنظمة المعلوماتية. فهم يبحثون عن نقاط الضعف في الشبكة الحاسوبية ويعمدون إلى استغلالها لأغراض خاصة، كإدخال خطوط خاصة للاتصالات السلكية أو اللاسلكية من أجل استعمالها مجانًا على حساب المؤسسة المالكة لها، أو التجسّس على «كلمات المرور» Passwords (وهي شفرات اصطلاحية يحددها مالك الشبكة لمنع دخول المستعملين الآخرين إلى البرامج التي تختزن المعلومات السرّية)، أو اللجوء إلى حلّ شفرات الحواسيب المركزية في الشبكات من أجل تعرّف محتوياتها، أو أن يضيفوا بيانات مزوّرة إلى البيانات السرية، أو حتى توجيه الأوامر العسكرية المزيّفة إلى القيادات العسكرية. وقد يقوم بمثل هذه الأفعال التخريبية حتى المستعملون العاملون في الشبكات أنفسهم لتحقيق غايات معينة.





يمكن للحرائق وحوادث تسرب المياه إلى شبكات المعلومات أن تؤدي إلى إفلاس كبريات الشركات والبنوك في غمضة عين

ويتداول المهتمون بأمن الحواسيب الكثير من القصص الطريفة حول أفعال المخربين. ومن ذلك أنه في عام ١٩٩٣م نجح ثوّار منظمة «الجيش الجمهوري الإيرلندي» IRA في «تسميم» الحواسيب التابعة لـ ٥٢ شركة كبرى في لندن بحقنها بالفيروسات، وكان ذلك أشد وقعًا وأبلغ ضررًا من القنابل الموقوتة التي اعتادوا تفجيرها هناك منذ بدؤوا محاولاتهم لنيل استقلالهم عن بريطانيا.

وفي عام ١٩٨٩م نجحت وكالة الشرطة الدولية «الأنتروبول» في القبض على مجموعة من المخربين الألمان الذين كانوا يقومون بنسخ البرامج وكلمات السر المزيّفة في بعض الشبكات الحاسوبية الحسّاسة في الولايات المتحدة ليبيعوها بعد ذلك إلى وكالة الاستخبارات الروسية KBG.

ومن القصص الواقعية المثيرة التي يتندّر بها الأمريكيون في صدد هذا، قصة عصابة من المخربين الأذكياء تتألف من ٢٣ مراهقًا تراوح أعمارهم بين ١٣و١٧ عامًا، يقودهم لص المعلومات الشهير راندي ميلر ذو الأربعة عشر عامًا، وكانوا يزاولون نشاطهم الخطير في «سان دييجو» حيث تمكنوا من استعمال حاسوب ميلر المنزلي للدخول إلى الشبكات الحاسوبية المستعملة في طول أمريكا وعرضها، وحتى على بعد يصل إلى ولاية ماساشوسيتس. ولقد تمكنوا من كشف «كلمات المرور» التي كانت تستخدمها

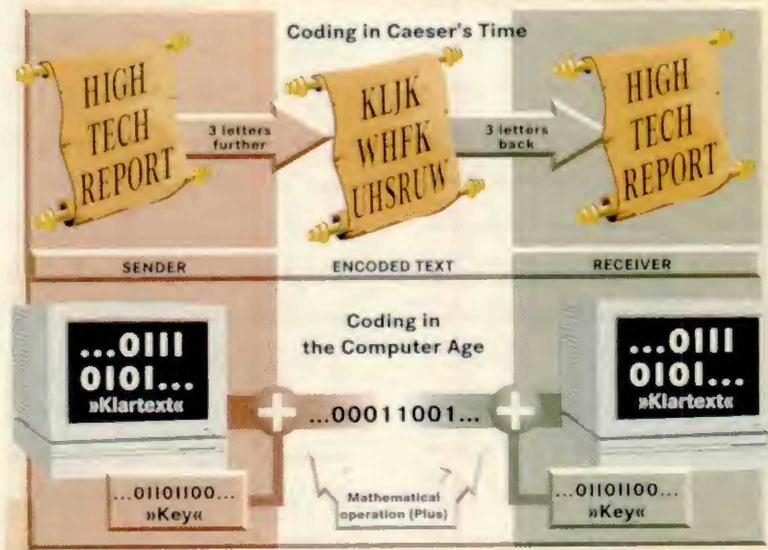
بعض البنوك للدخول إلى أرصدة مودعي الأموال، فغيروها، وأصابوا نشاطات هذه البنوك بالشلل التام. وعمدوا أيضاً إلى فتح أرصدة وهمية، وخرّبوا وغيّروا بعض بيانات الملفات. ولم يُكتشف أمر هذه العصابة إلا بعد مجهودات مضنية بذلها خبراء «مكتب التحقيقات الفيدرالي» FBI، تمكنوا من خلالها من تحديد مكان حاسوب ميلر بعد الإنصات المستمر إلى إشاراته الإلكترونية. وكانت الساعة الخامسة صباحاً عندما دهش «راندي ميلر» لمّا رأى رجلاً يشهر عليه مسدسه بعد أن تسلق نافذة غرفة نومه قائلاً له: «أنا من رجال مكتب التحقيقات الفيدرالي، ولقد جئت بأمر من النيابة العامة للقبض عليك ومصادرة حاسوبك».

وفي بداية عقد الثمانينيات، وفيما كانت الحرب الباردة بين المعسكرين الغربي والشرقي في أوج خطورتها، فوجىء الخبراء العسكريون في قيادة الدفاع النووي في شمال أمريكا بأمر عسكري ينقله الحاسوب بإطلاق الصواريخ النووية نحو أهدافها في الاتحاد السوفييتي. ولأن تنفيذ هذا الأمر لايمكن أن يتم إلا بموافقة رئيس الولايات المتحدة وفقًا للقوانين السائدة ، فقد سارع الخبراء إلى إعلام الرئيس رونالد ريجان بالأمر، فسارع بدوره إلى الاتصال بقصر الكرملين في موسكو عبر «الخط الأحمر»، المخصص للتشاور الفوري في القضايا الطارئة، للاستعلام عما إذا كانت موسكو قد شرعت جدياً بتنفيذ تهديداتها العسكرية الخطيرة. وتبيّن بعد ذلك أن القصّة كلها كانت من تدبير أحد العابثين بشبكة المعلومات العسكرية في أمريكا بحيث تمكن من كشف كلمة المرور ووجّه هذا الأمر المزيّف من خلال الشبكة.

وأصبح يطلق على مثل هؤلاء من لصوص المعلومات والعابثين بها اسم «المخربين» Hackers، وهم أولئك الذين يحققون فوائد معينة من الدخول إلى الأنظمة الحاسوبية بغير الصفة القانونية، ويتم ذلك عادة بوساطة حاسوب شخصي وعبر شبكات الاتصالات السلكية واللاسلكية المتصلة بقواعد المعلومات.

ولا تقتصر مهمة الخبراء العاملين في حقل الأمن الحاسوبي وصيانة المعلومات والبيانات على مجرّد ابتكار الطرق المتطورة لمنع الدخول إلى بيانات الأرصدة البنكية وأنظمة الاتصالات، بل تتعداها إلى ابتكار الأنظمة الحاسوبية التي من شأنها أن تضمن منع الدخول إلى المستندات والوثائق الداخلية الخاصة بالشركات والمؤسسات والمصانع والمكاتب، كتلك المتعلقة بالصفقات المالية ومخططات تطوير المنتوجات وما إلى ذلك، وذلك لحساسية هذه المعلومات في الكثير من الحالات.

ومن أجل تحاشي مثل هذه الأخطار يعمل الخبراء باستمرار على تحقيق أنظمة لحماية المعلومات والبيانات من عبث المخربين. وعلى سبيل المثال، يعتمد أحد أحدث هذه الأنظمة على جعل الدخول إلى شبكات المعلومات العالمية، مثل شبكة «الإنترنيت» التي يستعملها الآن مايزيد على ٦٠ مليون إنسان، مستحيلاً إلا من خلال حواسيب المراقبة الإلكترونية التي تسمى «حواسيب الحماية» Firewall Computers. ولكل من هذه الحواسيب دور يشبه دور «بواب العمارة»، الذي يتفرّس في الزائر الغريب بعمق حتى يتعرّفه، ويعرف مايريد، وما الصلاحيات



كانت الطريقة التي اعتمدها يوليوس قيصر في تشفير الرسائل السرية وتناقلها تتلخص بتبديل كل حرف أبجدي بآخر. أما في عصر المعلومات الحديث، فإن التشفير يتم باستعمال سلاسل الأرقام العشرية

الخاصة الموكولة إليه من أجل الدخول إلى حيث يريد. وبهذه الطريقة، يغدو المستعمل للشبكة أينما كان تحت المراقبة الإلكترونية المستمرة للمراجع القانونية الساهرة على أمن الشبكات، بحيث يتم كشفه فور شروعه بتبديل أو إدخال معلومات أو بيانات تسعى إلى تخريب البرامج أو تبديل معطياتها.

وليس ثمة من شك في أنه، على الرغم من الضرورات الماسة التي أصبح ينطوي عليها اعتماد الأساليب المعلوماتية الحديثة في أداء الأعمال مهما كانت وأينما كانت، فإن إدخال هذه الأساليب، دون رسم خطة متقنة ومضمونة لحماية بياناتها من الحوادث وعبث المخربين ولصوص المعلومات، من شأنه أن يعرّض المؤسسات المعنية إلى الضياع والإفلاس الأكيد.

التشفير وكسر الشفرة

كان «التشفير» Coding، منذ أمد بعيد، يعدّ وسيلة ضرورية لتناقل المعلومات والرسائل ذات الصبغة السرية، كالخطط والأوامر العسكرية. وكان الفاتح الروماني الشهير يوليوس قيصر من أوائل القادة العسكريين الذين استخدموا الشفرة في نقل الأوامر إلى قادة جيوشه حين عمد إلى استبدال كل حرف أبجدي في رسائله بآخر. وهذه الطريقة في الكتابة السرية لاتنطوي إلا على مشكلات صغيرة وظرفية بالنسبة إلى لمهتمين بحلها وتعرّف مضموناتها؛ لأن تواتر الرسائل من شأنه أن يقود تدريجياً إلى فك الشفرة وتعرّف الحرف الحقيقي الموافق لكل حرف مشفّر.

وفي عصر المعلومات الحديث،

أصغر المشكلات في عالم معالجة المعلومات تؤدي إلى أوخم العواقب وأفدح الخسائر



تمثل المعلومات المخزونة في آلاف الأقراص الممغنطة رأس المال الأكثر أهمية بالنسبة إلى الشركات الحديثة

تنطوي إحدى أكثر الطرق شيوعًا في حماية المعلومات والبيانات من عبث العابثين والمخربين واللصوص على تشفير «كلمات المرور»، اللازمة لفتح البرامج الحسّاسة ، وكذلك نصوص المعلومات والبيانات، وفقًا لأساليب معقدة تعتمد على التوزيع المتجانس والمبرمج للأرقام العشرية (التي تتألف من سلاسل الأصفار والواحدات) بما يتفق مع الكلمات أو النصوص والرسائل المبثوثة عبر شبكات المعلومات. وبما أن التفاصيل التقنية لطرق التشفير العشري الحديثة بالغة التعقيد، فإن هذا ليس المقام المناسب لشرحها. ويكفينا من ذلك الإشارة إلى أن أحدث هذه الطرق بلغت من الدقة والتعقيد ما يضمن، ضماناً شبه مطلق، تناقل المعلومات والبيانات من خلال آلاف الحواسيب الموصولة إلى شبكة «الإنترنيت» دون أن يتمكن المخربون من الدخول إليها أو تبديل معطياتها وبياناتها.

وخلاصة القول أنه مع التزايد الهائل لعدد الصفقات والمعاملات التجارية التي يتطلب الأمر إنجازها كل دقيقة عبر العالم، أصبحت الشبكات الحاسوبية تمثل الأدوات الوحيدة التي لايمكن الاستغناء عنها لإتمام هذه الأعمال على الرغم مما ينطوي عليه استخدامها من أخطار طارئة قد تعرّض الشركات والمؤسسات إلى الإحباط والإفلاس المفاجئ. وحتى الآن، وعلى الرغم من التدابير والإجراءات المعقدة والمضنية التي توصل إليها الخبراء لحماية هذه الشبكات من الأخطار، فإن بالإمكان القول بأن «الأمن الحاسوبي المطلق» هو غاية يستحيل بلوغها. فكلما زادت أساليب الخبراء في الحماية تعقيداً زادت مخيلات العابثين والمخربين واللصوص عمقًا لتجاوزها وتكسيرها. وعلى هذا، تبقى الحاجة إلى تحقيق الأمن الحاسوبي المطلق عبر دول العالم كافة، الهاجس الذي يؤرّق الخبراء في أثناء سعيهم الدؤوب لترسيخ نظام إلكتروني عالمي يضمن تبادل المعلومات وإنجاز الصفقات التجارية بسرعة تعادل سرعة الضوء.

الكالسيوم.. معجزة العناصر

مسعد مسعد شتيوي

يعدّ الكالسيوم بحق معجزة إلهية. إنه الملك المتوج على عرش العناصر المعدنية الموجودة بالجسم جميعها، من حيث الكمية أو من حيث الأهمية على السواء، إذ يحتوي جسم الإنسان على أكثر من كيلو جرام من هذا العنصر (المرأة ١كجم، الرجل ٥ر١كجم)، وبالتقريب فإن ٩٩٪ من الكالسيوم الموجود في الجسم يوجد في العظام والأسنان، وتحتوي العظام أيضًا على كميات كبيرة من الفوسفور (٨٥٪ من الإجمالي) والماغنيسيوم والصوديوم والكربونات.

والعظام ليست خالية من الماء وإنما تحتوي على ٢٠٪ من وزنها ماء. *وجَعَلْنا من الماء كلَّ شيءٍ حيّ*. **الأنبياء: ٣٠**. وهي ليست نسيجاً ساكناً STATIC كما يبدو أول وهلة ولكنها دائمة التغير والتحور، حيث يدخل الكالسيوم ويخرج منها باستمرار،

وتتركب العظام من أملاح معدنية HY-DROXYAPATITE بنسبة ٧٠٪ ومادة عضوية بنسبة ٣٠٪ تقريبًا، معظمها ألياف كولاجينية COLLAGEN FI-BERS. *وانظرْ إلى العظام كيفَ نُنْشِزُها ثم نكسوها لحمًا*. **البقرة: ٢٥٩**.



هناك مصادر كثيرة للكالسيوم والحبوب واحدة منها

علاج ضغط الدم وسرطان القولون

والكالسيوم خارج العظام يوجد بنسبة ١٪ تقريبًا، منها ٣ر٪ في العضلات، و٧ر٪ في بقية أنسجة الجسم. هذا الكالسيوم في غاية الأهمية لجميع خلايا الجسم وما تقوم به من وظائف حيوية: دقات القلب - السمع - البصر - انقباض العضلات - تجلط الدم - نفاذية غشاء الخلية وسلامته - حركة الحيوانات المنوية - تنظيم عمل الأعصاب والاتصال بين الخلايا - نمو وتكاثر خلايا الجسم - تنظيم نشاط عدد من الإنزيمات في الكبد والكلى والقلب والمخ والبنكرياس. ويعتمد إفراز بعض الخلايا EXOCYTOSIS على الكالسيوم مثل خلايا البنكرياس والغدد اللعابية. كذلك، فإن الكالسيوم يدخل وسيطاً ثانوياً SECOND MESSENGER في عمل كثير من الهرمونات. والكمية المطلوبة للقيام بكل الوظائف لا تزيد على

١٪ من إجمالي الكالسيوم الموجود في الجسم. أليس في ذلك إعجاز إلهي: *وفي أنفسكُم أفَلا تُبصِرون*. **الذاريات**:٢١. وقد أثبتت بعض الدراسات الحديثة أيضاً أن تناول الأغذية الغنية بالكالسويم يؤدي إلى انخفاض ضغط الدم، ويعتقد كذلك أن الكالسيوم وشريكه الطبيعي فيتامين D يؤديان دوراً مهماً في تقليل الإصابة بسرطان القولون COLON CANCER ثاني سبب رئيس للوفيات السرطانية في الولايات المتحدة.

ودائماً يوجد مستوى مرتفع من الكالسيوم في السائل المحيط بالخلايا IN-TERCELLUAR FLUID، أما في داخل الخلايا فلا يوجد إلا مستوى ضئيل جداً يمثل ١....ر من المستوى خارج الخلايا. ولذلك، فإنه عندما تدخل كمية ضئيلة جداً إلى داخل الخلية، فإنها تؤثر في معظم الأنشطة الخلوية، ومن دون هذا الكالسيوم تتوقف الخلايا عن العمل.

ويتم امتصاص الكالسيوم من الأمعاء الدقيقة، ويعتمد الامتصاص على عدة عوامل أهمها: درجة الحموضة (انخفاض الحموضة يساعد على زيادة الامتصاص)، ووجود فيتامين D، نسبة الكالسيوم إلى الفوسفور في الغذاء، نسبة الدهون في الغذاء (زيادة الدهون تعوق الامتصاص)، ويعوق الامتصاص أيضاً وجود زيادة من عناصر معدنية أخرى مثل الحديد والألمونيوم والمنجنيز.

ولا يستطيع الجسم تصنيع الكالسيوم، إذ إن مجرد وجود جزيئات بسيطة يعدّ مسألة حياة أو موت، حيث إن الخالق - جل علاه - الذي أتقن كل شيء لم يترك هذا الأمر يخضع لميول الإنسان ورغباته في تناول الطعام. *إنهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً*. **الأحزاب**:٧٢. أو إلى الظروف البيئية المحيطة به؛ لذلك فقد أودع سبحانه وتعالى في جسم الإنسان جهازاً منظماً أو (ثرموستات) لمستوى الكالسيوم في الدم يسمى الغدة الجار درقية PARATHY-ROID GLAND تحس بمستوى الكالسيوم في الدم والسائل المحيط بالخلايا، فإذا ما أحست بانخفاضه، فإنها تقوم بإفراز هرمون PARATHOR-MONE(PTH) المسؤول عن إعادة الكالسيوم إلى مستواه الطبيعي ١٠ملجم/١٠٠مل من خلال الأنسجة والأعضاء التالية:

- **العظام** BONES: يقوم الهرمون بسحب بعض الكالسيوم من بنك العظام عن طريق تنشيط خلايا OSTEO-CLASTS المسؤولة عن هدم العظام BONE RESORPTION، وإطلاق الكالسيوم في الدم.
- **الأمعاء** INTESTINE: يزيد من امتصاص الكالسيوم بطريقة غير مباشرة عن طريق زيادة فيتامين D.
- **الكلى** KIDNEYS: يؤدي إلى إعادة امتصاص الكالسيوم REABSORP-TION وتقليل إفرازه في البول.

ومن ناحية أخرى، فإنه إذا ارتفع مستوى الكالسيوم في الدم عن المعدل الطبيعي، فإن هناك خلايا معينة تسمى خلايا C في الغدة الدرقية THYROID GLAND تحس بذلك وتقوم بإفراز هرمون الكالسيتونين CALCITIONIN المسؤول عن خفض مستوى الكالسيوم في الدم؛ وذلك بتثبيط الخلايا المسؤولة عن هدم العظام OSTEOCLASTS وزيادة معدل ترسيب الكالسيوم في العظام. هذا النظام الرباني الهدف منه المحافظة على ما يعرف بـHOMEOSTASIS أو الاتزان، ويطبق بطريقة أو بأخرى على أنظمة الجسم جميعها في حدود معينة تختلف من نوع إلى آخر، *وكلُّ شيء عندَه بمقدار*. **الرعد**:٨.



الهامبورجر قد يسبب انحرافا في ميزان الكالسيوم

أما فيتامين D فلأهميته في تكوين العظام فقد ميّزه الله دون غيره من الفيتامينات بخاصية فريدة، وهي أنه بالإضافة إلى إمكان الحصول عليه من الطعام (السردين - الزبدة - البيض وغيرها)، يمكن أيضاً تصنيعه في الجسم بمجرد التعرض لأشعة الشمس إذ تقوم الأشعة فوق البنفسجية UV بتكوينه في الجلد من الكوليسترول.

الاحتياجات من الكالسيوم

الاحتياج اليومي من الكالسيوم RDA يبلغ نحو ٨٠٠ ملجم في العمر من ١ إلى ١٠ سنوات، و ١٢٠٠ ملجم في العمر من ١١ إلى ١٨ عاماً، و ١٠٠٠ ملجم

للبالغين، و ١٥٠٠ ملجم للسيدات بعد انقطاع الحيض والمسنات. وتجدر الإشارة إلى أن معظم الأفراد لا يتناولون الاحتياجات الموصى بها، ففي أمريكا أوضحت تقارير المؤسسة الدولية لمرض هشاشة العظام NATIONAL OSTEO-POROSIS FOUNDATION أن المرأة تستهلك في المتوسط ٣٠٠ إلى ٥٠٠ ملجم من الكالسيوم يومياً، وهذا يبلغ ٣/١ إلى ٢/١ ما تحتاج إليه. وطبقاً لتقرير USDA لم تحصل أي مجموعة عمرية من الإناث على أكثر من ٧٥٪ من الاحتياجات الموصى بها. والأسوأ من ذلك أن الإناث التي تراوح أعمارهن من ١٢ إلى ٢٩ عاماً كانت أقل الفئات في تناول الكالسيوم مع أنهن في فترة من العمر يحدث فيها أقصى تطور ونمو في كتلة العظام. وتُعدّ فترتا الحمل والرضاعة من الفترات الحرجة التي تزداد فيها احتياجات المرأة من الكالسيوم، ففي الأشهر الثلاثة الأخيرة من الحمل يحتاج كل ١كجم من وزن الجنين إلى نحو ١٢٥ملجم كالسيوم يومياً، يسحبها الجنين من عظام الأم إذا لم تتناول كميات كافية من الكالسيوم. وفي فترة الرضاعة، يؤدي نقص الكالسيوم في غذاء الأم - بالإضافة إلى هشاشة العظام - إلى نقص لبن الرضاعة، ثم تأخر نمو الرضيع وتدهور صحته. وفي الأبقار يؤدي نقص الكالسيوم في الغذاء إلى إصابتها بعد الولادة بما يعرف بحمى اللبن MILK FEVER.

ويعتقد أيضاً بأن نقص الكالسيوم في الغذاء يؤدي إلى الشعور بالاكتئاب والإحباط وكثير من الأمراض النفسية المنتشرة في العصر الحديث، لما له من تأثير في الجهاز العصبي.

ومن المعروف أن الكالسيوم من العناصر التي يصعب امتصاصها على الرغم من وجود عدد من العوامل المساعدة. فالشخص البالغ يمتص من ٢٠ إلى ٣٠٪ من الكمية التي يتناولها، ويخرج الباقي مع البراز، والجزء الذي يمتص يتم إفراز كمية منه في البول. ويقل الامتصاص بتقدم العمر.

نقص الكالسيوم وهشاشة العظام

وقد وجد الدكتور فيليمير ماتكوفيش VELIMIR MATKOVICH في دراسة قام بها في كلية الطب بجامعة واشنطن أن الفتيات المراهقات اللاتي تناولن كالسيوم بكثرة احتفظن بنسبة في أجسامهن أكبر من أقرانّهن اللائي تناولن كالسيوم أقل. فهذا شيء لا يمكن حدوثه في أواخر العمر، فعند عمر ٣٥ فأكثر نبدأ جميعاً في فقد عظام أكثر مما نبني حتى إذا لم يكن الجسم قد وصل بعد إلى قمة التكوين PEAK BONE MASS. وقد أعلن الدكتور روبرت هيني ROBERT HEA-NEY في عام ١٩٨٢م، وهو باحث مرموق في جامعة كرايتون CREIGH-TON UNIVERSITY في أوماها OMA-HA التي تعد العاصمة الأكاديمية لدراسات امتصاص الكالسيوم بالولايات المتحدة، أعلن في مؤتمر صحفي للجمعية الأمريكية لأبحاث العظام والمعادن نتيجة بحث أجراه على مئتي راهبة في منتصف العمر، واستغرق خمسة عشر عاماً، فقال: الراهبات اللائي تناولن غذاءً فقيراً في الكالسيوم كن يخرجن EXCRETING كمية من الكالسيوم أكثر من التي يتناولنها، مما أدى إلى ضعف كثافة العظام لديهن ومن ثم سيصبحن عرضة للإصابة بمرض هشاشة العظام في الكبر. أما الراهبات اللائي تناولن كميات كافية من الكالسيوم في غذائهن، فكانت



ممارسة الرياضة تساعد على الاحتفاظ بالكالسيوم وبناء العظام

عظامهن سليمة وعالية الكثافة. ومع أن الرجال يتناولون من الكالسيوم أكثر مما تتناوله النساء، إلا أن الدراسات أوضحت أن ما يقرب من ثلثي الرجال فقط هم الذين يأخذون الاحتياجات الموصى بها RDA.

والكالسيوم لا يستطيع اختراق غشاء الخلية من دون مساعدة مواد أخرى. مثل فيتامين D وهو المفتاح الذي يفتح له الباب، أما الماغنسيوم فيؤدي دوراً حاسماً في نقل الكالسيوم من الدم إلى العظام. ويقوم اللاكتوز بدور مساعد في امتصاص الكالسيوم، وإليه ترجع أهمية اللبن والمنتجات اللبنية المحتوية على اللاكتوز الذي يعد مصدراً جيداً للكالسيوم.

اللبن يتفوق على اللحم

ويحتوي اللبن أيضاً على عدد من المواد التي تساعد على امتصاص الكالسيوم، مثل فيتامين D والبروتين العالي القيمة الحيوية. ومن الصعب جداً تلبية الاحتياجات اليومية من الكالسيوم دون استخدام اللبن ومنتجاته، فاللتر الواحد من اللبن الجاموسي يحتوي على نحو ٢٥ر١ جرام كالسيوم، بينما يحتوي الكيلو جرام من اللحم الأحمر على نحو ١٥٠ إلى ٢٠٠ ملليجرام فقط، ولذلك فإنه يمكن الحصول على الكميات الموصى بها يومياً من الكالسيوم (١جم) من أقل من لتر من اللبن، بينما يحتاج الأمر إلى تناول أكثر من ٦ كجم من اللحوم الحمراء أو ٣٠ بيضة تقريباً. من هنا فإن اللبن يعدّ أفضل مصادر الكالسيوم على الإطلاق وأكفأها وأرخصها.

ولكن المشكلة حالياً أن اللبن ومنتجاته أصبحت لا تحظى بشعبية كبيرة لدى المراهقين أو الشباب، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الكثير من الفتيات يتبعن نظاماً غذائياً صارماً يفرض عليهن عدم تناول المزيد من السعرات الحرارية.

ومن ناحية أخرى فإن ازدياد صناعة المرطبات والمشروبات غير اللبنية وإعلاناتها المغرية يدفع الشباب إلى استهلاك هذه الأنواع من المشروبات على حساب اللبن الذي يعدّونه مشروباً طفولياً.

وهناك بعض المواد مثل الصوديوم والألياف والفيتات PHYTATES (توجد في بعض المواد العالية في الألياف مثل الردة) ترتبط بالكالسيوم وتعوق امتصاصه أو تسبب إفرازه بكمية كبيرة، وينتج من ذلك ما يعرف بميزان الكالسيوم السالب NEGATIVE CALCIUM BALANCE، وللحصول على

نقص الكالسيوم في الغذاء يؤدي إلى الشعور بالاكتئاب والإحباط وكثير من الأمراض النفسية

ميزان كالسيوم موجب POSITIVE CALCIUM BALANCE يجب توافر شرطين: تناول كميات كافية من الكالسيوم، ومنع الكالسيوم من الخروج.

وتعد القهوة إحدى المواد المتهمة بتسريب الكالسيوم من عظامنا، ففي خلال ساعات قلائل من تناول فنجان من القهوة يقوم الجسم بإخراج كالسيوم في البول بكمية أكبر من المعتاد، ومع ذلك لا يعتقد عدد من الباحثين في تأثير ذلك في من يتناولون كميات كافية من الكالسيوم بانتظام. وتشير إحدى الدراسات الحديثة التي أجراها الدكتور روبرت هيني في جامعة أوماها إلى أن تناول فنجان واحد من القهوة يؤدي إلى فقد ٣ملجم من الكالسيوم من الجسم، وهذا أكثر مما يمكن تعويضه بعدة ملاعق كبيرة من اللبن أو أي مصدر آخر مماثل. وفي دراسة أخرى ثبت أن تناول القهوة باعتدال لا يقلل من كثافة العظام بشرط تناول ولو كوباً واحداً من اللبن بصفة منتظمة طوال الحياة. أما الألياف والفيتات FIBER AND PHYTATES فهي تمثل مشكلة فقط بالنسبة إلى من يتناولون كميات أكثر من الموصى بها RDA.

وعلى الرغم من الاعتقاد السائد بأهمية الوجبات السريعة مثل الهامبورجر في الحصول على الكالسيوم فإن الدكتور هيني يحذر من خطورتها على الصحة بسبب احتوائها على كمية من الصوديوم والبروتين تسبب انحرافاً سالباً في ميزان الكالسيوم مقداره ٢٨ ملجم لكل قطعة هامبورجر، ولكن لا تشغل بالك بتلك المليجرامات القليلة، وركز على الأرقام الكبيرة التي تراوح بين ١٠٠٠، و ١٥٠٠مجم.

حقائق واستراتيجيات

بعض الاستراتيجيات والحقائق التي ثبتت فعالياتها هي:

- فيتامين D ضروري ليس لامتصاص الكالسيوم من القناة الهضمية فقط، ولكن لترسيبه في العظام أيضاً. يقول الدكتورسيدريك جارلاند CEDRIC F. GARLAND بكلية الطب في جامعة كاليفورنيا في سان دياجو: إن هناك نقصاً مستمراً في فيتامين D عند جميع البالغين على المستويات كافة بسبب ابتعادنا عن الشمس أكثر من ذي قبل. والكميات المطلوبة يوميا من فيتامين D نحو ٤٠٠ وحدة دولية يتم الحصول عليها من ربع جالون QUART من اللبن المدعم بفيتامين D، والمصادر الأخرى الغنية بفيتامين D

تشـمل صـفـار البيض والتـونة والسـالمون، ويجب الحـذر من تناول كميات من الفيتامين تجاوز ١٢٠٠ وحدة دولية يوميًا حيث تحدث نتيجة عكسية.

ـ حاول أن تحصل على الكمية المطلوبة من الكالسيوم (١٠٠٠ إلى ١٥٠٠ ملجم يوميًا) من خليط من الأغذية العادية، وإذا لم تجد فمن الأغذية المدعمة بالكالسيوم، وكقاعدة عامة فإنه عندما يرتفع مستوى الكالسيوم في الأغذية التي تتناولها فإن ذلك معناه ارتفاع مستوى تغذيتك عمومًا. وقد أثبتت إيليس سوسين ELYSE SOSIN المشرفة على قسم التغذية الإكلينيكية في مركز جبل سينا الطبي MOUNT SI-NAI MEDICAL CENTER في مدينة نيويورك من نتائج تحليل غذاء الأفراد أن نقص الكالسيوم في الغذاء كان مصحوبًا بنقص عناصر أخرى مثل الماغنيسيوم والزنك وفيتامين B6. وفي دراسة أخرى نشرت في مجلة التغذية JOURNAL OF NUTRITION عام ١٩٩٤م وجد أن تناول الأغذية المرتفعة في محتواها من الكالسيوم، مثل منتجات الألبان يؤدي إلى رفع مستوى بعض المواد الحيوية الأخرى، مثل فيتامينات A وB. وتنصح إيليس سوسين وغيرها بعدم الاعتماد كليًا على الأغذية المدعمة بالكالسيوم خشية احتوائها على مستويات مرتفعة من السكر بالإضافة إلى أنها تعطي إيحاءً للناس بأنهم يتناولون غذاءً صحيًا والواقع غير ذلك. أما الدكتور هيني فيشير إلى الدور الذي تؤديه الأغذية المدعمة FORTIFIED FOODS في تحسين صحة المواطن الأمريكي، ويأمل أن تزداد أنواعها الموجودة بالأسواق حتى تقوم بدور فعال في الوقاية من مرض هشاشة العظام، مثلما قام الملح المدعم باليود IODIZED SALT بدور فعال في الوقاية من مرض الجويتر GOITER.



يصعب من غير اللبن الحصول على احتياجات الجسم من الكالسيوم

ـ لضمان الامتصاص الأمثل للكالسيوم حاول أن توزع على مدار اليوم الكميات التي تتناولها منه، وادّخر آخر جرعة لوقت النوم BEDTIME ـ يعتقد أن معظم الفقد يحدث في أثناء النوم ـ تناول كوبًا من اللبن مع مشروب مغذ أيهما تفضل.

ـ ممارسة التمرينات الرياضية ـ خصوصًا تلك التي تضيف ثقلاً على العظام ـ تؤدي إلى الاحتفاظ بالكالسيوم وبناء العظام. فإذا ما أهملت الرياضة فإن الكالسيوم سيهرب من عظامك بمرور الزمن بصرف النظر عن الكميات التي تتناولها. وهناك عدد من الرياضات التي تقوم بهذا الدور اختر منها ما شئت: المشي، الجري، التنس، رفع الأثقال. أما السباحة فقد لا تؤدي الغرض نفسه لأنها لا تضع ثقلاً على الطعام.

ـ إذا كنت تناولت هرمونات الغدة الدرقية أو الإسترويدات THYROID HORMONES OR STEROIDS فاستشر طبيبك لأن هذه المواد ربما تعوق امتصاص الكالسيوم بالجسم أو احتجازه.

ـ اعرف أنه لم يفت الأوان بعد IT'S NOT TOO LATE لتنظيم تناولك للكالسيوم حتى إن كنت لم تتناول كوبًا واحدًا من اللبن على مدى عشرين عامًا، فقد ثبت أن الكالسيوم يوقف أو يبطئ من تدهور العظام في ١٦ من مجموع ١٩ دراسة أجريت حديثًا. وعلى حد قول الدكتور شارلز باك CHARLES PAK في دالاس بولاية تكساس إن النساء المصابات بمرض هشاشة العظام OSTEOPOROSIS يمكنهن تصحيح التلف الحادث في العظام بتناول خليط من ٤٠٠ ملجم من سترات الكالسيوم مع ٢٥ ملجم من فلوريد الصوديوم البطيء التحلل.

إن استعمال هذا العلاج مدة ١٤ شهرًا يؤدي إلى زيادة كتلة عظام العمود الفقري بمقدار ٥٪، لذلك فإن الوقت المناسب لتناول مزيد من الكالسيوم هو الآن ـ وليس غدًا ـ مهما كان سنك.

امتصاص الكالسيوم

وأخيرًا فإنه يمكن تقسيم المواد حسب علاقتها بامتصاص الكالسيوم أو المحافظة عليه داخل الجسم قسمين:

أولاً: مواد تزيد من مستوى الكالسيوم في الجسم CALCIUM BOOSTERS: إذا كان من الصعب

عليك تناول الكالسيوم في غذائك فيمكنك الحصول عليه بتناوله في أي من الصور الكيماوية التالية: CALCIUM SUPPLE-MENTS:

- كربونات الكالسيوم CALCIUM CARBONATE: وهي المادة الشائعة الاستخدام؛ لأنها تحتوي على أكبر نسبة من عنصر الكالسيوم ٤٠٪، ولكن ينبغي عدم تناولها على معدة خالية حتى لا تسبب إمساكاً أو غازات.

- سترات الكالسيوم CALCIUM CITRATE: تحتوي على ٢٤٪ كالسيوم، ولذلك فإنك تحتاج إلى ضعف الكمية تقريباً موازنة بالكربونات، ولكنها تتميز من الأخيرة بسهولة الامتصاص، ويمكن أخذها على معدة خالية دون حدوث مشكلات هضمية.

- لاكتات الكالسيوم CALCIUM LACTATE: تحتوي على ١٣٪ كالسيوم فقط، وتمتاز بسهولة الامتصاص، وتعطى بين الوجبات، ولكن يجب ألا تعطى للذين لا يتحملون شرب اللبن.

ويجب عند أخذ هذه الكيماويات اتباع الآتي:

- شرب كمية كبيرة من السوائل (٦ - ٨ أكواب يومياً).

- تجنب تناول كيماويات من مصدر غير موثوق.

- تجنب المواد التي تحتوي على مسحوق عظام أو مسحوق رخام فقد تحتوي على مواد سامة أو رصاص.

- تجنب المواد التي تحتوي على أصداف المحار OYSTER SHELL بسبب ارتفاع تكلفتها.

- اقرأ الإرشادات المدونة على العلبة لتعرف الجرعة المناسبة لك وطريقة تناولها.

- حاول أن تحصل على مقادير كافية من الفوسفور والماغنسيوم وفيتامين D، فبعض الأقراص تحتوي على خليط من هذه المواد.

ثانياً: مواد تعوق امتصاص الكالسيوم أو تؤدي إلى طرده من الجسم CALCIUM BUSTERS:

- النيكوتين NICOTINE: يؤدي التدخين (النيكوتين) إلى زيادة معدل فقد العظام، ويسبب الإصابة بمرض هشاشة العظام.

- الكحول: ALCOHOL: تعاطي الكحوليات لا يؤدي إلى إعاقة امتصاص الكالسيوم من القناة الهضمية فقط بل يؤدي إلى تسمم الخلايا التي تكون العظام. *فاجتنبوه لعلكم تفلحون*. **المائدة:٩٠**.

اللبن أفضل مصادر الكالسيوم على الإطلاق وأكفؤها وأرخصها، ولكن الشباب يعدونه مشروباً طفولياً

- الكافئين CAFFEINE: إذا كنت تتناول كميات كافية من الكالسيوم فإن تناول القهوة باعتدال لا يضر، أما بالنسبة إلى النساء اللائي لا يتناولن اللبن فإن مجرد شرب فنجانين من القهوة يومياً بعد انقطاع الدورة يؤدي إلى إصابتهن بمرض هشاشة العظام.

- الألمنيوم ALUMINUM: مضادات الحموضة التي تحتوي على الألمنيوم تزيد من معدل تحلل الكالسيوم وفقده من العظام.

- كثرة الصوديوم والبروتين SODI-UM & PROTEN: الاعتدال في تناول المرطبات أو المأكولات التي تحتوي على الصوديوم والبروتين لا يضر، ولكن الإفراط في تناولها يأتي بنتيجة عكسية.

- الأوكسالات OXALATES: توجد الأوكسالات في بعض المواد مثل السبانخ والبنجر بنسب مرتفعة فترتبط بالكالسيوم الموجود بها وتعوق امتصاصه، ولكنها في الوقت نفسه لا تعوق امتصاص الكالسيوم الموجود بالمواد الأخرى، فلا تعتمد على هذه المواد في الحصول على احتياجاتك من الكالسيوم.

والخلاصة أن اللبن هو البديل الأمثل والوحيد لحصولك على احتياجاتك واحتياجات أطفالك من الكالسيوم ولوقايتك من هشاشة العظام التي تهدد حياة ملايين البشر - ٢٥ مليوناً في أمريكا وحدها -. *نُسقيكُمْ ممّا في بُطونه من بين فَرْث ودَم لَبَنًا خالصًا سائغًا للشاربين*. **النحل:٦٦**.

المراجع

1 - ALLEN, L.H. 1986. CALCIUM AND OSTEOPOROSIS. NUTRITION TODAY, MAY/JUN, PP. 6 - 10. BALTIMORE, MD.
2- MANN, P.1989.THE TRUTH ABOUT CALCIUM. READER'S DIGEST, MARCH, PP. 70-74 PLEASANTVILLE, NY.
3 - MAYNARD, L.A., LOOSLI, J.K, HINTZ, H.F. AND WARNER, R.G.1979. ANIMAL NUTRITION. MC - GRAW - HILL BOOK CO. NEW YORK.
4- RHOADES, R. AND PFLANZER, R. 1989. HUMAN PHYSIOLOGY, SAUNDERS COLLEGE PUBLISHING, PHILADELPHIA.
5 - WEIN, B. 1994. CALCIUM: THE MIRACLE MINERAL. SELF, AUGUST, PP. 98 - 101. NEW YOURK NY.

هل يصوم مريض القلب في شهر رمضان؟

حسان شمسي باشا

لا شك أن في الصيام فائدة عظيمة لكثير من مرضى القلب، لأن عشرة في المئة من كمية الدم التي يدفع بها القلب إلى الجسم تذهب إلى الجهاز الهضمي في أثناء عملية الهضم، وتنخفض هذه الكمية في أثناء الصوم حيث لا توجد عملية هضم خلال النهار. مما يعني جهداً أقل لعضلة القلب، وراحة أكبر للجسم. وقد رخَّص الله تعالى للمريض الإفطار في هذا الشهر المبارك فقال: *فَمَنْ كانَ منكم مريضاً أو على سَفَرٍ فَعِدَّةٌ من أيامٍ أُخَر*. **البقرة**: ١٨٤. فعلى المريض أن يستشير الطبيب المختص المسلم، فهو الذي يقرر له إذا كان يستطيع الصوم أم لا. وأكثر أمراض القلب شيوعاً هي ارتفاع ضغط الدم، وقصور (هبوط القلب)، والذبحة الصدرية، وأمراض صمام القلب الروماتيزمية. وسنستعرض بعض الإرشادات العامة التي تتعلق بالصوم في تلك الحالات.

ارتفاع ضغط الدم

ارتفاع ضغط الدم مرض شائع في معظم أنحاء العالم. ولا يسبب عادة أي أعراض، إلا أن الارتفاع الشديد في ضغط الدم يمكن أن يؤدي إلى الصداع، وضيق النفس، والدوخة، واضطراب البصر.

والحقيقة أن الصيام يفيد في علاج ارتفاع ضغط الدم. فإنقاص الوزن الذي يرافق الصيام يخفض ضغط الدم بصورة ملحوظة، كما أن الرياضة البدنية من صلاة تراويح وتهجد وغيرها تفيد في خفض ضغط الدم المرتفع.

فإذا كان ضغط الدم مسيطراً عليه بالدواء، فيمكن للمريض الصوم، شريطة أن يتناول أدويته بانتظام. ولحسن الحظ فإن معظم أدوية ضغط الدم يمكن إعطاؤها مرة أو مرتين في اليوم؛ فإذا كان يتناول وجبتين في اليوم، أعطي واحدة عند السحور، وأخرى عند الإفطار. ويوصى دوماً بتأخير السحور عملاً بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال أمتي بخير ما عجّلوا الإفطار وأخّروا السحور»، ولأن تناول الدواء قبل الفجر مباشرة يحافظ على تأثير الدواء فترة أطول خلال النهار.

وعلى المريض الذي يتناول ثلاث حبات في اليوم مراجعة طبيبه المعالج، فقد يستطيع تغيير العلاج بما يتلاءم مع فترة الصوم.

وينصح مرضى ارتفاع ضغط الدم بالإقلال من ملح الطعام، وتجنب الموالح. وإذا ما شكا المريض من صداع شديد فعليه مراجعة طبيبه للتأكد من عدم وجود ارتفاع شديد في الضغط.

الذبحة الصدرية وجلطة القلب

تنجم الذبحة الصدرية عادة عن تَضَيُّق في الشرايين التاجية المغذية لعضلة القلب. ويشكو المصاب بها عادة من ألم في وسط الصدر ينتشر إلى الكتف الأيسر والذراع الأيسر. ويحدث الألم عادة عند الجهد، ويزول بالتوقف عن الجهد أو بتناول حبوب النيتوغليسرين تحت اللسان.

ولحسن الحظ أيضاً فإن معظم أدوية الذبحة الصدرية تعطى مرة أو مرتين في اليوم. وهناك مركبات دوائية طويلة الأمد من «الدلتيازم» أو «الأدالات» وغيرها. وأما موسعات الشرايين القلبية فتعطى عادة مرتين يومياً كمركبات الأيزورديل أو «إيزمو»، فيمكن تناولها عند السحور وعند الإفطار.

وينصح المصابون بالذبحة الصدرية غير المستقرة، أو الذين يحتاجون إلى تناول حبوب النيتروغليسرين تحت اللسان بعدم الصوم. كما لا ينصح المرضى الذين أصيبوا حديثاً بجلطة في القلب بالصيام، ما لم يتماثل المريض للشفاء ويعود لحياته الطبيعية. ويقرر الطبيب المتخصص المسلم خطة العلاج في تلك الحالات.

قصور (هبوط القلب)

يحدث هبوط القلب (فشل القلب) عندما لا يستطيع القلب القيام بوظيفته في ضخ الدم إلى الجسم على الوجه المطلوب.

ويشكو المصابون بهذه الحالة عادة من ضيق النفس في أثناء الراحة. كما قد تحدث وذمة (انتفاخ) في الساقين. وينصح المرضى المصابون بقصور حاد في القلب بعدم الصيام. أما إذا كان وضع المريض مستقراً بجرعات صغيرة من المدرات البولية والديجوكسين والكابوتين مثلاً، فقد يمكنه الصوم. وتنبغي استشارة الطبيب المختص، فإن إمكان الصيام يعتمد على شدة المرض، وكمية المدرات البولية التي يتناولها المريض. وينصح المرضى في هذه الحالات بالإقلال من ملح الطعام.

مرضى صمّامات القلب الروماتيزمية

تنشأ أمراض صمامات القلب عادة عن إصابة هذه الصمامات بالحمى الروماتيزمية في فترة الطفولة. وأكثر الصمّامات القلبية إصابة هي الصمام التاجي (الميترالي) والصمام الأبهري (الأورطي).

فإذا كانت حالة المريض مستقرة، ولا يشكو من أي أعراض أمكنه الصوم. أما إذا كان المريض يشكو من ضيق النفس ويحتاج إلى تناول العلاج خلال النهار (كالمدرات البولية) فينصح بعدم الصوم، وبخاصة إذا كانت حالة المريض متقدمة. ويعتمد ذلك على تقويم الطبيب لحالة المريض.

عمليات القلب الجراحية

ينصح المرضى الذين أجريت لهم عملية جراحية في القلب بعدم الصوم خلال الأسابيع الستة الأولى التي تعقب العملية الجراحية. أما إذا ترافقت العملية باختلاطات أخرى، وكان المريض يشكو من ضيق النفس أو الألم الصدري، فقد ينصح بعدم الصوم فترة أطول بعد العملية. ويعتمد ذلك على نصيحة الطبيب الجراح.

هل يؤثر الصيام في استعمال مسيلات الدم (مميعات الدم)؟

كثير من مرضى القلب يُعْطَون مسيلات (مميعات) الدم كالوارفرين مثلاً، ويحتاج استعمال هذا الدواء إلى مراقبة شديدة لمستوى سيولة الدم، وذلك بإجراء فحص دم (زمن البروثرمبين) من حين إلى آخر.

وقد أظهرت الدراسات الحديثة أن صيام رمضان لا يؤثر سلبياً في نسبة سيولة الدم، أو في نسبة حدوث تجلط الدم.

الخلاصة

ينصح بعدم الصوم عند مجموعة من مرضى القلب، وهؤلاء هم:

- المرضى المصابون بجلطة حديثة في القلب.
- المصابون بالذبحة الصدرية غير المستقرة، أو غير المستجيبة للعلاج.
- المصابون بقصور حاد في القلب.
- التهاب شغاف القلب.
- الاضطرابات الخطيرة في نظم القلب.
- التضيق أو القصور الشديد في صمامات القلب.
- الحمى الروماتيزمية النشطة.
- مرضى عمليات جراحة القلب (خلال الأسابيع الستة التي تلي العملية الجراحية).

ومرة أخرى ينبغي تذكير مرضى القلب بضرورة تناول علاجهم بانتظام،



العلاج المنتظم وعدم الإسراف في تناول الطعام نصيحتان لمريض القلب

وعدم الإسراف في تناول الطعام والشراب، وتجنب الدهنيات والحلويات، والإقلال من ملح الطعام، وتأخير السحور.

وينصح هؤلاء المرضى باستشارة الطبيب لكونه أدرى بحالهم؛ فإن أوصى المريض بالصيام جعل له مواعيد الأدوية المستخدمة بطريقة تتناسب مع وقت الصيام.

وليتق الله أولئك المرضى الذين يوصيهم طبيبهم المختص المسلم بعدم الصيام وألا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة. فما على المريض من حرج، والله يحب أن تُؤتَى رُخَصُه، إنه هو اللطيف الخبير.

حكمة الفطور على التمور[1]

صلاح حسين شهاب الدين

التمر هو ثمرة تلك الشجرة الباسقة في علياء السماء، والضاربة بجذورها في باطن الأرض، وهي الشجرة التي حن جذعها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فارقه عندما صنع له المنبر، وهي الشجرة التي نزلت تحتها السيدة مريم البتول لما ولدت سيدنا عيسى عليه السلام، وهي الشجرة التي تشبه المسلم في كثرة خيرها واستقامتها ودوام ظلها وطيب ثمرها ووجوده على الدوام.

والتمر طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم عند فطره. عن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر على رطبات قبل أن يصلي فإن لم تكن رطبات فتمرات فإن لم تكن تمرات حسا حسوات من الماء» رواه أبو داود والترمذي. وكان صلى الله عليه وسلم يحض على الفطر على التمر، فإن لم يجد فعلى الماء.

روى الطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر، فإنه بركة فمن لم يستطع فعليه بالماء». وهنا نأتي إلى سؤال يطرح نفسه. ما الحكمة في إفطار رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحضه على الإفطار على التمر؟

خصائص التمر

يقول ابن القيم (ت:٧٥١هـ) في زاد المعاد: «التمر مقوٍّ للكبد، ملين للطبع، يزيد في الباه، ولا سيما مع حب الصنوبر، ويبرئ من خشونة الحلق.. وهو من أكثر الثمار تغذية للبدن بما فيه من الجوهر الحار الرطب، وأكله على الريق يقتل الدود، فإنه مع حرارته، فيه قوة ترياقية، فإذا أُديم استعماله على الريق خفف مادة الدود وأضعفه أو قلله أو قتله، وهو فاكهة وغذاء ودواء وشراب وحلوى(١). وهو غني بالمادة السكرية، وهي في صورة سهلة الهضم والامتصاص والتمثيل بالجسم».

ويقول العلامة داود الأنطاكي (ت:١٠٠٨هـ) في تذكرته عن البلح: «أجوده الأخضر المشرب بالحمرة، الرقيق الصغير النوى، القابض لعضل اللسان بحلاوة، وهو يقوي المعدة والكبد، ويقطع الإسهال المزمن والقيء الصفراوي وإدرار البول، ويطيب العرق، ويشد العصب المسترخي». ونقل الصقلي: أن إدمانه يقطع الجذام، وماؤه «عصيره» إذا طبخ مع ماء الحصرم حتى يغلظ كان في قطع الدمعة (سقوط الدموع من العين دون إدرار) والجرب (خشونة الجفن واحمراره) والسلوق (التهاب الجفن) لا يعادله شيء مجرب. كما أنه من أهم العوامل المساعدة للمرأة في أثناء الولادة بدليل قوله تعالى: *وهُزِّي إليكِ بجذْعِ النخلة تساقطْ عليكِ رُطَبًا جنيا*. مريم: ٢٥.(٢).

والبلح يقطع البلغم خصوصًا إذا أكل على الريق، وهو يصلح أوجاع الظهر، ويقوي الكلى الضعيفة، وإذا غُلي مع الحلبة وشرب فإنه يقطع الحمى البلغمية.

وللبلح صفة مهدئة للأعصاب القلقة المضطربة، وكذلك للمزاج العصبي الذي يتأثر بإفرازات الغدة الدرقية التي توجد في مقدمة العنق، والبلح بهذه الخاصية يفيد الأطفال الذين لهم طبيعة قلقة غير مستقرة، وبعض تمرات من البلح في الصباح كل يوم كفيل بإضفاء السكينة والهدوء على نفوسهم(٣).

كما أنه مفيد في الحفظ من السم والسحر لحديث سعد بن أبي وقاص مرفوعًا: «من تصبح بسبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر». رواه البخاري ومسلم.

وفي رواية لمسلم: «من أكل سبع تمرات مما بين لابتيها لم يضره سم حتى يمسي».

وللتمر خصائص كثيرة لا تعد ولا تحصى، ويمكن الرجوع إليها في الكتب المشار إليها في نهاية هذا المقال، وغيرها من الكتب المتخصصة في هذا الموضوع.

القيمة الغذائية للتمر

يعدُّ التمر منجمًا لغنائه بالمعادن التي تعدّ مادة أساسية وضرورية لجسم الإنسان، إذ يحتوي على كثير من المعادن مثل أملاح البوتاسيوم والصوديوم والكالسيوم والمنجنيز والحديد والنحاس والفوسفور

والكبريت والكلور والزنك والفلورين(٤).

فالمعادن تدخل في تركيب بعض الأنسجة الجسمانية؛ فالحديد مثلاً يدخل في تركيب كريات الدم الحمراء، والمعادن تدخل في تركيب الأجزاء الصلبة في الجسم كالعظام والأسنان، وكذلك يتحد بعض المعادن مع البروتينات أو الكربوهيدرات أو مواد أخرى لتكوين بعض الأنزيمات الضرورية لإتمام العمليات الحيوية في الجسم، أو لتكوين بعض الأنسجة. وتنظم الضغط النفوذي في الجسم، وتؤدي دوراً مهماً في انقباض العضلات وانبساطها والتعادل الحمضي والقاعدي في الجسم.

وعند فقد الجسم لهذه المعادن يتعرض للأمراض المؤذية، كما توجد بالتمر مجموعة فيتامينات ب١، ب٢، ب١١، هـ، وكاروتين «فيتامين أ» وفيتامين ب ب، وهذه لازمة لجسم الإنسان ومن دونها ينهار الأداء الوظيفي لأعضائه، ويهلك الإنسان(٥).

فالتمر صيدلية قائمة بذاتها. وخلاصة ما يقال عن التمر: أنه مفيد للجميع، لما يحتوي عليه من المعادن والفيتامينات إلى جانب البروتينات.

ومن الطبيعي أن التمر يحتوي على آثار قليلة من الدهن ومن الصوديوم، ويخلو تماماً من الكوليسترول، وكلها صفات تدعم فائدته الغذائية للجسم، وتفسر الاهتمام الحالي به كمادة غذائية في قائمة الوجبات الصحية في دول كثيرة من العالم. فبالإضافة إلى منتجات التمر من الفطائر والمربى والزبدة في أمريكا توجد فطائر مختلفة من التمر (كما في السعودية وتركيا)، وكعك بالتمر (كما في سورية وتركيا)، وكيك بالتمر (كما في الخليج)، واللحم المطبوخ بالتمر (كما في المغرب)، والتمر بالجبن (كما في السعودية)، وفيه يدعم الجبن الجسم بكمية من البروتين الحيواني غير المتوافر أصلاً في التمر مما يزيد من فائدته الغذائية ووجبة التمرية (كما في السعودية)، والتي تحقق للجسم عدة تداخلات غذائية مفيدة بسبب احتوائها على تمر ودقيق



التمر يحد من نهم الصائم ويبعث على الهمة والنشاط

وطحينة وزبدة وحبهان كفاتح للشهية، ومساعد على الهضم(٦).

أدى ارتفاع القيمة الغذائية للتمر إلى اهتمام بعض الدول المتقدمة بتحضير شراب مركز منه مفيد لجسم الإنسان.

حكمة الفطور على التمور

إذا كان التمر يحتوي على كل هذه المعادن المتقدم ذكرها، والمهمة والضرورية لجسم الإنسان فسوف ندرك الحكمة من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، «إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر فإن لم يجد فليفطر على الماء فإنه طهور» رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وندرك الحكمة من إفطار رسول الله صلى الله عليه وسلم على التمر قبل أن يصلي. فقد ورد عنه، صلى الله عليه وسلم، فيما رواه أنس، رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر قبل أن يصلي على رطبات. فإن لم تكن رطبات فتمرات فإن لم تكن تمرات حسا حسوات من الماء» رواه أبو داود والترمذي.

ذلك لأن الصوم يخلي المعدة من الغذاء، فلا تجد المعدة فيها ما تجذبه، وترسله إلى الأعضاء، ولما كان الشيء الحلو أسرع وصولاً إلى الكبد وأحب إلى المعدة - ولا سيما إذا كان رطباً - فيشتد قبوله لها، فتنتفع به، وتسارع بحرقه وإرسال الطاقة الناتجة منه إلى الأعضاء والمخ. فالثابت طبياً أن السكر والماء أول ما يحتاج إليهما جسم الصائم بعد فترة الصوم، لأن نقص السكر في الجسم يسبب ضيق الخلق، واضطراب الأعصاب. ونقص الماء في الجسم يسبب قلة مقاومته وضعفه(٧).

ولما كان التمر يحتوي على نسبة عالية من السكريات نحو ٧٠٪، ومن هذه السكريات: سكر العنب، وسكر الفواكه. ومعلوم أن هذه المواد السكرية سريعة الامتصاص، وسريعة التمثيل، ولا تحتاج إلى عمليات معقدة لتتحول إلى معادن أخرى، ثم إلى مواد سكرية

سهلة الامتصاص، كما يحدث في أثناء هضم المواد النشوية(٨). مما يؤدي إلى ارتفاع مستوى سكر الدم، فيبعث الهمة والنشاط في الجسم، ويزول الإحساس بالدوخة والكسل، كما تزول أعراض نقص السكر والعطش، فلا يحتاج إلى شرب كميات كبيرة من الماء عند الإفطار. فتظهر لنا الحكمة من الفطر على التمر.

كما أن التمر يحد من نهم الصائم وجشعه، فلا يقبل على الأكل بعجلة دون مضغ، ثم يمكن تقطيع الطعام إلى قطع صغيرة وممزوجة باللعاب والأنزيمات الهاضمة، وفي ذلك أكثر من فائدة صحية(٩).

كما أن التمر - كما قلنا - يحتوي على كمية كبيرة من عنصر البوتاسيوم، وهو عنصر لازم لتوازن كمية الماء الموزعة في خلايا الجسم وخارجها، وهو كذلك من العناصر المهمة التي توجد بتركيز داخل الخلية، ومهم في عمليات أيض الخلية وأيض العضلات والمخ والعكس، وهذه الكمية تفيد في إمداد الجسم بالبوتاسيوم في حالات نقصه، وعند نقص البروتينات، وعقب الجوع الشديد كما يحدث للصائم.

وعند تناول التمر يمد الجسم بالكمية المفقودة من البوتاسيوم، مما يعيد إلى خلايا الجسم وأنسجته

أدى ارتفاع القيمة الغذائية للتمر إلى اهتمام بعض الدول المتقدمة بتحضير شراب مركز منه مفيد لجسم الإنسان

خاصية الاحتفاظ بالماء، وانتعاش الإنسان. كما أن الصائم يفقد نحو ٨٠جراماً من البروتينات يومياً ونحو ١٦٠٠جرام من البوتاسيوم، وهو نصف الكمية اللازمة للجسم يومياً والتي يعوضها تناول التمر عند الإفطار.

وللتأثير المباشر للبوتاسيوم في العضلات غير الإرادية كالأمعاء، فإنه ينبه حركة الأمعاء لدرجة كبيرة، وينشطها لاستقبال الطعام وهضمه(١٠). لأن معدة الصائم تكون هادئة مسترخية فإذا أرهقها عند الإفطار مباشرة بالدهنيات الصعبة الهضم فسيتعبها، ويشعر بالتخمة لسوء الهضم، وتعفن في الأمعاء. فالأكل ليس بالكم بل بالنوع، ولا بملء البطون الذي يسبب التلبك وسوء الهضم(١١).

ولاحتواء التمر على نسبة مرتفعة من الألياف يعد مليناً طبيعياً يحمي من الإمساك، وما يسببه من عسر هضم، واضطرابات معوية مختلفة، بالإضافة إلى ذلك فإن الألياف تساعد على تنشيط حركة الأمعاء ومرونتها(١٢).

فلعلنا نكون قد أدركنا الحكمة من إفطار رسول الله صلى الله عليه وسلم على التمر، وحض الأمة على الإفطار عليه، وهنا نقول: ولو اقتدينا برسول الله صلى الله عليه وسلم عند فطره، وتناولنا بعض تمرات، أو حسوات من الماء ما وجد بيننا أصحاب البطون العالية الذين لا يقدرون على الحركة، ولا القيام إلا بعد جهد كبير.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: «بيت لا تمر فيه جياع أهله». رواه مسلم وغيره، أي: فقراء في قوتهم وصحتهم على عكس هؤلاء الذين يعتمدون على التمر، ولا غرابة في ذلك فقد كان العربي يعيش شهوراً، ولا يأكل إلا التمر. والعربي معروف بالصحة والعافية. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمكث ثلاثة أهلة في شهرين وطعامه وأهل بيته الأسودان التمر والماء.

ومعروف أنه صلى الله عليه وسلم كان أكمل الناس في الخلق والخليقة والصحة والعافية وتلك كانت حكمة الفطور على التمور.

المراجع

١- زاد المعاد لابن القيم جـ٤ ص٢٧٨ تحقيق أ.د/حمزة النشرتي ومن معه.
٢- تذكرة داود للعلاج بالأعشاب والوسائل الطبية للعلامة داود الأنطاكي الإشراف العلمي والإعداد د. سامي محمود ص٢٨٥ المركز العربي للنشر.
٣- المرجع السابق ص٢٨٦، ٢٨٧.
٤- الغذاء الشافي من القرآن. د. موسى الخطيب ص١١٧ الروضة للنشر والتوزيع.
٥- شجرة المعجزات التمر وفوائده الطبية - لأبي الفداء محمد عزت محمد عارف ص٣٤ - ٣٦ تهامة للتوزيع جدة.
٦- كيف تختار طعام الإفطار. د. مصطفى عبدالرازق نوفل ص٣٩، ٤٠ دار أخبار اليوم بالقاهرة.
٧- الطب النبوي للحافظ محمد بن أحمد الذهبي ص٥٧، حقق أحاديثه مجدي السيد إبراهيم، وعلق عليه، وراجعه من الناحية الطبية د. محمد كمال عبدالعزيز - مكتبة القرآن.
٨- العلاج بالتمر والرطب. م. نبيل علي عبدالسلام ص٦٣ دار الطلائع.
٩- الصيام وصحة الإنسان. د. علي أحمد الشحات ص١١١ دار المعارف.
١٠- الغذاء الشافي من القرآن ص١١٨ مرجع سابق.
١١- شجرة المعجزات ص٤١ مرجع سابق.
١٢- الصيام وصحة الإنسان ص١١٢ مرجع سابق.

عمر بن العلاء الأمير الجواد

هزاع بن عيد الشمري

هو واحد من الجيل الأخير من العسكرية الأموية، سطع نجمه في صدر الدولة العباسية، وأبلى بلاءً حسناً في قمع الثورات التي قامت ضدها، وإن لم يكن له كبير فتح يذكر، على عكس الجيلين الأول والثاني من العسكريين الأمويين الذين خاضوا حروباً ووقائع فتح مشهودة، خصوصاً في القرن الأول الهجري وأوائل القرن الثاني، إذ يُعد عصر هشام بن عبدالملك (١٠٥ - ١٢٥هـ) خاتمة الفتوح الإسلامية الخارجية.

ومهما يكن فعمر بن العلاء جندي باسل وشجاع مقدام من طراز رفيع، ذلك سجية في نفسه اشتدّ عودها وصلب من مرانٍ في المعامع ومشاهد يحجم عنها الكثير من الرجال ويتهيّبونها.

ويزداد عمر بن العلاء فحولة لكرم أخلاقه المتمثّل في جوده الفائق، وبذله اللائق في العطاء، حتى أصبح واحداً من مشاهير أجواد عصره، بل أجواد العرب الذين يشار إليهم بالبنان.. الذين يقرون الطعام، ويبذلون المال والدراهم الكثيرة للوافدين والمعتفين.

وعلى الرغم من شهرة شجاعة عمر بن العلاء وجوده، وقيادته لجيوش عباسية أيام المنصور والمهدي، واعتفاء الشعراء له، إلا أنّ الكتب ضنينة بأخباره سوى إلمامات مقتضبة وإشارات غير وافية، عدا قليل.

ومن المؤسف حقًا أن هذه المصادر قد بخلت أيضاً عن إيراد اسمه الكامل، وأصل موطنه، وأهله، ومن أي مشرب هو.

عربي المنبت والطبع

وحسب المتوافر لديّ من معلومات مرجعية فإنه: عمر بن العلاء، مولى: عمرو بن حريث، ولعله ابن حريث المخزومي، من صغار الصحابة، رضوان الله عليهم. كان جواداً مشهوراً وأميراً من الولاة في عصر الحجاج بن يوسف، وكان معه. وفي بيت شعر لأبي العتاهية، لاحق ذكره أنه: ابن القرم مرداس؛ مما يفيد أن هذه الشخصية من ذوي النباهة والجاه، ولكننا لا نعلم أهو جد أول لعمر بن العلاء أم أكثر من ذلك. وتدل قحيَّة الاسم على عربيته، مما يورد الظن أن ولاء مرداس هذا لبني مخزوم كان ولاء فتح، وقد يكون من سبي العرب. ومهما يكن فابن العلاء عربي المنبت والطبع.

وذكر البلاذري في «فتوح البلدان»: «أن عمر بن العلاء كان جزاراً من أهل الري فجمع جمعاً وقاتل «سنفاذ» حين خرج بها فأبلى ونكى، فأوفده «جهور بن مرار العجلي» على المنصور فقَوَّده وحضنه وجعل له مرتبة، ثم إنه ولي طبرستان فاستشهد بها في خلافة المهدي أمير المؤمنين».

ولايته طبرستان

وفي حوادث سنة ١٤١هـ ذكر الطبري في تاريخه أنه «لما طالت حروب المسلمين في طبرستان وجه أبو جعفر المنصور عمر بن العلاء الذي يقول فيه بشار:

فقل للخليفة إن جئته
نصيحا ولا خير في المتهم
إذا أيقظتك حروب العدا
فنبه لها عمرا ثم نم
فتى لا ينام على دمنة
ولا يشرب الماء إلا بدم

وكان توجيهه إياه بمشورة «أبرويز» أخي «المصمُغان»(١) فإنه قال له: يا أمير المؤمنين، إن عمر أعلم الناس ببلاد طبرستان، فوجهه، وكان «أبرويز» قد عرف عمر أيام «سنباذ» وأيام الرواندية، فضم إليه أبو جعفر خازم بن خزيمة، فدخل الرُّويان ففتحها، وأخذ قلعة الطاق وما فيها، وطالت الحرب، فألحّ خازم على القتال ففتح طبرستان».

ويشير اليعقوبي في تاريخه إلى أن المنصور وجه عمر بن العلاء «إلى الطالقان ففتح الطالقان ودنباوند وديلمان، وسبى من الديلم سبايا كثيرة، ثم صار إلى طبرستان، فلم يزل مقيماً بها خلافة المنصور». ثم لما كان بطبرستان كتب إليه المهدي «أن يصير إلى جرجان فيخرج من بها من المحمّرة بعد أن يدعوهم إلى الطاعة، فصار إلى جُرجان، ففرق المحمرة، وقتل عبدالقاهر وفضّ الجمع».

وفي حوادث ١٦٢هـ أيام المهدي يذكر الطبري ظهور «المحمرة بجرجان عليهم رجل يقال له عبدالقهار، فغلب على جرجان وقتل بشراً كثيراً فغزاه عمر بن العلاء من طبرستان فقتل عبدالقهار وأصحابه». ويذكر الطبري أن ولاية عمر بن العلاء على طبرستان والرُّويان كانت سنة ١٦٧هـ أيام المهدي.

ولما كان عمر بن العلاء، جواداً باذلاً وشخصية مرموقة، وركناً من أركان الدولة العباسية، فمن طبع الأمور أن يكون مورداً خصباً للشعراء يبذلون له جيد القول من الشعر، ويقابل هو ذلك بالعطيات الجزلة.

مع الشعراء

روى القالي في أماليه بسنده «أن أبا العتاهية امتدح عمر بن العلاء.. فأمر له بسبعين ألف درهم، وأمر من حضره من خدمه وغلمانه أن يخلعوا عليه، فخلعوا عليه حتى لم يقدر على القيام لما عليه من الثياب، ثم إن جماعة من الشعراء كانوا بباب عمر، فقال بعضهم: يا عجباً للأمير، يعطي أبا العتاهية سبعين ألف درهم؟.. فبلغ ذلك عمر فقال: عليّ بهم، فأُدخلوا عليه، فقال: ما أحسد بعضكم لبعض يا معشر الشعراء! إن أحدكم يأتينا يريد مدحنا فيشبِّب في قصيدته بصديقته بخمسين بيتاً فما يبلُغنا حتى تذهب لذاذة مدحه ورونق شعره، وقد أتانا أبو العتاهية فشبّب ببيتين ثم قال:

إني أمنتُ من الزمان وريبِه
لما علِقتُ من الأمير حبالا
لو يستطيع الناس من إجلاله
لحذوا له حُرَّ الوجوه نعالا
ما كان هذا الجودُ حتى كُنتَ يا
عُمراً ولو يوماً تزول لزالا
إنّ المطايا تشتكيك لأنها
قطعتْ إليك سباسبًا ورمالا
فإذا أتين بنا أتين مُخِفَّةً
وإذا رجعنَ بنا رجعن ثِقالا

فقال له عمر حين مدحه: أقم حتى أنظر في أمرك، فأقام أياماً ولم ير شيئاً، وكان عمر ينتظر مالاً يجيء من وجه، فأبطأ عليه، فكتب إليه أبو العتاهية:

يابن العلاء ويابن القرم مرداس
إني امتدحتك في صَحبي وجُلاسي
أثني عليك ولي حال تُكذّبني
فيما أقول فأستحيي من الناس
حتى إذا قيل ما أعطاك من صَفَدٍ
طأطأت من سوء حالٍ عنده راسي

فقال عمر لحاجبه: اكفنيه أياماً، فقال له الحاجب كلاماً دفعه به وقال له: تنتظر. فكتب إليه أبو العتاهية:

أصابت علينا جُودَك العينُ يا عمرُ
فنحن لها نبغي التمائمَ والنُّشَرْ
أصابتك عينٌ في سخائك صُلْبةٌ
ويا رُبَّ عين صُلبةٍ تَفْلِقُ الحجَرْ
سنَرْقيك بالأشعار حتى تملَّها
فإن لم تُفِقْ منها رَقَيْناك بالسُّوَرْ

قال: فضحك عمر وقال لصاحب بيت ماله: كم عندك؟ قال: سبعون ألف درهم، قال: ادفعها إليه،

ويقال: إنه قال له: اعذرني عنده ولا تُدخله عليّ فإني أستحيي منه».

قلت: الرواية هذه في الأغاني أيضًا، ولكن بشيء من الاختصار غير المُخلّ.

وروى أبو الفرج بسنده في الأغاني، قال: «كان أبو الوزير مولى عبد القيس من عمال الخراج، وكان عفيفًا بخيلاً، فسأل عمر بن العلاء في رجل فوهب له مئة ألف درهم، فدخل أبو الوزير على المهدي فقال له: يا أمير المؤمنين، إن عمر بن العلاء خائن، قال: ومن أين علمت ذلك؟ قال: كلّم في رجل كان أقصى أمله ألف درهم فوهب له مئة ألف درهم، فضحك المهدي، ثم قال: (قُلْ كُلٌّ يعملُ على شاكلته) أما سمعت قول بشار في عمر:

إذا دَهَمَتْكَ عظامُ الأمور
فنبّه لها عُمرًا ثم نَمْ
فتى لا ينامُ على دِمْنَةٍ
ولا يشربُ الماءَ إلاّ بدَمْ

أو ما سمعت قول أبي العتاهية فيه:

إنَّ المطايا تشتكيك لأنها
قطعتْ إليك سَباسِبًا ورمالا
فإذا وردنَ بنا وردن مُخِفَّةً
وإذا رجعنَ بنا رجعنَ ثقالا

أو ليس الذي يقول فيه أبو العتاهية:

يابْنَ العلاء ويابن القرم مرداس
إني لأطْريكَ في صَحْبي وجُلاّسي
حتى إذا قيل ما أعطاك من نَشَبٍ
ألفيتُ من عِظَمِ ما أسديتَ كالناسي

ثم قال: من اجتمعت ألسُنُ الناس على مدحه كان حقيقًا أن يُصدِّقَها بفعله».

وقال أبو الفرج: «كان سلم الخاسر من غلمان بشار، فلما قال بشار قصيدته الميمية في عمر بن العلاء وهي التي يقول فيها:

إذا نَبَّهتْك صِعابُ الأمور
فنبه لها عُمرًا ثم نَمْ
فتى لا يبيت على دِمْنَةٍ
ولا يشرب الماء إلاّ بدَمْ

بعث بها مع سلم إلى عمر بن العلاء، فوافاه فأنشده إياها، فأمر لبشار بمئة ألف درهم، فقال له سلم: إن خادمك، يعني نفسه، قد قال في طريقه فيك قصيدة، قال: فإنَّك لهُناك؟ قال: تسمع ثم تحكم، قال: فهات، فأنشده:

قد عَزَّني الداءُ فمالي دواء
ممّا ألاقي من حِسان النساء
قلبٌ صحيحٌ كنت أسْطُو به
أصبح من سلمى بداءٍ عَياء
أنفاسُها مِسكٌ وفي طَرْفِها
سِحْرٌ ومالي غيرُها من دواء
وَعَدتْني وعدًا فأوْفي به
هل تصلحُ الخمرةُ إلاّ بماء؟

ويقول فيها:

كم كربةٍ قد مسَّني ضُرُّها
ناديتُ فيها عُمَرَ بنَ العلاء

قال: فأمر له بعشرة آلاف درهم، فكانت أول عطية سنية وصلت إليه».

مديح بارع

أما القصيدة الميمية التي قالها بشار بن برد يمدح عمر ابن العلاء فقد ذاع صيتها في الآفاق وبين الناس، وأثنى عليها النقّاد كابن المعتز، وأبي هلال العسكري، وأبي الفرج الأصبهاني، والنويري. وقد مرّ بنا ثناء المهدي على بيتين منها.

قال العسكري: ومن المديح البارع قول بشار - نهاية الأرب -:

ألا أيها الطالبُ المُبتغي
نجومَ السماء بسَعْيٍ أمَمْ
سمعتَ بمكرمة ابن العلاء
فأنشأتَ تطلبُها لستَ ثَمْ
إذا عَرَضَ الهمُّ في صَدْرِهِ
لها بالعطاء وضَرْبِ البُهَمْ
فقل للخليفة إن جئتَهُ
نصيحًا ولا خَيْرَ في المُتَّهمْ
إذا أيْقظتْكَ جسامُ الأمور
فنبِّهْ لها عُمَرًا ثمَّ نَمْ
فتى لا يبيت على دِمْنَةٍ
ولا يشرب الماءَ إلاّ بِدَمْ

يحبُ العطاءَ وسَفْكَ الدماءِ
فيغدو على نِعَمٍ أو نِقَمْ

وقد أورد ابن قتيبة في «عيون الأخبار» الأبيات الثلاثة الأخيرة ولكن بعبارة «يلذُّ العطاء وسفك الدماء».. بدلاً من عبارة: «يحب...» ثم أورد في موضع آخر البيتين:

دعاني إلى عُمَرٍ جُودُه
وقَولُ العشيرة بحرٌ خِضَمْ
ولولا الذي زعموا لم أكنْ
لأمْدَحَ ريحانةً قبل شَمْ

ووصف ابن المعتز في «طبقات الشعراء» البيتين:

إذا نبّهتك حروب العُداة
فنبّه لها عمرًا ثُمَّ نَمْ
ولولا الذي زعموا لم أكُنْ
لأمدحَ ريحانةً قبل شمْ

بأنها من جيد شعر بشار. واختار ابن المعتز من هذا المديح البيت:

فتًى لا يبيت على دمنة
ولا يَلْعَقُ الشهدَ إلاّ بسَمْ

والقصيدة الميمية هذه في ديوان بشار وقد اطلعت على النسخة التي شرحها الطاهر بن عاشور، وها أنذا أورد منها ما كان مديحًا لعمر بن العلاء، رحمه الله، وهي الأبيات:

أقولُ لها حين قَلَّ الثراءُ
وضاقَ المرادُ وأودى النَّعَمْ
إذا ما افتقَرْت فأحي السُّرى
إلى ابن العلاء طبيب العَدَمْ
دعاني إلى عُمَرٍ جُودُه
وقولُ العشيرة: بحر خِضَمْ
ولولا الذي زعموا لم أكُنْ
لأمدح ريحانةً قبل شَمْ
ألا أيها الطالبُ المبتغي
نُجُومَ السماءِ بسعي أمَمْ
سَمِعْتَ بمكرمَةِ ابن العلا
فأنشأتَ تطلبُها لستَ مَمْ
إذا عَرَضَ اللهوُ في صدره
لَها بالعطاء وضَرْبِ البُهَمْ

ولعلها: إذا عرض الهم.

يَلَذُّ العطاءَ وسفكَ الدماءِ
ويغدو على نِعَمٍ أو نِقَمْ
فقل للخليفة إن جئتَه
نَصوحًا ولا خيرَ في متَّهَمْ
إذا أيقظتك حروب العِدا
فنَبِّهْ لها عُمرًا ثم نَمْ
فتًى لا ينام على ثأره
ولا يشربُ الماءَ إلاّ بدمْ
إذا ما غزا بَشَّرتْ طيرُه
بفتحٍ وبَشَّرنَا بالنَّعَمْ
إذا قال تَمَّ على قوله
وماتَ العَناءُ بلا أو نَعَمْ
وبعضُ الرجال بمَوْعوده
قريبٌ وبالفعل تَحْتَ الرَّجَمْ

قلت: قوله، لولا الذي زعموا: أي أكدوا حقًا، أخذه من قول المسيّب بن علس في القعقاع بن معبد بن زرارة، رضي الله عنه:

أنت الذي زعمتْ تميمٌ أنه
أهلُ السماحة والندى والباع

قلت: وورد قول بشار في ابن العلاء:

أنتَ أنفُ الجود إن زايَلْتَهُ
عَطِسَ الجودُ بأنفٍ مُصْطَلَمْ

في «ثمار القلوب» للثعالبي.

قلت: ومن بني عمر بن العلاء هذا، موسى بن حفص بن عمر بن العلاء كان من قوّاد الدولة العباسية، وكانت له فتوح أيام المأمون. ومحمد بن موسى بن حفص بن عمر بن العلاء كان من قوّاد المأمون أيضًا. وذكر البلاذري أنه افتتح هو و«مايزديار بن قارن» جبال شروين من طبرستان، وقال: إنها أمنع جبال وأصعبها وأكثر أشَبًا وغياضًا.

الهوامش

(١) المصمغان: ملك دنباوند.

عنصر الماء في استراتيجية غزوة بدر العظمى[1]

رابح عبدالله المغراوي

كان للماء من حيث هو أصل الحياة، ومادة مطهرة منعشة، وعامل طبيعي مساعد على الحركة، دور بارز في استراتيجية غزوة بدر الكبرى، وأثر بالغ في نتائجها وأبعادها كما يتبين للناظر المتدبر في كتب المغازي والسير والتاريخ.



بئر الروحاء في بدر ولا يزال الماء بها إلى اليوم

لم أقصد بهذه الدراسة حشر جميع العناصر الفاعلة والمؤثرة في أسباب هذه الغزوة الرائدة والحاسمة في تاريخ حركة الإسلام المتنامية ونتائجها، وتاريخ الإنسانية برمته، على عهد بزوغ نور الرسالة، وإنما قصدت التركيز على عنصر واحد من عناصرها المؤثرة، هو عنصر الماء كما ألمعت، لا لأنه لم يُلتفت إليه ألبتة، وإني لم آت بدعًا من القول، لكنني قصرت الحديث عنه باتباع مساره، شأن المتتبع جريان النهر المنساب، تنويهاً بالأهمية البالغة، فيما نزعم، وشأن من يريد لفت الأنظار إلى جزء من أجزاء المشهد الجوهرية أوشك أن يستحيل عرضا، ورسمًا دارسًا، بسبب تراكم الوقائع والأحداث المصاحبة له من جهة، وبسبب طرق السرد، وسبل العرض لهذه الوقائع عبر التاريخ من جهة ثانية.

بدر: الموقع المائي الشهير

جاء في تحديد موقعه من مكة والمدينة ومدينة الجار(١) قول الحميري: «بدر ماء على ثمانية وعشرين فرسخاً(٢) من المدينة في طريق مكة، وبين مدينة الجار إلى بدر نحو المشرق إذا أردت المدينة عشرون ميلاً»(٣).

أما علاقة «بدر» الموقع بالماء الذي هو موضوع الدرس المقصود فيكشف عنها بشيء من التفصيل إلى درجة تجعلنا نتصور الكمية المائية الوافرة التي توحي بغنى المنطقة كتاب الروض المعطار، أيضاً يقول صاحبه: «وهناك قرية فيها حدائق نخل، وببدر عين فوارة، وموضع القليب الذي كانت بإزائه الوقيعة المباركة الإسلامية، هو اليوم نخيل وموضع الشهداء خلفه، وببدر عينان جاريتان عليهما الموز والعنب والنخل»(٤).

كما يكشف الكتاب عن جوانب أخرى من جوانب «بدر» الموقع من حيث الاجتماع والاقتصاد التي كانت هي الأخرى - دون شك - أثراً من آثار المياه، يقول الحميري: «وبدر موسم من مواسم العرب ومجمع من مجامعهم في الجاهلية وبها قُلُبٌ ومياه وآبار ورياض يقال لها الأثيل منها ينبع والصفراء والجار والجحفة(٥).

إدراك كلا الفريقين أهمية «بدر» الاستراتيجية

لقد كان كل من معسكر الإيمان ومعسكر الشرك يدرك أهمية هذا الموضع بالنسبة إلى

المعركة، ولذلك كان كلاهما يريد أن يتخذه موقعاً له في استراتيجيته ليرد منه عند الحاجة. يدل على هذا مسلكا كلا الفريقين اللذين كانا يستهدفان الماء منذ الوهلة الأولى من حيث ضرورته كما سنبين.

مسلك قريش

تؤكد معظم المصادر - إن لم نقل كلها - أن خط اتجاه النهج الذي قطعته قريش كان يتخذ من المواقع المائية المعروفة ما بين مكة والمدينة محطات كبرى، تعسكر بها بين الفينة والأخرى، وتخلد فيها إلى الراحة، ترتوي وتتزود ثم تواصل سيرها بسبب بعد الشقة.

- **المحطة الأولى**: «الجُحْفة»: كانت المحطة الأولى التي قصدتها قريش ونزلت بها «الجُحْفة»(٦) وهي قرية حجازية جامعة بينها وبين البحر ستة أميال، وبينها وبين مكة نحو ستة وستين ميلاً، وهي منزل عامر آهل فيه خلق، ولا سور عليه.

لم تمنع الحُباب بن المنذر مكانة الرسول وهيبته من إبداء رأيه في أدب جم أعطى أعظم درس في الشورى والحرية

هذا من الناحية العمرانية والجغرافية، أما من ناحية علاقة «الجحفة» بالماء فهي على ثلاثة أميال من «غدير خُم» من جهة اليسار، وهذا الغدير تصب فيه عين، وحولها شجر كثير ملتف، وهي الغيضة التي تسمى خماً(٧).

وفي «الجحفة» أتى قريشاً الخبر بأن أبا سفيان تمكن من النجاة بالعير التي كانت مقصد المسلمين، ومع ذلك أصرت قريش على المضي قدماً، ولكن هذه المرة لا بغرض المواجهة أو الدفاع، ولكن بغرض الخيلاء والدعاية والإرهاب ضماناً لهيبتها أمام العرب، وفي ذلك أيضاً تعبير عن الغبطة التي غمرتها وقد انفلتت تجارتها من براثن المسلمين.

- **المحطة الثانية**: ورود «بدر»: وكانت المحطة الثانية التي عقدت قريش العزم على تيممها هي ورود «بدر» ولكن للأغراض المذكورة المشار إليها، يكشف عن ذلك بوضوح قول ابن إسحاق: «ولما رأى أبو سفيان بن حرب أنه قد أحرز عيره، أرسل إلى قريش أنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، وقد أنجاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدراً، وكان بدر موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام، فنقيم بها ثلاثاً، فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها»(٨).

- **المحطة الثالثة**: «العدوة القصوى»: تحركت قريش بقدها وقديدها باتجاه بدر، فنزلت موضعاً قريباً منه، قال ابن إسحاق: «ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي خلف العقنقل(٩)، وبطن الوادي وهو يَلْيَل(١٠) بين بدر وبين العقنقل الكثيب الذي خلفه قريش(١١).

مسلك المسلمين

أما المسلمون فكانت المحطات التي نزلوا بها في طريقهم إلى بدر كالآتي:

- **المحطة الأولى**: «الصفراء»: كانت محطة نزول المسلمين الأولى بإجماع المؤرخين موضعاً يسمى «الصفراء»، وهي أيضاً موقع مائي مهم قريب من المدينة كما جاء في «الروض المعطار» يقول: «قرية فوق ينبع، على ست مراحل من المدينة، وهي كثيرة المزارع والنخل، ماؤها من عيون يجري فضلها من ينبع، بين ينبع والمدينة ست مراحل»(١٢).

ومن «الصفراء» بدأت مشاورات الرسول صلى الله عليه وسلم العسكرية مع أصحابه، يمتحن استعدادهم، ويتجسس على أخبار العدو.

- **المحطة الثانية**: قصد «بدر»: ثم كانت المحطة الثانية بتحرك المسلمين نحو بدر أيضاً كما فعلت قريش، فاقتضى نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الزعيم القائد أن ينزل قريباً من بدر، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة(١٣).

وقد أكد القرآن الكريم نفسه هذا المعنى في قوله: إذ *أنتم بالعُدوة الدُّنيا وهم بالعُدوة القُصوى والرَّكبُ أسفلَ منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد*. **الأنفال**:٤٢.

- **المحطة الثالثة**: «أدنى ماء من قريش»: ثم كانت المحطة الثالثة والأخيرة، وهي المحطة التي كانت بناء على اقتراح أحد مستشاري الرسول وخبرائه العسكريين، الذين حنكتهم التجارب وصقلتهم المواهب وهو الحُباب بن المنذر، لم تمنعه مكانة الرسول وهيبته من إبداء رأيه في أدب جم أعطى أعظم درس في الشورى والحرية في أسمى معانيها حين قال: «يا رسول الله: أرأيت هذا المنزل؟ أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة.

قال: يا رسول الله! إن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نُغَوِّر ما وراءه من القُلُب ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء فنشرب ولا يشربون.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد أشرت بالرأي.

فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه ثم أمر بالقُلُب فغُوِّرت، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه فملئ ماء ثم قذفوا بالآنية»(١٤).

وفي رواية أخرى قال الحباب: «أنا يا رسول الله عالم بها وبقلبها، إن رأيت أن نسير إلى قليب منها قد عرفتها كثيرة الماء عذبة فننزل عليها ونسبق القوم إليها ونغور ما سواها»(١٥).

واحتفاء بهذا الرأي الحصيف وتقديراً له، روي عن ابن سعد أن جبريل عليه السلام قد نزل من فوق السماوات العلى من قبل الله عز

وجل ليقره ويمضيه قائلاً: «الرأي ما أشار به الحباب»(١٦).

دلالات النص الاستراتيجية والعسكرية

- التبين فيما إذا كان الموقع المختار ناجماً عن وحي أم عن اجتهاد من رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء على ما يقتضيه الرأي والحرب والمكيدة.
- التصريح النبوي باعتماده على ما تقتضيه شؤون الحرب من إعمال الرأي واختراع الحيل والخدع.
- اعتراض الحباب على الموقع الذي اختاره النبي صلى الله عليه وسلم.
- اقتراح الدنو إلى أقرب نقطة مائية من قريش.
- بناء حوض مائي كاف ثم ملؤه ماء.
- ردم ما وراء الموقع المائي المختار من الآبار.
- حرمان قريش من الماء.
- الثناء على الرأي والإذعان للخطة.
- الشروع الفوري في تطبيق الخطة والسعي إلى كسب رهان الوقت.
- ودلت نصوص أخرى غير هذا النص أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما إن انتهى من تنفيذ الخطة المقترحة حتى صف رجالاً على الحياض حرساً عليها(١٧).

ومما يدل على حضور أهمية الماء في التقديرات العسكرية، وإدراك أثره في ميزان القوى إذا حصل الصدام المسلح، سعي كلا الفريقين إلى كسب الزمن وطي المسافة إلى «بدر» في أسرع وقت ممكن وكأنهما في سباق إلى الوصول.

ويصل فريق المسلمين الذي تحرك ليلاً إلى «بدر» قبل فريق المشركين الذين سيرجئون الحركة إلى الصباح، لتدخل عنصر تكتيكي جديد لم يكن في الحسبان، سيكون له دور مهم في استراتيجية المعركة، نعرض له تحت العنوان الآتي:

الغيث النافع والمطر المانع

تجمع مصادر السيرة والتاريخ، ويؤكد ذلك القرآن الكريم أن عنصراً غيبياً طارئاً دل على العناية الإلهية والرعاية الربانية سيؤدي دوره الخطير في مجرى هذه المعركة لمصلحة الفئة القليلة المستضعفة، جاء في عيون الأثر: «وبعث الله السماء وكان الوادي دهساً (ليناً رخواً) فأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه منها ما لبّد لهم الأرض، ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشاً منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يبادرهم إلى الماء حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل»(١٨).

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الماء الذي كان فيه أكثر من فائدة، قال تعالى: *إذ يُغَشّيكم النُّعاسَ أمَنَةً منه ويُنزّل عليكم من السماء ماءً ليُطهركم به ويذهبَ عنكم رجزَ الشيطان، وليربطَ على قلوبكم ويُثبّتَ به الأقدام.* **الأنفال: ١١.**


لوحات منقوشة على الأحجار بتواريخ وأسماء أصحاب بعض القبور في أزمان مختلفة

وبالرجوع إلى كتب التفسير نقف على المعاني الآتية(١٩):

- الماء ينزل من السماء بإرادة الله تعالى، وهذا يوحي بالعناية والأهمية، وكذلك يوحي بضرورة الماء وحاجة المسلمين إليه في هذا الظرف العصيب.
- الغاية التطهيرية للماء المنزل، وفي ذلك بعث للنشاط، وتجديد للقوى، وكف للعياء الذي - لا شك - يكون قد ألمَّ بالمسلمين.
- إذهاب رجز الشيطان، والرجز هنا معناه الكيد، وكيد الشيطان في مثل هذه المواقف لا يخفى، وقد يتمثل وسواسه في تضخيم صورة العدو في أنفسهم، وهو الذي نرجحه، وقد يتمثل في الإيهام باستيلاء قريش على الماء.

ولا تخفى علاقة الماء بالشيطان من الناحية الشرعية على من يعلم.

- الربط على القلوب، ومعناه الشد، والتعبير هنا مجازي محض قد يكون معناه الصبر، وقد يكون معناه الإيمان، وقد يكون معناه الغيث نفسه الذي بعث الأمل وجدد العزم؛ إذ لا تخفى العلاقة النفسية والوجدانية بين الغيث والنفوس على من يتدبر، خصوصاً إذا جاءت بعد انتظار وفي الوقت المناسب.
- تثبيت الأقدام بالماء المنزل على الأرض التي كانت رملية غضة تسوخ فيها الأقدام وتُرهق فيها الأبدان(٢٠).

هاجس الماء في التجسس والاستنباء

لم يكن عدّ الماء عنصراً فاعلاً مقتصراً على المواقع المائية التي حط بها كلا الفريقين فقط، والتي تم الإلماع إليها؛ لأن ذلك قد يوحي لمن لم يتبصر بأن النزول أدت إليه المصادفة أو الضرورة غير الملحة، أو أن سبر النصوص على جهة التركيز على عنصر الماء هو الذي أبرزه على حساب العناصر والعوامل الأخرى كافة.

بيد أن هناك إشارات أخرى لا تقل أهمية عن تلك التي ذكرت تؤكد أن الماء ظل هاجساً مهيمناً على أغلب عناصر استراتيجية المعركة، وعاملاً حيوياً في تكتيك الملحمة، ونعني بها ما صاحب ذلك من تجسس واستخبار يتمثل في الإشارات الآتية:

- ركوب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر أولاً حتى وقف على شيخ من العرب قريباً من «بدر» فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني من أنتما؟

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أخبرتنا أخبرناك.

فقال الشيخ: ذاك بذاك؟

قال: نعم.

قال الشيخ: فإنه قد بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان الذي أخبرني صدق فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي به قريش.

فلما فرغ من خبره قال ممن أنتما؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نحن من ماء».

ثم انصرف عنه، قال: يقول الشيخ: ما من ماء؟، أمن ماء العراق؟(٢١).

وليس غريباً أن تكون تورية الرسول صلى الله عليه وسلم بالماء، فالماء في هذا الموطن له دلالته كما تبين.

ـ بعث النبي صلى الله عليه وسلم ثانياً رجلين يتجسسان الأخبار حول العير أو النفير، ويستقيان من ماء «بدر» فسمعا جاريتين من جواري الحي تقول إحداهما للأخرى: إنما تأتي العير غداً أو بعد غد فأعمل لهم ثم أقضيك(٢٢).

ـ ثم بعث النبي صلى الله عليه وسلم ثالثاً علياً والزبير وسعداً في نفر إلى «بدر» يلتمسون الأخبار، فأصابوا راوية(٢٣) قريش وواردهم(٢٤)، فشرعوا في استنطاقهم واستخلاص المعلومات عن قريش والموقع الذي يحتلونه وكذلك عدتهم وعتادهم(٢٥).

ولقد كان لهذا العمل المفاجئ الذي قام به المسلمون أثر بالغ في إرباك معسكر الشرك كخطة لا عهد لهم بها، فضلاً عن أنهم سيحتاجون ـ لا محالة ـ إلى الماء فلا يجدونه، مما سيستفزهم ويخلخل صفوفهم علاوة على أنه سيكون باعثاً على التقدم والمبادرة للقاء المسلمين الذين أعدوا خطة دفاعية محكمة تتناسب مع عددهم القليل في مقابل عدد المشركين، وهذا ما حدث بالفعل، فقد خرج الأسود بن عبدالأسد، وكان كما تصفه كتب التاريخ، شرساً سيئ الخلق فقال: «أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه»(٢٦).

فلما تقدم إلى الماء ليبر بيمينه تصدى له حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه فأرداه قتيلاً في الحوض مما أدهش المشركين.

وتبارز الأبطال من الرجال، وحمي بعد ذلك القتال، وكان النصر حليفاً للمسلمين، وكان للماء الأثر الكبير في نجاح خطة المسلمين الحربية كما لاحظنا.

خلاصة

وهكذا كان للماء أثره الواضح في استراتيجية هذه الغزوة الإسلامية الشهيرة في موقعين مختلفين مهمين:

الأول: وكان غيثاً نافعاً لبد الطريق الرملية أمام المسلمين ليتمكنوا من الحركة السريعة والانتقال إلى الموقع المنشود، وكان مطراً معيقاً لحركة جيش المشركين الذين كانوا على أرض طينية، فلم يتمكنوا من الوصول إلى بغيتهم، وهو ماء بدر، وسبقهم المسلمون إليه كما علمنا.

الثاني: وتمثل في «ماء بدر» حيث نقل المسلمون ماء جميع القلب التي كانت منتشرة على مساحة كبيرة ليجعلوه في قليب واحد محصن ثم طمسوا معالم جميع تلك القلب حتى لا يمكنوا عدوهم من أي قطرة من الماء الذي سيحتاجون إليه لا محالة أمام إلحاح الظمأ، قال اللواء الركن محمود شيت خطاب، وهو رجل متخصص في هذا الميدان: «لقد كان لنقص الماء عند المشركين يوم القتال أثر كبير في اندحارهم»(٢٧).

الهوامش والمراجع

١ـ الجار: مدينة بالحجاز على ساحل البحر مما يلي المدينة، تُرفأ إليها السفن من الحبشة ومصر وعدن والصين وسائر بلاد الهند، وهي آهلة عامرة كانت قبل هذا مدينة قريبة من «جدة» والمراكب إليها قاصدة ومقلعة وليس بها كبير تجارة. انظر: الروض المعطار ص١٥٣، ومعجم البلدان ٢/٩٢ ـ ٩٣.

٢ـ الفرسخ: اسم يطلق على مسافة مقدرة تقديراً نسبياً، وفي تقديره اختلاف؛ لأن له علاقة بالتقدير العام لدرجات استدارة الأرض في موضع خط الاستواء، قال ياقوت الحموي: «قالت الحكماء: استدارة الأرض في موضع خط الاستواء ثلاثمئة وستون درجة، والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل أربعة آلاف ذراع، فالفرسخ ألف ذراع، والذراع أربع وعشرون إصبعاً، والإصبع ست حبات شعير مصفوفة بطون بعضها إلى بعض، وقيل الفرسخ اثنا عشر ألف ذراع بالذراع المرسلة، تكون بذراع المساحة، وهي الذراع الهاشمية، وهي ذراع وربع بالمرسل تسعة آلاف ذراع وستمئة ذراع. وقال قوم: الفرسخ سبعة آلاف خطوة، ولم أر لهم خلافاً في أن الفرسخ ثلاثة أميال». معجم البلدان ١/٣٥ ـ ٣٦.

٣ـ الروض المعطار ص٨٤.

٤ـ الروض المعطار ص٨٤.

٥ـ المصدر السابق نفسه ص٨٤.

٦ـ انظر على سبيل المثال لا الحصر: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ابن سيد الناس ١/٣٠٠، وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، المغازي، شمس الدين الذهبي، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري ص١٠٥.

٧ـ انظر: الروض المعطار ص١٥٦.

٨ـ سيرة ابن هشام ٢/٢٥٧ ـ ٢٥٨، عيون الأثر ١/٣٠١.

٩ـ العقنقل: كثيب رمل ببدر. الروض المعطار ص٤١٦.

١٠ـ يليل: اسم قرية قرب وادي «الصفراء» من أعمال المدينة، وفيه عين كبيرة تخرج من جوف رمل من أغزر ما يكون من العيون وأكثرها ماء، وتجري في رمل لا يستطيع الزارعون عليها إلا مواضع يسيرة من أحناء الرمل، وتصب في البحر عند ينبع فيها نخيل وتتخذ فيها البقول والبطيخ، وتسمى هذه العين «البُحَيْر».. وادي يليل يصب في البحر، معجم البلدان ٥/٤٤١.

١١ـ سيرة ابن هشام ٢/٢٥٩.

١٢ـ سيرة ابن هشام ص٣٦٢.

١٣ـ تاريخ الإسلام ص٥٣، وانظر أيضاً: عيون الأثر ١/٣٠٢.

١٤ـ عيون الأثر ١/٣٠٢، تاريخ الإسلام ص٥٢ ـ ٥٤ و ص١٠٨.

١٥ـ تاريخ الإسلام (المغازي) ص١٠٨.

١٦ـ الطبقات الكبرى ٢/١٥، عيون الأثر ١/٣٠١.

١٧ـ انظر تاريخ الإسلام ص١٠٨.

١٨ـ ١/٣٠٢. وانظر أيضاً سيرة ابن هشام ٢/٢٠٩. وكذلك تاريخ الإسلام ص٥٣.

١٩ـ سيتم التركيز على المعاني التي لها علاقة بالماء فقط.

٢٠ـ انظر: زاد المسير في علم التفسير، عبدالرحمن بن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت ـ دمشق، الطبعة الرابعة ٣/٣٢٧/٣٢٨.

٢١ـ سيرة ابن هشام ٢/٢٥٤ ـ ٢٥٥، عيون الأثر ١/٢٩٨ ـ ٢٩٩.

٢٢ـ سيرة ابن هشام ٢/٢٥٦ ـ ٢٥٧، تاريخ الإسلام ص ٥٢ ـ ٥٣، عيون الأثر ١/٣٠٠.

٢٣ـ الراوية: الإبل النواضح التي تخصص للسقاية وجلب الماء.

٢٤ـ الوارد: هو الذي يتقدم القوم فيرد المنهل ويسقي لهم ويقع على الواحد والجماعة.

٢٥ـ عيون الأثر ١/٢٩٩ وتاريخ الإسلام ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

٢٦ـ تاريخ الإسلام ص٥٧.

٢٧ـ الرسول القائد ص ١٢٤.

تحت نافذة القدس

خالد سعيد عبدالمعبود



أيا حكمة الأجداد.. ميراث الهدى.. نهر الغناءِ
أنت الهوى العذريُّ يمنحنا غلالات النقاءِ
ويسير فينا.. لا نحسُّ به.. كتسيار الدماءِ
الأنبياء أتَوْا.. وقد وضعوا أساسك من ضياءِ
جاؤوا وكلٌّ منهمُ يسمو بأعمدة البناءِ
حتى بدت عيناك لؤلؤتين.. فيضًا من عطاءِ

****

واليوم أنت كنسمة تاهت بأسواق البغاء
كسفينةٍ متروكةٍ للموج قهراً والتنائي
وإذا رأت للشط نجمًا يختفي في ثوب ماءِ
إني أراك كطائرٍ يرنو إلى حجْر الفضاءِ
عبثًا يحاول أن يغني بين أسراب البلاء
والقيد ممتد بداخله كأبراج السماءِ

****

إني أحبك.. رغم قطعان التشتت والفناء
إني أحبك.. نخلةً.. بيتًا جميلاً من صفاءِ
إني أحبك.. وردةً بكرًا، ونجمًا من بكاءِ
لكنني المقتول ليس معي سوى ثمرات دائي

لم أمتلك إلا ممالكَ من دموعٍ للرثاء
هل تعذرين القلب.. إن القلب منزوع اللواء

****

يا زهرتي الحمراءَ لا تدَعي خرافات الشتاءِ
تجتاح أعشاب المنى وتهدُّ أغنية الرجاء
لا تحزني إن ضاع حلمك تحت أطناب الخباء
أوصار قلبك دمعةً تلهو بها أيدي الجواء
تلك النجيمات التي غابت سترجع في المساء
أنوارها ستزيل ما بين المسامع من عُواءَ
ستطارد الأشواكَ، والليلَ المجمَّدَ في الدماء
وتعيد لحن الخيل، والمرعى، وأصواتَ الرِّعاء

طيوف

شعر: فوزية العلوي

فتنٌ، تحاصرُنا
وتمضي كالطيوفْ
ويبيعُنا شجَنٌ إلى شجَنٍ
فترْتبكُ الحروفْ
ونظلُّ منْ زمنٍ إلى زمنٍ،
ومنْ فتَنٍ إلى فتَنٍ،
ونوغلُ في الحفيفْ
ولرُبّما غفلَتْ عقاربُ وقْتِنا،
وتداخلَتْ منْ بعْدِ رونَقِها الصفوفْ
ولرُبّمـا طرحـتْنا في لُجَج الهـوى
صدَفٌ
وتفاتَنَتْ منْ بعْدِ ما صمتَتْ دفوفْ
أنَا لَمْ أخُنْ حتّى تُخاصِمَني الدُنَا



أنَا كنتُ أوفى منْ خريفْ....
كلُّ الحكاية أنني، أهْوى التفاصيل الصغيرهْ
وأحبُّ رائحة التُّرابْ
ويرُوقُني عشُّ الخطافِ على السقُوفْ
ولرُبما قبّلتُ في إغفاءتي
كف الحبيب المشْتهى
ومشيتُ منْ وجَلي على ألقِ السيوفْ!
كلُّ الحكاية أنني،
قبل البداية أنتهي، بعد النهاية أبتدي
ويشفيني من كل أجنحة رفيفْ
أنا لَمْ أخُنْ حتى تُخاصمني الدُنا...
أنا كُنْتُ أوفى منْ رغيفْ!
وأنا التي مدّتْ سنابلَ صوْتِها
كيْ يرقُصَ الحسّونْ
ويُثرْثرَ الزّيتونْ
ويسافرَ الدنّانُ في ولَهِ القُطوفْ!
وأنا التي بسطَتْ جُمَانَةَ كفِّها
كيْ يشتهيكَ الليلْ
فيُعيدَ ترْتيبَ النجُومْ
ويقولَ للأقمارِ غيبِي
فيفْجؤُها الخُسوفْ....
أنَا لَمْ أخُنْ....
أنا كنتُ أوفى من وطنْ
وأشفُّ من طلل الصباح على فنَنْ
وأرقُّ من غيم البحار على السفنْ....
وأخفُّ من هذر الخريف على الرّصيفْ....
لي في الوفا ما ليس يعرفهُ الوفا
لي فـي الهـوى مـا ليس تـدركـه الصــروفْ

الحذاء

ميخائيل زوشينكو*

ترجمة: هاشم حمادي

مع حلول فصل الخريف ذهب جارنا تروفيميتش مع ابنته نورا، ذات السبعة أعوام، ليشتري لها حذاء.

دخل تروفيميتش مع طفلته مخزن الأحذية. وبعد أن تفحص السلعة مليّا، وقلبها طويلاً، أوعز إلى ابنته أن تجربها.

كل شيء تمام ـ السلعة ممتازة، والقياس مناسب. شيء واحد لم يكن مناسبًا ـ إنه السعر. فثمن هذه «الجزيمة» اثنا عشر روبلاً بكاملها.

ولم يكن تروفيميتش قد رصد لهذه العملية سوى روبل ونصف الروبل، أو روبلين كحد أقصى.

وعلى الرغم من بكاء الطفلة وعويلها، فقد غادر المخزن خالي الوفاض. وانتقل إلى مخزن آخر، وهنا طلبوا عشرة روبلات، وفي المخزن الثالث طلبوا المبلغ نفسه. وبكلمة مختصرة فقد كانت القصة نفسها تتكرر في كل مخزن ـ السلعة جيدة، القياس مناسب، لكن السعر كاوٍ، ويتكرر صراخ الصغيرة.

وفي المخزن الخامس قاست نورا الحذاء، فتبين أيضًا أنه مناسب. وحين سأل الأب عن السعر طلب البائع تسعة روبلات، ولم يقبل بأي حسم.

وبينما راح تروفيميتش يساوم البائع، ويقسم ذاك أغلظ الأيمان، اقتربت نورا من باب المخزن، ثم خرجت، وهي في حذائها الجديد.

واندفع الأب يريد اللحاق بها، لكن صاحب المخزن أوقفه:

ـ ادفع أولاً يا رفيق، ثم اجر حيثما تريد.

ـ لن تلبث الصغيرة أن تعود. لعلها أرادت أن تتمشى



قليلاً بهذا الحذاء.

ـ هذا لا يهمني. ادفع ثمن الحذاء، وإلا لن تغادر المخزن.

ـ طيب لن أغادر. وسأنتظر عودتها.

وعادت الصغيرة، لكن ليس إلى المخزن، بل إلى البيت، وهي تقول لنفسها:

ـ لو لم أفعل ذلك إذن لما اشتراه لي بابا بسبب غلائه.

وفي اليوم التالي كانت نورا تتغندر في حذائها الجديد، والدنيا لا تسعها من فرط السرور. صحيح أن أباها ضربها قليلاً، لكن المهم أن الحذاءالجديد بقي لديها.

* كاتب سوفييتي ساخر، له عدد من القصص القصيرة، التي تصور الحياة في بداية العهد السوفييتي بأسلوب ناقد ساخر ولاذع.

فاصوليا بلا مواسم

عبدالعزيز مشري

ما الذي يجعلك صامتاً حد الماء الراكد؛ في عقر ليلك يا عبدالله؟

هكذا وبحرية لا تضايقه فيها رقّة ذباب.. تساءل مثلما يتساءل المرء عن الفاصوليا البيضاء بعد أكلها مئات المرات في حياته، ولم يفكر دوماً في عدد الحبات التي تكفيه في كل وجبة.

أمر لا يستحق الوقوف عنده، لكنه لا بد له من جواب.. أليس هو الذي تقلقه فتافيت ربما لايعتقد أن ينيلها أحدٌ بالاً؟!.

وهذا التساؤل الباهت لا علاقة له الآن بما يدور بخاطره، لكنه ارتبط وبلا أي مبرر بالشعور الهادئ حيناً، والمضطرب أحياناً.

ذهب يجرجر تداعياته ليصل إلى أول مبتدأ قاده لهذا الخاطر الغريب، الذي أوصله إلى التفكير في عدد حبات الفاصوليا البيضاء التي أكلها في حياته، ولماذا لا يكون نوعاً آخر من المطهيات، أو الفواكه، أو حتى عدد (السجائر) التي دخنها، أو أي شيء آخر يتكون من إحصائية تبدو تافهة، وتتعدد الاحتمالات والمناسبات؟

فعبدالله ليس من أولئك الذين يجرون حفاة وراء الطعام، ولا يفضل طعاماً بعينه، ويؤثر أن يتناول أي مصدر غذائي، لأنه ينظر إليه على أنه واجب دستوري حياتي قيد التنفيذ.. لذلك فالطعام عنده ضرورة يجب فعلها برضا، أو بكره.

لا..

لقد بلغ أول الحبل، تذكر اليوم الذي طهيا فيه وجبة الغداء، وكان يوماً شبه عادي.. لأنها منذ أيام كانت لصيقته.. فأخذت الأشياء النادرة، تومئ بوفرتها، وهذا يعني في اعتقاده أن الأشياء التي يبحث عنها الآدميون تخسر قيمتها عندما تكون قريبة وسهلة، ولكن أنى له أن يقتنع بهذا المعتقد، وهو منذ زمن يحسب لمثل هذا التآلف الحميمي الشديد الحاد؟

قال لها وهما يأكلان بهدوء يبدو منه أنهما ليسا منه:

ـ أنت جميلة.

«لم ترد، وأحس أنه لم يؤالفها من أجل هذا السبب، وكان يقولها وعيناه في الطبق.. حيث أدلقت عينيها في طبقها هي الأخرى. ولعله لم يكن صادقاً، فجمالها ليس إلى ذلك الحد الذي يجعله يهيم بمؤالفتها.. ربما كان في لمستها الأنثوية، أو في صدقها للحظة التي تجمعهما.

على أي حال..

فقد دفق كلمته تلك في آنية اللحظة، وهو بكامل ثقته وصوابه وأمانته، ولا يخفاه أنه سيأكل أنفاسه ذات وقت، لأن بداخله كلاماً طويلاً لم يقله.

فهو يريد أن يبلغها أنه يفكر أحياناً في عدد حبات الفاصوليا البيضاء، التي أكلها في حياته، ومع علمه اليقين بأن مثل هذا الأمر؛ لا يستحق الحديث، ولم تسمع بأن أحداً قد بلغ به التيه إلى حدّ يفكر فيه كم أكل في حياته من حبات الفاصوليا!

كان «عبدالله» يعلم أن المرأة عندما لا تريد أن تجيب، أو أن دواخلها معمرة بما سمعت وراضية به.. تبحث عن أي شأن في الحديث أو «تصطنع» أي فعل.

سحبت مقعدها إلى الوراء عن بساط المائدة، وقامت صامتة لتعمل الشاي.

أما هو فبقي يرتب حبات الفاصوليا أمامه في الطبق، بقطعة الخبز الجافة منتظراً عودتها العاجلة. سألته:

ـ أعرف أنك ستقول.. لا تضعي السكر في الفنجان.. لكنني تذكرت بعد أن وضعته!

ـ لا خلاف سنصنع غيره.. اجلسي.

زحزحت المقعد بقدمها قليلاً وقعدت. كان يقرأ تفاصيل جسدها المكتنز، وتمنى لو أنه أقل مما هو عليه قليلاً ليس لأنه يدوّر عن تقاسيم بدن أليف يدفن فيه وهجه الصحراوي.. بل لأنه يحب للأشياء كمالها.

وهذا أمر يتعبه في كل شؤون حياته. مدّ يده عنوة إلى جريدة خاملة على المائدة، وقرأ ذات الأشياء التي قرأها في الصباح، لكنه قال: سأرى إن كانت ستنهيه عنها وتبدأ في فتح الحديث، وبالضبط كان له ذلك.. قالت بصوتها المبحوح:

ـ ألم تقرأها في الصباح؟!

ـ بلى.

دعنا نشرب الشاي؛ ولو أن سكره قد لا يعجبك.

ـ كل شيء منك لا أستطيع رفضه. وصمت.

كان يعلم أن الطبيعة البشرية تستوجب من يتفهمها ليروضها كي تتناسب معه، وكان يستخف بكثير من الأقوال التي تؤكد أن للنساء في معرفة الطرق التي يجب الدخول منها إليهن دون مكابدة.. فهذا أمر لا يقنعه لأنه بديهي ولا يحتاج إلى معرفة عميقة، وهو ليس قصراً على النساء اللواتي نقابلهن في حياتنا، أو تجمعنا بهن جامعة ما.

رغب جداً في أن يوقع بشفتيه على رقبتها المغمورة بشعرها الداكن الغزير.. لكنه عدل.

ليس جديداً عليه.. فهو دائم التردد في مثل هذه المناسبات، وعادة ما ينهي قراراته في مثل هذا الشأن بأي كلام قليل منمق بطرفة مضحكة لا يضحك بعدها.

لقد قال: إنه مغفل.. فكيف يقول النكتة المضحكة ولا يضحك؟ ألا يفقدها أحد عناصر التدعيم الضرورية أو المشاركة؟!

***

لا شيء أصعب على المرء من أن يحمل العذاب في داخله، ثم يشارك في بناء عذاب جديد على نفقة ندمه القادم، الذي يدرك أنه سيراكم بدواخله آلاماً تكون نهايتها انفجاراً نزقًا مدهونًا بالغضب.. فيخسر كل شيء.

«عبدالله» من هذا الصنف. وعذاباته تترسب في جوانحه بمبرر لا يمكن أن يقنع به أي شخص آخر.

لقد اعتقد مراراً بأن السبب يكمن في أنه يحترم مشاعر الآخرين، ويتصور أنهم بلا غرائز. أما النتائج التي يجنيها من هذا التصور؛ فهي رضاه أحيانًا حين يشتم ذاته وهو يفكر بجد في عد حبات الفاصوليا.. بأنه «تيس» على هيئة إنسان نبيل.

تشجع هذه المرة في هذا الوعاء السكني، الذي لا يجمع سواهما، ومد بفنجانه قائلاً: السكر الزائد دليل على حلاوة صانعه، ولا بد أن يسبقني في أخذ رشفة منه. رضيت باندفاع، وابتسمت قائلة وهي تغمض عينيها:

ـ شكراً.. هذا من ذوقك.

(ذوقي.. يا له من ذوق مدجج بالعذاب والخيبة، وبالحدائق المزهرة السرية)

تساءل: هل يحبها إلى هذا المقدار الذي يجعله يغار عليها من الإفصاح بحبه؟.

و.. هي هل تقدّر فيه ذلك، أم إنها تميل قلبها عنه، لأنه لم يفض بشيء واضح؟

إن ما يتعبه أنه ذكي في تلمس بطون الأمور، ولا ينقصه إلا أن يتجرد من تلك الافتراضات الملائكية في تقدير أحاسيس الناس.. فلماذا لا يقول؟!

فجمع الترددات في دماغه، وطاف وهاج وماج، وعصر أنفاسه، وقال كلمة اقتاتت من أيامه نار حرقته..

ـ..

ـ منذ متى؟.

ـ منذ شغلني عدّ حبات الفاصوليا البيضاء.

(الآن.. هزّ «عبدالله» رسن فرسه فليمض إن كان فارساً).

ـ اسمعي..، ليس لشيء.. لأنني... فقط.

عاد إلى دواخله، ورأى أنه كان سخيفًا، وقال كلاماً استهلاكيًا ربما في مكانه، وكان عليه أن يتساءل طويلاً لماذا يحبها؟ وهل سيبقى صادقًا في قوادم الأيام؛ مثلما هو صادق في هذه الفينة؟.

(ليس مهماً أن يدور عن الدوافع.. لقد قالها الآن بصدق، وليكن ما يكون)، ولن يكون هناك من همّ، أكبر من همّ عدّ حبات الأرز، أو السكر بدلاً من الفاصوليا البيضاء.

***

«عبدالله» من شدة مراعاته، واحترامه الأمين للمشاعر، وكبته كثيراً من الانفعالات التي تتبركن في ضلوعه، فلا يلبث أن يقتات نتائجها والتي عادة ما تكون ضده، فيذهب يتفحص الأمور قائلاً: إن الواقع مجدور بالنشوة، ولم يكن هذا غائبًا عنه، غير أن المثل الشعبي القائل: «كل يرى الناس بعين طبعه».. لم يأت من مجرد نزوة فردية.. بل جاء مدعوماً بمفهوم جماعي تحاور معه عبر أجيال؛ فكان حكمة (لا تجانب القانون الحياتي في طبيعة البشر).

وقد رأى «عبدالله» بأم عينيه؛ أن هذا القول لا يجانب الصحة، وها هو ذا يغمس نواشف أرغفته في الزيت حينًا، وفي الماء والملح حينًا، ولا يقدر على جعل ذاته في غير طبيعتها.

صحيح أنه يتعمد أن يشعل سيجارته من طرفها الأسفل.. لكن هذا لا يعني أنه مقتنع بهذه النزقية العابرة.. فهو يظهر نفسه أحيانًا: أنه يجب عليه أن يكون قشورياً، أو مماثلاً للشخص الذي تربطه به علاقة ما، ويتذكر أن الحق في مخاطبة الآخرين على قدر لغاتهم ومفاهيمهم. فماذا يفعل معها؟ هل يسلخ دواخله، ليخبرها أنه يحبها أحيانًا إلى مشارف الهيام؟ وأنه من قوة ذلك، يكاد لو يخنقها من الغيظ! أليس أمراً عجيباً؟ ربما، ولكن أين وضوحه الدائم الذي يمتزج حتى بطريقة تنفسه، أو دخوله الحمام؟



لا بأس.. فعزاؤه الدائم: أنها مع جمالها الذي (يهوسه) يكمن في امرأة لا تستحق منه كل هذا العناء. فكثيراً ما قرر طردها من دمه، لضحالتها، وسطحيتها في النظر إلى الحياة، لقد تبلع غصصاً كالحجارة أو أشد قسوة عندما يتجاذبان حديثًا في شأن ما.. فتجلده بتفاهتها.

ومع أنه يحاول جهده في خلق أي مبرر يستند إليه في التلاؤم معها، فلم يقدر.

(أرأيت المرء حين يكون مبهوراً بتمثال مرمري؛ ويرغب في استنطاق عواطفه الجمالية نحوه؟)، ربما كان هذا موجوداً بشكل وافر في الحياة، لكن الناس ينهون تلك الانبهارية بالصلة الجسدية مثلاً.

أما «عبدالله» فلم يكن من هؤلاء، فالمسألة ليست متوكئة على الرغبة الجسدية، ومع أنه فكر طويلاً، ورأى أن مثل هذه الأمور يبدأ من أول هذا الخط، أو ينتهي به، لكنه سيخدع أمانة تعلقه بها.. هو يرغبها بكامل شحمها ولحمها وحرارتها، ولكنه يريد أن تكون تلك الرغبة بدافع ترتضيه هي وتتجاوب معه، لا أن يقحمه عليها بفجاجة نهائية، ثم..

ماذا يسمي تلك الحديقة الربيعية بينهما؟ هل يدوس كل أزهارها ويعبث بثمراتها؟ قال لأسئلته المضنية: إنه مغفل.

وبقي طويلاً يؤكد لدواخله، أن الأمر فيما لو فعل.. سيأخذ مجرى

عميقًا، وربما تتأصل الأمور، فالبطيخ عندما تكتمل حلاوته، ولا تمتد اليد إليه؛ فلابد أنه سيفقد نضجه المتكامل ذاك مدوراً عن آكل ولو بأي عبثية كانت.

(ألسنا نداري أشياء في حياتنا، ونغار عليها من لمسة الهواء؟! ثم نكتشف ذات لحظة مفجعة أننا رعيناها ليقطفها غيرنا، وهو دون حاجة إليها؛ وقد ضرب بكل عناياتنا عرض رغبته المحدودة).

نعم..

إنه يحسد مثل هؤلاء البشر، الذين لا يعذبون أنفسهم في تحليل دوافع الأشياء، أو حتى كنهها.

أقسم «عبدالله» أنه يتمنى لو يخنقها بعد أن يقرأ عليها مجلداً ضخماً بما يحمسه من وله وهيام متذبذب نحوها.

لم تكن غائبة عن فهم هيامه بها، وهي لا تفكر في تعذيبه، وتقدر أحاسيسه الصادقة نحوها. لكنها لم تقل يوماً تلك الكلمة التي عذبت «فارتر»، ولو افترض «عبدالله» أنها قالتها.. فماذا سيكون جوابه؟

سيظن أنه سيتعذب أكثر مما هو فيه!

كيف لا؟

ألم يدفن وجهه ويذب شفتيه في بعض ملابسها المشجبة بدولاب الملابس؟! ألم يتفنن طويلاً في البحث عن أي مقتنى يعجبها؟! ألم يقرر ذلك مراراً، ثم يستهجنها، ويصفها بالبلادة، وبأنها امرأة مرمرية لا قوام لها سوى جمالها؟!

ذلك الجمال الذي يراه هو بعينه؛ لا الآخرون، ولعل هذا في القانون البشري لذائقة البشر طبيعي.. إذن فلماذا لا ينتهي من عد حبات الفاصوليا البيضاء، أو يلتهمها في كل مناسبة دون عناء مغمض العينين!.

***

ربما وجد «عبدالله» في نفسه نوعاً من الالتزام اللذيذ.. ذلك العهد المقطوع في منمنمات وعيه.. فهو لا يحدث خاطره في يوم؛ أنه يمد يده إلى مبتغيات ليست له، تلك التي يعتبرها بعض الناس فرائس خفية لذيذة بحكم أنها بعيدة عن العيون، لا.. بل إنه يقف بعيداً عن التفكير في مثل هذا الشأن، وقد قال عن نفسه:

حتى ولو كان الطرف الأنثوي؛ هو الجاذب والواعي والراضي..

لقد حسم تلك التوازنات، وقضى ألا يزاوج بين نقاء دواخله ومغريات حوائجه الحيوانية.. تجنب مناسبات تعرضت له كانت في رأيه معهن نوعاً من استسهال الطعن في ظهور أطرافهن الذكورية الأخرى، وليس لها من معنى عنده سوى (الخيانة). الخيانة المستترة.

فالإنسان لا يتجزأ، وإذا استطاعت إقناع غلطاته بمبررات صامدة.. فإنه لا يستطيع أن يحول بين نفسه وبين الخيانات الكبرى التي تكون ضحاياها من رقاب الناس.. الوطن.. العالم، وقبل هذا مناقضته الأليمة في نبض ما بين ضلوعه.

وفكر مراراً إن كان هذا يدخل في باب المثالية التي تتغذى على طعام وحبس نزوات وغرائز الطبيعة.. فقال: إن للإنسان ميزة يختلف بها عن كونه في التعريف أو التصنيف الكائني: حيوان: فالضوابط سمة امتيازية؛ يجب أن يدركها الإنسان، ومادامت المسائل تطوف وترتجع إلى ذروة انتشاء ومضية.. فيا لغباء الحيوان المتمثل في آدميتنا! إذ إن السبل التي يمكن ارتيادها، ليست بالضرورة في عيون كل البشر واحدة، وإلا لاعتبرنا وسائلنا تبرر الغايات وعلى أي..

فـ «عبدالله» من هذا الصنف الذي لا يحبذ أن يعطس في وجوه القاعدين في وجهه، وله ما يحسب، وليس عليه ما يحتسب.

عليه..

فإن ما يجمعهما ليس على أي حساب يعذبه في حق الآخرين - فماذا يجيب على حالته تلك معها؟

شيء واحد فقط؛ تدخل في تفاصيله عشرات الأشياء؛ التي يراها غريبة منه معها.. ماذا يسميه بالتحديد غير الحب، فمرة يبلغ حدود الهيام، وأخرى يتحقّد إلى الرغبة في خنقها.. فماذا يقول العالمون في هذا الحب؟ وهل من مواصفاته هذه الصفة العجيبة؟.

إنه يعلم كما يعلم بمحتويات طعامه الموضوع على المائدة الآن.. أنها لا تقيم مع أحد خلافه من الرجال أي صلة مما يطرأ على البال، وإلا لكان نفض حواف قلبه منها.

لقد رعى «عبدالله» وراعى تلك اللازمة الشعورية بينهما، وأثبتت تلك الرعايات تأكيده لها بالحب والغيرة والغباء والوله وأشياء أخرى..

ولكن.. لماذا لا يحبها جداً إلا عندما يكون بعيداً عنها؟

ربما وجد أن مثل هذا السؤال البديهي، يحتاج إلى سلال معبأة بالإجابات؛ مثلما يحتاج إلى جواب كالفجيعة عن السبب الذي يخاطره بغيظ في خنقها.

قرر مراراً عزمه على إخراجها من لظاه، ورأى ذاته كمن يمسك بفرشاة لتنظيف ثنايا تمثال من الغبار مع الأيام.. فماذا يريد بالتحديد؟ وما هي النهاية؟

(إننا عندما نقف على خط عرض ١٢ في الكرة الأرضية مثلاً.. فعلينا أن نستجمع معارفنا المناخية؛ لنتعرف على إمكانية زرع المحصول الفلاني ومواسمه؛ لكننا لا نستطيع أن نضمن نتائج المحصول ومقدار تشابهه أو تطابقه في مناطق ذلك الخط).

بالتالي فمن الغباء أن يتصور أن الهواء لن يلامس شعرها ويعبث به، ويدخل بين كل شعرة وأخرى.. أليس هذا أمراً لا يستحق الاجتهاد؟!

غير أنه لا يريد أن يقتنع بمثل هذه البديهية الساذجة. إذن.. فليضع على قلبه راحة الكف؛ ويغمض عينيه، أو فليضرب برأسه في أقسى الجدران إن شاء.

***

سربٌ غثٌ من الأيام جرين دون لقاء هاتفي، أو ورقي، أو حضوري، فرح، فلعلها فارقت - بعزيمته مواطن اهتمامه، ويا للراحة المؤلمة!، ألا يغادر كثير من المشاعر صدورنا دون تخطيط منا؟.

نعم؛ ذلك حدث لـ «عبدالله» لكن.. لو تجمع العالم برؤوسه وقممه المؤتمرية.. فلن يستطيع أن ينتزع همس اليدين المثلتين، ونشوة عينيها الفاترتين من عروق ذاكرته.

يبقى «عبدالله».. يبقى ما بقيت المواسم تنتج حصادها، وما بقيت حبات الفاصوليا البيضاء تناسلُ فراطتها عبر نتف الأيام الذاهبة الآتية.

و.. من قال: إن كل المواسمَ سواء فقد ظلم.

جدة ١٩٩٣/٣/١م

جدة: ١٩٩٣/٣/١م

مسابقة الفيصل

شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها في فترة لا تتعدى نهاية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد ....)

طريقة الوصول إلى الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة للفائز الثالث، وقرعة أخيرة للفائز الأخير.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

الجوائز

الجائزة الأولى: ١٥٠٠ (ألف وخمسمئة ريال سعودي).
الجائزة الثانية: ٧٠٠ (سبعمئة ريال سعودي).
الجائزة الثالثة: ٥٠٠ (خمسمئة ريال سعودي).
الجائزة الأخيرة: (اشتراك لمدة عام في مجلة الفيصل).

مسابقة الشهر (العدد ٢٧٩)

ضع علامة ☑ أمام الإجابة الصحيحة:

(١) أبو الغمر المدني ☐ عالم فلك عربي ☐ شاعر تولى الكتابة للحسن بن زيد العلوي.

(٢) أول من حج ماشيًا من ملوك الدنيا ☐ هرقل بن هرقل بن أنتونيوس ☐ هارون الرشيد.

(٣) ذكرت كلمة فضة في القرآن الكريم ☐ ٨ مرات ☐ ٦ مرات.

(٤) من قائل هذا البيت:

أظمتني الدنيا فلما جئتها مستسقيًا مَطَرَت عليَّ مصائبا ☐ المعري ☐ المتنبي.

(٥) أول صورة فوتوغرافية التقطت في المملكة العربية السعودية ☐ عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦١م ☐ ١٣٠٥هـ/١٨٩٩م.

الاسم: **ص.ب:**

العنوان: **الرمز البريدي:**

المدينة: **هاتف:**

الدولة: **ناسوخ:**

عنوان المجلة:

ص.ب(٣) - الرياض ١١٤١١ ــ المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ ــ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

جاهز عام 2000

استعداد تام لمشكلة عام 2000

نحن في البنك السعودي البريطاني ملتزمون تماماً بتوافق أجهزة الحاسب الآلي لدينا مع مشكلة عام 2000. ومن هذا المنطلق تم اختبار وتعديل جميع أنظمة الحاسب الآلي الهامة لدينا للتأكد من عدم حدوث أي انقطاع في خدماتنا عند دخول الألفية الجديدة.

ونغتنم هذه الفرصة للتأكيد لعملائنا الكرام بأن حساباتهم مع ساب بأيد آمنة وبأننا على أتم الاستعداد لعام 2000. فبقدوم الألفية الجديدة فإن العمل سيبقى طبيعياً كما كان.



البنك السعودي البريطاني
The Saudi British Bank
معك حول العالم

مقدمة في الأدب الإسلامي المقارن

الطاهر أحمد مكي

مراجعة: **عبده عبود**

كتب الدكتور الطاهر أحمد مكّي في مقدمة كتابه «الأدب المقارن ـ أصوله وتطوره ومناهجه» «سوف يلحظ القارئ أنّ الأمثلة الأوروبية كثيرة، أكثر مثلاً من الأمثلة الإسلامية، وهو أمر يؤسف له، ولم يكن بوسعي التغلب عليه، لأن آداب الشعوب الإسلامية مجهولة لنا»(١). ولا ندري ما المقصود به بهذه «اللنا»، أهو المؤلف نفسه، أم القراء العرب؟ ولكن يبدو لكاتب هذه السطور أن ذلك الشعور بالتقصير تجاه الشعوب الإسلامية قد كان وراء قيام الدكتور مكي بتأليف كتاب جديد، يدور حول تلك الآداب تحديداً، ألا وهو كتاب «مقدمة في الأدب الإسلامي المقارن»، الذي صدر في القاهرة قبل سنوات قليلة، وهو الكتاب الذي خصصنا له هذه الوقفة النقدية(٢). وفي «الكلمة» التي صدّر بها المؤلف كتابه يقول: «وأعترف أنني، والأدب وتاريخه، ودراسة الأدب المقارن، هوايتي وحرفتي، لم أدرك أن الآداب الإسلامية تنطوي على كل هذا القدر من الرونق والبهاء، ومن التشابه في الظواهر، وتقارب الحركات، والأخذ والعطاء فيما بينها»(٣).

شراكة الماضي والمستقبل

ويبدو أن هذا الاكتشاف المفاجئ قد أضيف إلى الشعور بالتقصير، في تحفيز الدكتور مكي إلى تأليف هذا الكتاب، الذي يراد منه أن يساهم في تصحيح مسار الدراسات العربية المقارنة التي اندفعت إلى دراسة علاقة الأدب العربي بالآداب الأوروبية والغربية، وأدارت ظهرها لآداب الشعوب الإسلامية، شريكة العرب في التاريخ والمصير. ولا بأس هنا من التذكير بأن الدكتور مكي نفسه قد درس الأدب المقارن في إسبانيا انطلاقاً من دراسة العلاقات الأدبية العربية الإسبانية، وسار في طريق الدراسات العربية الأوروبية المقارنة عندما بدأ جهوده الأدبية المقارنة بدراسة حول «ملحمة السيّد» القشتالية(٤). ومن المؤكد أن انعطاف الدكتور مكي نحو آداب الشعوب الإسلامية أمر مشروع تماماً. فقد انجرف الأدب العربي المقارن ردحاً طويلاً من الزمن نحو الغرب، وذلك لأسباب معروفة، في مقدمتها انتشار اللغات الأوروبية الأجنبية في الوطن العربي، وتخرّج القسم الأعظم من المقارنين في الجامعات الأوروبية والأمريكية(٥)، وخضوع الوطن العربي للهيمنة الثقافية الغربية المباشرة في مرحلة الاستعمار، وغير المباشرة في عصر ما بعد الاستعمار(٦). فالمسعى مشروع إذن، وله ما يسوّغه. إنّ آداب الشعوب الإسلامية آداب شعوب شقيقة وجارة تجمعنا بها أواصر كثيرة، لا تقتصر على الدين والتاريخ المشترك، بل تمتد إلى الحاضر والمصالح المشتركة. فنحن شركاء في كوننا ضحايا الإمبريالية الغربية، التي احتلت بلادنا ومزقتها ونهبتها وأقامت فيها كيانات سياسية مصطنعة. وساعدت على إقامة بؤرة توتر وتوسع وعنصرية في قلب وطننا. ونحن شركاء في المصير في مرحلة ما بعد الاستعمار. فقد انتهى الاستعمار المباشر، ولكن الاستعمار غير المباشر، الاستعمار الجديد، مازال يهيمن على شعوبنا، ويسيطر على ثرواتها، ويربطها بنظامه (الإمبريالي) العالمي، الذي يقوم هو فيه بدور المركز الغني القوي المهيمن، ونقوم نحن فيه بدور الهامش الفقير



مقدمة في الأدب الإسلامي المقارن

د. الطاهر أحمد مكي

القاهرة، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٤م

الضعيف المتخلف التابع المستهلك، الذي تستنزف ثرواته، وتنتشر فيه المجاعات، ويعمّه الخراب والدمار، وترهق كاهله الديون وفوائد الديون، ويحكم بوسائل قمعيّة دكتاتورية، وتتفسخ كياناته الوطنية، وتتفشى فيه الحروب الأهلية والحدودية. فالعرب والشعوب الإسلامية الأخرى شركاء في «الهم الاستعماري وما بعد الاستعماري»، وهذه الشراكة لا تقلّ أهمية عن الشراكة الدينية والتاريخية، لأن الأولى شراكة الحاضر والمستقبل، بينما الأخيرة شراكة الماضي. ونحن لا نريد أن نفاضل بين الشراكتين، ولكننا لا نريد أن تستأثر إحداهما باهتمامنا وجهودنا على حساب الأخرى.

ما الأدب الإسلامي؟

لا يستطيع المرء إلاّ أن يسلم مع الدكتور مكي بضرورة أن تدرس آداب الشعوب الإسلامية بطريقة مقارنة، وتلك هي المهمة التي ندب المؤلف نفسه لتحقيقها. فكيف فعل ذلك؟

ترى هل تخلّى الدكتور مكّي عن الأساس الذي اعتمده علماء الأدب المقارن على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم في تحديد هوية أي أدب قومي، ألا وهو الأساس اللغوي؟

لا بدّ أولاً من ملاحظة أنّ الدكتور مكي قد عنون كتابه بـ «مقدمة في الأدب الإسلامي المقارن»، وهذا يعني أنّ هناك أدباً إسلاميًا واحداً تتمّ مقارنته بآداب مختلفة عنه، أي غير إسلامية. إنّ عنوان الكتاب لا يحتمل تفسيراً آخر. فما الأدب الإسلامي الذي يتحدث عنه الدكتور مكي؟ يقول المؤلف بصدد هذا: «من الخطأ أن نفهم من الأدب الإسلامي ما كتبه عرب حول قضايا إسلامية، وإنما ما أبدعه مسلمون أيان كانوا، وأيًا كانت لغتهم»(٧). وهذا يعني أن المعيار الذي بموجبه يحدد الدكتور مكي هوية الأدب هو المعيار الديني، أي الإسلام، الذي انتشر في مناطق مترامية الأطراف.. يتباين أهلوها لوناً وحضارة، فوحّد الإسلام بين قلوبهم، وأقام بينهم رابطة فكرية أقوى من أي رابطة أخرى، ووحّد مصادر ثقافتهم الأساسية، ومن ثم فإنّ ردّ أفعالهم تجاه مشكلات الحياة يجيء متقارباً إن لم يكن واحداً..(٨). لقد حدد الدكتور مكي هنا، وبوضوح لا يدع مجالاً للبس، أنّ هناك أدباً إسلامياً واحداً يأخذ في كل بيئة لوناً، ويكتسي مع كل حضارة زيًا، ويتشكل في كلّ عصر بما يلائمه(٩).

تناقص جذري

ترى هل تخلّى الدكتور مكّي بذلك عن الأساس الذي اعتمده علماء الأدب المقارن على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم في تحديد هوية أي أدب قومي، ألا وهو الأساس اللغوي؟ إنّ الشواهد التي أوردناها آنفاً تدلّ على أن ذلك قد تمّ. ولكن الدكتور مكي لا يمضي طويلاً في هذا الطريق، بل يضيف: «ومن بديهيات الأدب المقارن أن يقسّم الآداب بحسب اللغة التي كتبت فيها.. ولا تجري المقارنة بمفهومها العلمي إلا بيّن أدبين كلّ منهما ينتمي للغة وتختلف عن لغة الأدب الآخر»(١٠). وبذلك عاد الدكتور مكي إلى الطريقة التي يتبعها المقارنون في تقسيم الآداب، أي إلى المعيار اللغوي، وكأن ليس هناك أي تناقص بين المعيارين الديني واللغوي، علماً بأن التناقض بينهما جذري. فإذا انطلقنا من المعيار الديني في تحديد هوية الأدب وتقسيم الآداب، يترتب على ذلك أن هناك أدباً إسلاميًا واحداً. أما إذا انطلقنا من المعيار اللغوي، فإنه يترتب على ذلك أن هناك آداباً متعددة، على عدد اللغات الموجودة في العالم الإسلامي. ولكن الدكتور مكي يتجاهل هذا التناقض، فيتحدث عن «أدب إسلامي» تارة، وعن «آداب إسلامية» و«آداب الشعوب الإسلامية» تارة أخرى، وكأن لا فرق دلاليًا بين المفرد والجمع، وبين الأدب والآداب، وتلك ثغرة منهجية، تدلّ على تراجع الوعي المنهجي لباحث ألّف قبل سنوات قليلة كتابًا عنوانه: «الأدب المقارن - أصوله ومناهجه». فالمقارنة لا يمكن أن تكون داخل أدب واحد، بل بين آداب متعددة، هي في هذه الحالة آداب الشعوب الإسلامية.

ولكن هل بوسع باحث واحد أن يدرس تلك الآداب كلها دراسة مقارنة؟ بهذا الخصوص يؤكد الدكتور مكي أن دراسته «لاترمي إلى استقصاء نقط التلاقي بين الآداب الإسلامية ذات اللغات المختلفة، والتي تصلح مجالات للأدب المقارن، ذلك شيء فوق طاقتي، وبحسبي أن أقدم المثل..»(١١). ويضيف المؤلف في موضع آخر من مقدمة كتابه: « أعترف أن الغاية كانت ضخمة، وأكبر من جهودي فرداً، ولكنّ انتظارَ أن نجد الفريق، أو المؤسسة التي تضطلع بهذا العمل الملحّ والضروري، ربما يجعلها بعيدة عن التناول عشرات الأعوام القادمة»(١٢).

الاتجاه نحو الهدف

ولا نظنّ أن أحداً يختلف مع الدكتور مكي حول مسألة «أنّ في الحركة بركة، ولأن تضيء شمعة خير من أن

تلعن الظلام ألف مرّة»(١٣). وإنما الأمر الذي يمكن أن يختلف حوله هو طبيعة تلك «الحركة» وكيفية إضاءة تلك الشمعة. فكيف تحرك المؤلف باتجاه هدفه العلمي؟ لقد بدأ ذلك التحرك بفصل قصير، عرض فيه بصورة مقتضبة وأفقية وحماسيّة تاريخ انتشار الإسلام في العالم، منطلقاً في ذلك من أن انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية قد شكّل مقدمة للتفاعلات التي تمت لاحقاً بين آداب الشعوب الإسلامية. وبعد هذا العرض التاريخي أورد المؤلف عدّة فصول خصص كلاً منها لتعريف إحدى اللغات الإسلامية وآدابها. فبدأ باللغة العربية وآدابها، وقدّم عنها معلومات أساسية ومعروفة للجميع. وإذا تذكرنا حقيقة أنّ هذا الكتاب موجّه إلى متلقين عرب، اكتسبوا المعلومات التي أوردها الدكتور مكي في هذا الفصل في أثناء تعليمهم أو بجهودهم الخاصة، يصبح من حقنا أن نتساءل عن جدوى هذا الفصل ومسوغات وجوده. ولئن صحّ أن القراء العرب لا يعرفون شيئاً عن آداب الشعوب الإسلامية الأخرى (وهذه مبالغة)، إن من المؤكد أنهم يعرفون شيئاً عن لغتهم وأدبهم العربيين. أما الفصل الثاني المعنون بـ «رحلة الخط العربي بين اللغات الإسلامية» فهو يحوي معلومات تاريخية مبسطة ووجيزة حول هذه المسألة، ويدخل محتواه في باب تاريخ اللغات. إلاّ أن رحلة الخط العربي كانت في الوقت نفسه رحلة للنصوص الدينية الإسلامية وللأدب العربي. ولذا، فإن هذا الفصل مفيد في إضاءة علاقة الأدب العربي بآداب الشعوب الإسلامية الأخرى.

وخصص المؤلف الفصل التالي من كتابه لتعريف اللغة الفارسية وآدابها، تلك اللغة التي تلي العربية من حيث الأهمية، فقدم عرضاً شديد الإيجاز لتطوّرها، وعرّف أبرز الأدباء الفرس القدامى بطريقة معجمية، دون أن يشير إلى المراجع التي استقى منها معلوماته. إلا أن الدكتور مكي لم يتطرق إلى تطور اللغة الفارسية وآدابها في العصر الحديث الذي بدأت فيه الصلات الأدبية واللغوية بين إيران والعالم العربي.. وبدأت الترجمة تتمّ من اللغات الأوروبية إلى الفارسية، وأعلن بهذه المناسبة أنه لن يتوقف طويلاً عند هذه المرحلة في أيّ من الآداب الإسلامية، لتشعبها وتعقدها(١٤).

لماذا التجاهل؟

وبالفعل فإن المؤلف يعرض بالطريقة نفسها تاريخ اللغة التركية وآدابها، والأوردية وآدابها، والآداب الإسلامية في إفريقية غير العربية، والأدبين الإندونيسي والألباني، ويتجنب أيّ تطرق إلى أوضاع تلك اللغات والآداب في العصر الحديث، بحجة أنها «متشعبة ومعقدة». ولكن هل كانت أوضاع لغات الشعوب الإسلامية في العصور القديمة بسيطة وغير متشعّبة؟ لقد لجأ الدكتور مكي بهذا الخصوص إلى حجة غريبة حقاً، ومارس من الناحية العلمية ما يمارسه بعض المستشرقين، الذين يقصرون جهودهم على دراسة الثقافات الشرقية القديمة، ويتجاهلون الثقافات الشرقية الحديثة، ومنها الثقافة العربية، متعاملين مع الشعوب الشرقية كشعوب ذات ثقافات قديمة عريقة، ولكنها لم تساهم في صياغة الثقافة العالمية الحديثة. صحيح أن الدكتور مكي، خلافاً لأولئك المستشرقين، لا ينكر أن للشعوب الإسلامية لغات وآداباً حديثة، ولكنه يحجم عن تعريفها «لتشعبها وتعقدها». لقد كنا نفضل أن يفعل الدكتور مكي عكس ما فعله، وذلك بأن يعطي الأولوية لتعريف القارئ العربي بآداب الشعوب الإسلامية ولغاتها الحديثة والمعاصرة، لأنّ تلك الآداب أقدر على خدمة الهدف الذي وضعه المؤلف لكتابه: «أن نلتقي جميعاً على الخير، وأن يعرف بعضنا بعضاً على نحو أفضل»(١٥). إنّ لنا مصلحة ثقافية واجتماعية وسياسية في أن نتعرف الشعوب الإسلامية المعاصرة، وأن نتعاون معها في التغلب على التركة الاستعمارية وعلى تحديات مرحلة ما بعد الاستعمار، وهذا لا يتحقق إذا اكتفينا بالتعرف إلى التاريخ القديم للغات تلك الشعوب وآدابها وأعرضنا عن تاريخها الحديث.



الطاهر أحمد مكي

بعد هذه الفصول التي عرف فيها المؤلف قرّاءه بالتاريخ السياسي واللغوي والأدبي القديم للشعوب الإسلامية، انتقل إلى مواضيع أكثر قرباً إلى الأدب المقارن، وأوثق صلة به، فأورد فصلاً طويلاً عن الموروث الديني المشترك بين الآداب الإسلامية، وتطرّق إلى ثلاثة مواضيع، أولها «قصة الإسراء والمعراج» التي أفاض في عرضها، و«القصص القرآني» الذي التقطه الأدباء في مختلف لغات العالم الإسلامي.. فصاغوه فنياً في أنواع أدبية مختلفة..(١٦). ومن أهم تلك القصص قصة

«يوسف وزليخا»، التي كانت من أكثر الموضوعات التي طرقها الرومانسيون في الآداب الإسلامية(١٧). أما ثالث عناصر ذلك الموروث الديني فهي «مراثي أهل البيت: الحسين وكربلاء». وعموماً فإنّ هذا الفصل مهمّ من زاوية الأدب المقارن، التقليديّ على الأقل، لأنه يتناول أحد المجالات التقليدية لهذا العلم، ألا وهو انتقال الموضوعات والمواد الأدبية من أدب إلى آداب قومية أخرى. إلاّ أن ما يؤخذ على هذا الفصل أيضًا نزوع المؤلف إلى الاستطراد. فقد سرد قصتي «الإسراء والمعراج» و«يوسف وزليخا» بتفصيل لا مسوّغ له، لأن هذا الموروث الديني الإسلامي معروف لكل الناس، حتى لغير المتعلمين.

يعقب هذا الفصل فصل قصير عنوانه: «الأخذ والعطاء في المجال الأدبي»، وفيه يعرض المؤلف تأثر الآداب الإسلامية، بعضها ببعض، وذلك فيما يتعلق بالعروض والموشحات والمقامات وقصص كليلة ودمنة. وفي هذا الفصل أيضًا يستطرد المؤلف ويطيل ويفصّل حيث لا مسوّغ لذلك، ويقتضب ويوجز حيث يكون التفصيل ضروريًا. فقد أطال الحديث عن الموشح والمقامة في الأدب العربي، ولكن كلامه كان مقتضباً عندما تحدث عن الموشح والمقامات في الآداب الإسلامية الأخرى.

أدب لا يعرف الحدود

ويختم المؤلف كتابه بفصل قصير حول «المأثورات الشعبية» في الآداب الإسلامية، فيتحدث عن ثلاثة من تلك «المأثورات» هي: «مجنون ليلى» و«ألف ليلة وليلة» و«جحا». ولا ندري لماذا وصف الدكتور مكي تلك النتاجات الأدبية الشعبية بالمأثورات، ولكن المهمّ في الأمر هو أنه قد بيّن أن تلك «المأثورات» موجودة في آداب إسلامية مختلفة تقارضت فيما بينها على هذا الصعيد. فقد ظهرت شخصية «المجنون» في ثلاثة آداب إسلامية كبرى، هي الأدب العربي والأدب الفارسي والأدب التركي، وساهمت عدة شعوب إسلامية (وغير إسلامية) في صياغة حكايات ألف ليلة وليلة، والتقى «جحا» العربي و«نصر الدين» التركي وتقارضا «لأن الأدب الشعبي لا يعرف الحدود»(١٨).

وبحديثه عن جحا أنهى الدكتور مكي كتابه «مقدمة في الأدب الإسلامي المقارن» دون أن يزوده بخاتمة يستخلص فيها ما يمكن أن يستخلص من استنتاجات ونتائج. ترى لماذا استغنى المؤلف عن الخاتمة؟ ألأن الكتاب مجرد «مقدمة»، وأن عرض لغات الشعوب الإسلامية وآدابها بصورة أولية تعريفية لا يسمح باستخلاص أية نتائج؟

معلومات مفيدة وثغرات كبيرة

وبعد: فإن فكرة كتابة تاريخ مقارن لآداب الشعوب الإسلامية فكرة صائبة، إن من الناحية العلمية، وذلك لوجود علاقات جوهرية بين تلك الآداب، أو لاعتبارات ثقافية واجتماعية وسياسية، تتلخص في حاجة الشعوب الإسلامية إلى التعارف بوساطة آدابها. إلاّ أن أفضل الأفكار لا يحقق النتائج المرجوّة إلا إذا طُبق ونفذ بصورة مناسبة. إنّ كتاب «مقدمة في الأدب الإسلامي المقارن» ينطوي على معلومات مفيدة، خصوصًا للقارئ غير المتخصص الذي يوّد أن يكوّن لنفسه فكرة عن آداب الشعوب الإسلامية. إلا أنه لا يمكن التغاضي عن حقيقة أن هذا الكتاب ينطوي على ثغرات كبيرة، قلّلت فائدته، وجعلته أقل قدرة على تحقيق الهدف الذي يطمح إليه المؤلف. وفي مقدمة تلك الثغرات تراخي الوعي المنهجي بشقيه النظري والتقني. ففي الأدب المقارن، عالميًا وعربيًا، اتجاهات ومدارس مختلفة، لكلّ منها أسسه النظرية وإجراءاته التطبيقية، وهذا يحتم على الباحث المقارن أن يحدد المنهج أو المذهب الذي يريد اتباعه في دراسة موضوعه: أهو المذهب التاريخي، أو الفرنسي التقليدي (دراسات التأثير والتأثر)؟ أم هو المنهج النقدي (الأمريكي) الذي لا يقيم للتأثير والتأثر وزنًا، ويعد نفسه ضرباً من ضروب النقد الأدبي، ويدرس علاقة الأدب بالفنون وأشكال الوعي الإنساني الأخرى؟ أم هو المذهب الماديّ الجدليّ الذي يعيد التشابه بين الآداب إلى تشابه في في البنى الاقتصادية والاجتماعية للمجتمعات؟ أم هي نظرية التلقي الأدبي التي ترجع ظواهر التأثير والتأثر إلى التلقي الإبداعي المنتج؟(١٩).

ولئن صحّ أن القراء العرب لا يعرفون شيئًا عن آداب الشعوب الإسلامية الأخرى (وهذه مبالغة)، إن من المؤكد أنهم يعرفون شيئًا عن لغتهم وأدبهم العربيين

لم يصرح المؤلف بالمنهج أو المذهب الذي اتبعه في كتابه، ولكن واقع الدراسة يدلّ على أنّه قد انطلق من

المنهج التاريخي التقليدي (الفرنسي). ومن حقّ أي باحث مقارن أن يختار منهجه، شريطة أن يعلن ذلك بوضوح وأن يتقيد بذلك المنهج، وهذا ما لم يفعله المؤلف. ولعل التساهل المنهجي هو ما أوقعه في التباسات مصطلحية خطيرة، كحديثه عن «أدب إسلامي» بدلاً من «آداب الشعوب الإسلامية». أما التهاون في الأمور المنهجية بالمعنى التقني للكلمة فقد تجلّى في عدم إحالة المقبوسات والشواهد والمعلومات والأفكار إلى مصادرها ومراجعها، والاكتفاء بإيراد قائمة بالمراجع والمصادر في آخر الكتاب، وهذه طريقة غير مقبولة في التأليف العلمي، مهما كانت الأسباب والمسوّغات، ويظل الباحث العلمي مطالبًا بأن يحيل إلى المصادر والمراجع عندما يستشهد أو يقتبس أو يقترض معلومة أو فكرة. فهذه بدهية من بدهيات البحث العلمي، وأحد مقتضيات الأمانة العلمية، وعندما يتخلى الباحث عن مسلّمة كهذه لن تجديه أقوال كقول الدكتور مكي: «في هذا الكتاب ما هو من جهدي خالصًا، وهو الأكثر، وما كنت فيه عالة على غيري، وهو الأقل»(٢٠).

فالتوصّل إلى استنتاج كهذا من شأن القارئ. أما المؤلف فمن واجبه أن يحيله بصورة دقيقة، وفي حواشٍ أو هوامش، إلى المصادر والمراجع التي أخذ منها أفكاراً أو معلومات. إنها مسلّمات اضطرنا المؤلف إلى التذكير بها.

استطرادات مفرطة

أما الثغرة المنهجية الكبيرة الثانية التي ينطوي عليها الكتاب فتكمن في النزعة الاستطرادية المفرطة. لقد أنفق المؤلف مساحة واسعة من كتابه على استطرادات حول مواضيع معروضة في مراجع كثيرة أخرى، وعلى إعادة عرض البدهيات والمسلمات، بينما اقتضب وأوجز واختصر عند قيامه بعرض موضوعات تتطلب التوسّع والتفصيل، لأنها تدخل في صميم الدراسة المقارنة للآداب. ومهما تكن مسوّغات هذه الظاهرة فإنها أفقدت الكتاب طابع التأليف المنهجي المركز.

يقول الدكتور مكي حول كتابه: «أظنها المحاولة الأولى، ولم تسبق على هذا النحو الذي جاءت فيه»(٢١). قد ينطبق ذلك على الدراسات المقارنة في الوطن العربي، التي لم تُولِ الآداب الإسلامية، ومقارنتها كبير اهتمام، ولكن من المؤكد أنه لا ينطبق على الدراسات الاستشراقية الأوروبية والغربية. فالدراسات الغربية التي تتناول الآداب الإسلامية ككل كثيرة جداً. ومهما يكن من أمر فإننا نأمل أن تعقب هذه «المحاولة» محاولات وجهود أخرى، تدرس العلاقات بين الآداب الإسلامية وتستقصي أوجه التشابه والاختلاف بينها. ونأمل أيضًا ألا تقتصر الدراسات المقارنة المرجوة على العصور القديمة من تاريخ الآداب الإسلامية، بل أن تعطي المراحل الحديثة من تاريخ الآداب ما تستحق من اهتمام. أما كتاب «مقدمة في الأدب الإسلامي المقارن» فهو ينطوي على جهد علميّ طيّب ومحمود، ولكننا نتمنى أن يعيد النظر فيه بصورة جدّية في الطبعات القادمة، بدءاً بالعنوان الذي نقترح أن يكون «مدخل مقارن إلى الآداب الإسلامية». فوجود مؤلفات كهذا المؤلف أمر ضروري، وذلك بعد أن تأسست «منظمة المؤتمر الإسلامي» و«المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة» وغير ذلك من المنظمات والمؤسسات الرسمية والأهلية التي اتخذت من الإسلام منطلقًا لها. ومن هذه الناحية يمكن القول إن هذا الكتاب قد جاء في الوقت المناسب، وشكّل محاولة لمواكبة ما تمّ حديثًا في العالم الإسلامي من تطورات فكرية وسياسية، فسدّ بذلك ثغرة في المكتبة العربية.

المراجع

١ـ القاهرة، «المعارف» ١٩٨٧م، ص٧.
٢ـ القاهرة، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٤م.
٣ـ نفسه، ص٦.
٤ـ ملحمة السيد ـ دراسة مقارنة، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٧٣م.
٥ـ راجع بهذا الخصوص سعيد علوش. مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، بيروت، دار الفكر اللبناني ١٩٨٦م؛ وفيه يجد المرء أوسع عرض لنشوء الأدب المقارن العربي وتطوره. راجع أيضًا الطاهر أحمد مكي: الأدب المقارن، ص١٧١ ـ ١٩٣.
٦ـ ترجع بلورة هذه الفكرة إلى الناقد والمقارن العربي ـ الأمريكي إدوارد سعيد ـ راجع كتابه: الإمبريالية والثقافة، ترجمة د. كمال أبو ديب، بيروت، دار الآداب، ط١، ١٩٩٨م.
٧ـ الطاهر أحمد مكي: مقدمة في الأدب الإسلامي المقارن، ص٣.
٨ـ م. ن. ص. ن.
٩ ـ م. ن. ص. ن.
١٠ـ م. ن. ص٤ وما يتبعها.
١١ـ م. ن، ص٥.
١٢ـ م. ن، ص٦.
١٣ـ م. ن، ص٧.
١٤ـ م. ن، ص١٨٣.
١٥ـ م. ن، ص٧.
١٦ـ م. ن، ص٣٧٦.
١٧ـ م. ن، ص٣٨٩.
١٨ـ م. ن، ص٤٥٣.
١٩ـ راجع بهذا الخصوص بحثنا: الأدب المقارن والاتجاهات النقدية الحديثة، مجلة «عالم الفكر»، مج٢٨، العدد الأول، يوليو ـ سبتمبر / تموز ـ أيلول ١٩٩٩م.
٢٠ـ الطاهر أحمد مكي: مقدمة في الأدب الإسلامي المقارن، ص٧.
٢١ـ م.ن، ص٦.

إشكالية الهوية في إسرائيل

رشاد عبدالله الشامي **مراجعة: أحمد أبو زيد**

تعدّ مشكلة الهوية من المشكلات التي تسبب إزعاجًا لليهود منذ أكثر من قرنين من الزمان، فقد عاش اليهود في أرجاء الشتات اليهودي، وبخاصة في كل من غرب أوربا وشرقها ووسطها، في إطار منعزل عن المجتمعات التي يعيشون فيها، وعمّق هذا النمط من الحياة الإحساس لدى اليهود بأن هذا الانعزال هو درع الأمان للحفاظ على الطائفة اليهودية وشريعتها.

وقد ظل الدين اليهودي على هذا النحو منذ القرن الثاني ق.م حتى منتصف القرن الثامن عشر بمنزلة العامل الرئيس في توجيه حياة اليهود، وكانت الهوية اليهودية بالمفهوم الديني هي التي تحدد انتماء اليهودي المنعزل.

ولقد بدأت إشكالية الهوية بالنسبة إلى اليهود مع عملية «العلمنة» في بداية القرن الثامن عشر عندما قامت حركة «التنوير اليهودية» بإزاحة الدين اليهودي من موقعه كمحدد رئيس لمسألة الانتماء بين اليهود، وطرحت الحل الاندماجي في المجتمعات التي يعيش فيها اليهود، على أن ينحصر الدين في المنزل والمعبد.

ثم جاءت الصهيونية وطرحت الحل الخاص بإقامة «وطن قومي» لليهود في فلسطين دون أن تنتبه إلى مغزى إشكالية الهوية التي ستواجهها، ولذا لم تطرح لها حلا مقبولا، ومع قيام دولة إسرائيل واجهت الدولة معضلات وصراعات متعددة؛ إذ واجهت معضلة الصراع العربي - الإسرائيلي الذي لم توضع له نهاية بعد، وواجهت معضلات داخلية وصراعات ظلت تتفاقم على مدى عمر الدولة إلى أن بلغت ذروتها، كالصراع بين الدينيين والعلمانيين، والصراع الطائفي والثقافي بين المهاجرين اليهود من دول مختلفة، والصراع بين العقدي المبني على الأساطير، والسياسي الواقعي المبني على المصالح.

وأدّت هذه الصراعات إلى تفتت النموذج الإسرائيلي بين ثقافات وطوائف وقوميات ومواقف متصارعة حول هوية الدولة، وطرحت آراء كثيرة لتحديد ماهية هذه الهوية: أهي كنعانية؟ أم يهودية دينية؟ أم يهودية علمانية؟ أم إسرائيلية؟ أم عبرية؟.. وما زال الصراع قائمًا حتى اليوم من دون حسم.

وكتاب «إشكالية الهوية في إسرائيل» الذي صدر مؤخرًا ضمن سلسلة «عالم المعرفة» للدكتور رشاد عبدالله الشامي رئيس قسم اللغة العبرية وآدابها بكلية الآداب - جامعة عين شمس «مصر» ناقش هذه القضية، والأبعاد المختلفة لها، وقصة الصراع القائم حولها.



٢٢٤

إشكالية الهوية في إسرائيل

تأليف: د. رشاد عبدالله الشامي

إشكالية الهوية في إسرائيل

د. رشاد عبدالله الشامي

الكويت، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٧م

وهذا الكتاب يعد من الكتب غير المسبوقة في تناول هذه القضية باللغة العربية حيث يسد فراغًا معرفيًا لدى القارئ العربي فيما يتصل بصراع التيارات الثقافية والسياسية والفكرية في إسرائيل حول قضية الهوية.

ويشير المؤلف في مطلع كتابه إلى أن مشكلة الهوية في إسرائيل بدأت مع ظهور التيارات الرئيسة في اليهودية في بداية القرن الثامن عشر وهي اليهودية الأرثوذكسية واليهودية الإصلاحية واليهودية المحافظة التي اختلفت فيما بينها حول مغزى الدين ومضامينه وفرائضه والعلاقة بين الدين والقومية، وبين الإيمان والفرائض، وحول ماهية العلاقات بين اليهود وغير اليهود، وغيرها من القضايا، وذلك في ضوء ظهور قطاع عريض من اليهود العلمانيين الذين أخذوا موقفًا رافضًا من الدين.

العلمنة في المجتمع اليهودي

كانت عملية العلمنة في المجتمع اليهودي إحدى الظواهر المهمة التي يمكن في ضوئها فهم الكثير من التحولات الرئيسة التي حدثت في المجتمع اليهودي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

وهكذا - كما يؤكد المؤلف - أصبح هناك اتجاهان متعارضان: الأول يحاول أن يعيد العجلة إلى الوراء، ويعيد العلمانيين إلى دين آبائهم، وهو الاتجاه الذي عبرت عنه اليهودية الدينية، وكانت تهدد العلمانيين بالعقاب الديني إن لم يثوبوا إلى رشدهم، والثاني يحاول أن يدفع عجلة التغيير إلى الأمام ليؤثر في الدينيين لكي يتكيفوا مع تغيرات العصر، ويتبنوا بدلا من الدين، إطاراً مشتركاً جديداً يمكن لكل اليهود أن يقبلوه.

ظهور الحركة الصهيونية

وعندما ظهرت الحركة الصهيونية وطرحت الحل القومي للمشكلة اليهودية، الذي جذب كثيراً من اليهود وراءه، لكنه لم يكن هو الحل الوحيد المطروح لهذه المشكلة، حيث كانت هناك أبدال مثل «الحكم الذاتي» و«الإقليمية» و«الاندماجية».

وقد جذبت الصهيونية قطاعاً عريضاً من العلمانيين اليهود، وقطاعاً هامشياً من الدينيين، حيث رفضها المتشددون دينياً، وكانت الصهيونية هي الحل في نظر العلمانيين لإضعاف مكانة الدين في حياة اليهود في ظل دولة متنورة ومتحررة (ليبرالية) تفصل بين الدين والدولة، وتحصر الدين في إطار حرية الفرد، وتوجد «عبرياً» جديداً بدلا من «اليهودي الشتاتي» المرفوض بقيمه وسلوكه ولغته وتراثه الديني الجامد، ونظرت الصهيونية بشكل رافض إلى وجود اليهود بين الشعوب ورفعت شعار «رفض الشتات».

وعندما قامت دولة «إسرائيل» عام ١٩٤٨م أصبح هناك بديل ثالث جديد لمشكلة الهوية القومية وهو «الهوية الإسرائيلية» التي اقترحت تأسيس الهوية على الانتماء للإطار السياسي المدني: أي للدولة، وأعلنت الحرب على الهويتين السابقتين: الدينية والقومية.

الصراع حول الهوية

وعرض المؤلف في كتابه أبرز أحداث التوتر والصراع التي برزت بعد قيام دولة «إسرائيل» وأدت دوراً في إيجاد إشكالية الهوية هناك، ومنها التنوع الثقافي والعرقي بين المهاجرين اليهود من شتى بلدان العالم، فهذا التنوع أشعل التنافس الحاد بين الجماعات الثقافية المتعددة، وأوجد صراعاً طائفياً انتهى في الثمانينيات إلى إقامة أحزاب سياسية على أساس طائفي لأول مرة في تاريخ إسرائيل.

ثم أتى ازدياد المد الديني بعد حرب ١٩٦٧م وظهور اليهود المتدينين على الساحة، ودخولهم الأحزاب السياسية لتأكيد هوية الشعب اليهودي على أساس ديني بحت، إلى جانب التغير المستمر في الثقافة السياسية المهيمنة، والتحالفات السياسية، وقد برزت نتائج ذلك كله في يونيو/حزيران ١٩٦٧م بصعود «الليكود» مع تحالفاته اليمينية الصهيونية والدينية المتطرفة إلى الحكم، والانقسام بين القوى السياسية حول مصير الأراضي المحتلة بعد ١٩٦٧م.

فالقوى المتطرفة ترى أن على إسرائيل إعلان سيادتها على جميع الأراضي المحتلة لأسباب دينية، وحل مشكلة الشعب الفلسطيني عن طريق «الترحيل» عنوة خارج البلاد، والقوى اليمينية الصهيونية وعلى رأسها «الليكود» تتبنى اتجاهاً يقضي بضم الأراضي الفلسطينية المحتلة إلى إسرائيل ومنح الفلسطينيين حكماً ذاتياً محدوداً في المسائل المتعلقة بالتعليم والأحوال الشخصية والقضاء والصحة وغيرها من المجالات.

أما قوى اليسار في إسرائيل فتتبنى اتجاهاً يقضي بتنفيذ مبدأ «الأرض مقابل السلام» مع بعض الترتيبات الأمنية التي تضمن أمن إسرائيل.

وفي ضوء هذا الانقسام بين القوى السياسية حول مصير الأراضي المحتلة تتأرجح اتجاهات الهوية في إسرائيل بين اليهودية والإسرائيلية.

الأقلية العربية في إسرائيل

من مظاهر التوتر والصراع التي يسجلها المؤلف في كتابه وجود أقلية عربية فلسطينية داخل إسرائيل وصل عددها في عام ١٩٩٦م إلى ما يزيد على مليون مواطن عربي، ويعد وجودهم داخل دولة إسرائيل بمنزلة خطر يهدد هوية إسرائيل بوصفها دولة يهودية الطابع، وينقسم الإسرائيليون حول هذه الإشكالية بين مؤيد لاستمرار وجودهم مواطنين إسرائيليين في إطار أخذ الدولة بمبدأ التعددية القومية والثقافية على غرار ما هو قائم في أمريكا، وبين رافض لهذا المبدأ انطلاقاً من الحرص على نقاء الطابع اليهودي للدولة.

الشتات اليهودي

يعدّ الموقف من «الشتات اليهودي» إشكالية أخرى اختلفت حولها مواقف التيارات الثقافية السياسية في إسرائيل، فالحركة الصهيونية منذ البداية رفعت شعار «رفض المنفى»، ولكن بعد قيام الدولة وخوض إسرائيل عدداً من الحروب مع العرب اتجهت إلى تعديل موقفها، وانتقلت من «رفض الشتات» إلى «تقدير الشتات» ولاسيما الشتات اليهودي في أمريكا وأوروبا الغربية الذي أصبح مصدر دعم مادي وعسكري عظيم لإسرائيل، وبدلاً من أن تكون إسرائيل هي المسؤولة عن حماية اليهود في العالم، أصبح الشتات اليهودي هو المنوط به حماية إسرائيل ودعمها، وصمام الأمان لاستمرار وجود الدولة اليهودية.

ويؤكد المؤلف أن هذه التوترات والصراعات الدائرة في إسرائيل حول عدد من القضايا أدّت إلى ظهور اتجاهات ثقافية سياسية وفكرية متعددة طرحت حلولاً لإشكالية الهوية في إسرائيل من خلال آراء مختلفة، واجتهادات متباينة، بعضها تاريخي، وبعضها ثقافي، وبعضها ديني، وبعضها تحرريّ (ليبرالي) عصري، وبعضها علماني صهيوني في محاولة لتحديد ماهية هذه الهوية.

الطرح الكنعاني للهوية

استعرض المؤلف في كتابه الطروح المختلفة للهوية في إسرائيل وأولها الطرح الكنعاني الذي ينظر أتباعه إلى حدود إسرائيل على أنها من النيل إلى الفرات، ويطالبون إسرائيل بالاحتفاظ بالمناطق المحتلة والتوسع الاستيطاني فيها، وضم الضفة الغربية وقطاع غزة إلى إسرائيل، وفرض الثقافة العبرية على سكان هذه المناطق.

ولكن أسدل الستار على الحركة الكنعانية وعلى الطرح الذي تبنته للهوية.

أما الطرح العبري فيقوم على رفض «الشتات اليهودي» وإقامة قومية قائمة بذاتها خاصة بمواليد فلسطين من اليهود، والمحافظة على طابع حياة اليهود الذين عاشوا في الشتات من حيث عاداتهم ولغاتهم وسلوكياتهم.

ولكن الركيزة التي قام عليها هذا الطرح للهوية وهي «رفض الشتات» قد سقطت وحل محلها «تقدير الشتات» والاحتياج المادي والسياسي له، وتوقف تغيير الأسماء اليهودية إلى أسماء عبرية، مما أفقد «العبرية» مسوّغات استمرارها بحسبانها طرحاً مقبولا للهوية في إسرائيل.

الطرح الإسرائيلي

يعدّ الطرح الإسرائيلي للهوية - كما يؤكد المؤلف - أحدث الآراء المقترحة للهوية، وقد بدأ مع قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م، ويقوم على أن «الإسرائيلية» إطار مشترك لكل المواطنين في دولة إسرائيل شريطة إلغاء الفواصل الفارقة بين المواطنين بسبب أصلهم القومي، والمساواة المدنية لكل سكان الدولة.

مشكلة الهوية في إسرائيل بدأت مع ظهور التيارات الرئيسة في اليهودية في بداية القرن الثامن عشر

وهذا الطرح للهوية يضم تحت عباءته عرب إسرائيل الذين يزيد عددهم على مليون نسمة، وهو طرح علماني معتدل، لا يعدّ هوية قومية، بل هوية متعددة القوميات على أساس مدني - سياسي يقوم على أساس الانتماء المدني للدولة.

الهوية اليهودية الدينية

يأتي في النهاية الطرح اليهودي للهوية الذي ينقسم - كما يوضح المؤلف - إلى عدد من الهويات الفرعية هي:

- الهوية اليهودية الإسرائيلية العلمانية: وتعبر عنها الصهيونية القومية التي تجسدها قوى اليمين الصهيوني المتطرف.
- الهوية اليهودية الدينية القومية: وتعبر عنها الصهيونية الدينية القومية المتطرفة، وتجسدها حركة «جوش إيمونيم» وقوى الاستيطان اليهودي.
- الهوية اليهودية الطائفية السفارادية: ويجسدها «السفاراديم» داخل إسرائيل كقطاع يبحث عن دور فاعل داخل المجتمع الإسرائيلي.
- الهوية اليهودية الدينية: وتعبر عنها الأحزاب الدينية السياسية والقوى الدينية غير الحزبية، وهي تجعل الدين اليهودي هو الأساس والمصدر الذي يمكن في ضوئه صياغة الهوية في المجتمع الإسرائيلي، وتسعى لتحويل إسرائيل إلى دولة يهودية دينية تحكمها مبادئ التوراة، وليس تشريعات الكنيست العلماني.

لا مفاضلة بين قراءتين صحيحتين

ردًا على الشيخ أبي عبدالرحمن الظاهري

النص العلمي لا يجوز عليه المبالغة

في العدد (٢٦٥) من مجلة الفيصل، ناقش الشيخ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري: الفرق بين ملك ومالك، تحت عنوان لا مفاضلة بين قراءتين صحيحتين. وأرجو أن تتكرموا بإحاطته بهذا التعليق.

ملك ومالك

ملك: تقال حالة التعبير عن الأمر الذي لا يرد عليه التغيّر.

مالك: تقال حالة التعبير عن الأمر الذي يخضع لمنظومة التغيِّر.

الملك القدوس: مع الإطلاق فإن ملك الله لا يتغير.

الملك الحق: كذلك فالحق لا يتغير.

ملك الناس: الناس في خلقهم هم هم . *ما خَلْقُكُم ولا بعثُكُم إلا كنفس واحدة.* **لقمان:**٢٨.

ملك يوم الدين: هي ملك وليست مالك، فالتغير في الحياة الدنيا يقوم على توالي القضاء - وهو منتظم على نظام - أما إذ تقوم الساعة فيقع القضاء مرة واحدة. *لَقُضِي بينهم.* **يونس:**١٩، ثم لا يكون بعد ذلك قضاء جديد. *يا مالكُ ليَقْضِ علينا ربُّك قال إنّكم ماكثون.* **الزخرف:**٧٧، ونلاحظ هنا أن يا مالك تتناسب مع قولهم هم إذ يريدون الانتقال من حال إلى حال، ولكنه الثبات، المسك، الظل، فهو الخلود على حال واحد.

مالك الملك: مُلك الله يقوم في منظومة تبدأ في الأرض بعد السماء من كلمة طيبه تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها - على منظومة ربها -، فالرب هو مربيها. *ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى.* **الشورى:**١٤.

وأحب أن أنوه:

أن النص العلمي - والقرآن نص علمي - لا يجوز عليه المبالغة، فالفرق بين رحمن ورحيم لا يمكن أن يفسر على أساس قيام مبالغة.

الرحمن: هو خالق المنظومة العلمية، وهي بذاتها التي انتهت إلى المنظومة الوجودية. *ربنا وسعت كلَّ شيءٍ رحمةً وعلمًا.* **غافر:**٧، الرحمة والرحيم والرحمن مشتقة من روح، فكل ما عدا الله من روح الله، فالوجود بمنظومته التي هو عليها من أمر الله. *أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون.* **النحل:**١، والروح من أمر الله. *ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي.* **الإسراء:**٨٥، لم يقل إن أمر الروح من أمر ربي، فالله يوحد بينه وبين الروح في الأمر، فالله هو ذو القوة، والوجود من قوته، القوة مطلقة لا نقف لها على كنه.

أما ظاهر الوجود فهو آثار لقوة الله، هو آلاء الله، هو ما آل من الله، ثم يعود فيؤول إليه.

الرحيم: هو من ينتهي من المنظومة إلى موجودات الوجود، والهادي إلى المنظومة علماً بها.

والرسول بالمؤمنين رؤوف رحيم، لأنه ينتهي بهم إلى العلم الصحيح فينتهون إلى الفعل الصحيح، ولا يكون الفعل صحيحاً إلا إذا انتظم على منظومة الخلق.

قُلِ ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى. **الإسراء:**١١٠، كلمة الله تعادل كلمة الرحمن، الله هو من منه الآلاء. *وما من إله إلا إله واحد.* **المائدة:**٧٣، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله. والرحمن هو خالق منظومة عليها الآلاء.

منظومة آلاء الله وفق أسمائه الحسنى، الأسماء الحسنى هي الأسماء الفُعلى للأسماء الحسنة، الأسماء الحسنة هي أسماء الكلمات الطيبة، فهي الأسماء التي لها ما بعدها في التحقيق العلمي الصحيح.

الله يختلف عن الإنسان في العلم والتعبير:

فالناس لا تنتهي إلى كامل الشمول العلمي ولا تنتهي إلى نهائيته، أما الله فهو إذ يسوق علمه في القرآن العظيم، فالعلم ينتهي إلى الشمول والنهائية؛ ولأن الناس على مشاعر، فلهذين السببين يختلف تعبير الله بالكلمة عن تعبير الناس، الكلمة من القرآن تنضبط على الكل العلمي الصحيح.

فتعبير الله كعلمه يقع في منظومة متكاملة اسمها اللسان العربي، اللسان المُعرب عن العلم.

الكلمة من القرآن لا يجوز أن تقاس على قول البشر بها. *ولقد نعلمُ أنّهم يقولون إنّما يُعلِّمهُ بَشَرٌ. لسانُ الذي يُلحِدُون إليهِ أعجميَّ*

وهذا لسانٌ عربيٌ مبين. **النحل**:١٠٣.

في الكيمياء والفيزياء لا تجوز المبالغة، فالعلم لا يقوم إلا على التعادل القيمي، سواء أثبتنا التعادل في معادلة حسابية أو كان في جملة علمية.

يجب إسناد الكلمة من القرآن إلى كامل منظومة القرآن في العلم والتعبير لنقف على المراد بها.

كمبدأ لا يجوز الاعتداء عليه

العلم لا يقاس بمقاييس النقد الأدبي. والقرآن كتاب علم.

العلم ينتهي إلى تقويم القيمة. *لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم*. **التين**:٤، أي في أحسن مكنة علمية. ثم *رددناه أسفل سافلين*. **التين**:٥، فكان بعد أول خلق له على «خلاق» أتاه إذ قاسمه إبليس. *فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا*. **التوبة**:٦٩.

هنا قامت المشاعر الإنسانية، اعتمال المشاعر أمر، وإعمال المكنة العلمية أمر آخر، لكل منهما أدوات قياس.

وأستغفر الله العظيم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أحمد الرمادي

٣ شارع الكنيسة المارونية - مصر - القاهرة

تعليقًا على «الأدب هوية العرب»

هل أحرق طارق سفنه حقًا؟

في مقالة بعنوان «الأدب هوية العرب» بالفيصل العدد (٢٧٥) للأستاذ مسعود بوبو - يرحمه الله - ذكر الكاتب في فقرة بعنوان «إبداع شق فجاج الأرض» - قوله: ومرة يكون خطبة من أمير قبيل بدء المعركة.

نذكر من ذلك خطبة طارق بن زياد حين عبر بجيشه المضيق المسمى باسمه إلى الأندلس، وحرق السفن التي أقلتهم كما يروى. ثم قام فيهم خطيبًا يحضهم على الجهاد ومما قال: «أيها الناس: أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم - والله - إلا الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم (ملجأ) إلا سيوفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي فيما حظكم فيه أوفر من حظي».

ولنا عند قوله «وحرق السفن التي أقلتهم وقفة».

- قضية إحراق طارق بن زياد للسفن التي عبر عليها جنوده إبان فتحه إسبانيا (رجب - رمضان ٩٢هـ/ يونيو - يوليو ٧١١م) وبعد أن عبر على سفنه من المغرب إلى إسبانيا لم تحظ بالتحقيق والعناية.

فقيل: إنه أحرق سفنه، ويعتمد القائلون بحرق طارق للسفن التي عبر عليها على بعض العبارات التي وردت في خطبته الشهيرة والتي تُوهم بوقوع هذا الاحتراق. وقد يكون طارق قد أمر الأسطول بالابتعاد عن الشاطئ لإيهام الجنود بأن «البحر من ورائهم» وبالعودة إلى المغرب لإحضار مزيد من المؤن والعتاد. فبعض المؤرخين الذين ينتمون إلى أزمنة مختلفة وأماكن متباينة يتجاهلون قصة إحراق طارق للسفن، ويتحدثون عن الفتح دون أدنى إشارة إليها، وكأنها شيء لا أصل له. فلم يشر إلى قصة إحراق السفن هذه أحد من المؤرخين القدماء الذين أرخوا للأندلس خلال القرن الثاني الهجري أمثال ابن عبدالحكم (ت٢٥٧هـ) صاحب كتاب «فتوح مصر والمغرب والأندلس»، وعبدالملك بن حبيب (ت ٢٣٨) صاحب كتاب «مبدأ خلق الدنيا» المعروف بتاريخ عبدالملك بن حبيب، أو المدرسة التاريخية الأندلسية التي ظهرت في القرن الرابع، أمثال ابن القوطية (ت ٣٦٧هـ) صاحب كتاب «تاريخ الأندلس».

وأول من ذكر هذه القصة هو أبو عبدالله محمد الإدريسي (ت ٥٦٠هـ) صاحب كتاب «نزهة المشتاق» إذ يقول «لما جاز طارق بمن معه من البرابر، وتحصنوا بهذا الجبل أحسّ في نفسه أن العرب لا تثق به فأراد أن يزيح ذلك عنه، فأمر بإحراق المراكب التي

جاز عليها فتبرأ بذلك عما اتهم به». وكان ذلك بعد مرور أربعة قرون ونصف القرن من تاريخ فتح طارق للأندلس، فلماذا لم يذكر أحد من المؤرخين السابقين للإدريسي هذه القصة؟

- إحراق طارق لسفنه عمل انتحاري لا يجوز شرعاً، ولا يقدم عليه مسلم.

من المعروف أن طارقاً قد اضطر قبل خوض المعركة إلى طلب المدد من موسى بن نصير عندما رأى كثرة جنود القوط، فأمده موسى قبل خوض المعركة بخمسة آلاف جندي عبرت بهم السفن إلى الأندلس، ولو طلب طارق مدداً ثانياً أو ثالثاً لأمده موسى به، فكيف يحرق طارق السفن؟! وكيف عبر موسى بجيشه الذي بلغ ثمانية عشر ألفاً بعد ذلك بعام واحد؟

فحرق السفن عمل انتحاري يحرمه الإسلام، ومغامرة ليس ثمة موجب لها. كذلك فإنه أمر لم يكن جائزاً من الناحية الإستراتيجية وليس له ما يسوغه، بل هناك ما يمنعه.

صلاح عبدالستار محمد الشهاوي

دمشيت - ٣١٧٢١ - طنطا - مصر

رداً على عبد الرحمن الجمهور

معوِّقات التعليم الحاسوبي وإيجابياته

قرأت مقالاً مهماً بعنوان «التعليم الحاسوبي غاية ووسيلة» للكاتب عبدالرحمن بن عبدالله الجمهور، وذلك في مجلة «الفيصل» العدد «٢٧٥».. وكان المقال لفتة مهمةً من الكاتب؛ لأن الحاسوب أصبح ضرورةً عصرية، ودخل جميع مجالات الحياة.. وأصبح حاجةً لا غنى عنها في البيت، والمدرسة، والمؤسسة، والمتجر... إلخ.. وينفرد الحاسوب بأهمية خاصة في مجال التربية؛ وذلك لما للتربية من أهمية بالغة، فهي التي تبني الإنسان وتنشئه وتؤهله لخوض غمار الحياة.. فأصبحت الدول تخصص ميزانيات ضخمة لإنفاقها على التعليم الحاسوبي والمعلوماتي في مدارسها؛ وذلك بغية تطوير العملية التعليمية، وتوسيع آفاق التربية.

والحاسوب هو آلة أو جهاز يقوم بعملية الحساب والتعليم وتنظيم المعلومات وتخزينها وعرضها إلكترونياً. وقد عرَّفته (دائرة المعارف البريطانية) عام ١٩٨٠م «الحاسوب أداة آلية تعمل وفق نظام إلكتروني - وتقوم بتنفيذ عمليات حسابية وتحليل معلومات، وإنجاز أعمال متعددة بموجب التعليمات التي تصدر إليها، وتختزن النتائج أو تعرضها بأساليب مختلفة»(١).

ومن إيجابيات الحاسوب أنه يريح المعلم، ويفتح أمام المتعلِّم آفاقاً واسعة من العلوم والمعارف، كما أنه يوفر الوقت في العمل؛ إذ يعمل بسرعات عالية ولفترات زمنية طويلة دون أن يشعر بالتعب أو الضيق أو الملل - كما أن الحاسوب يحفز المتعلم إلى المزيد من البحث والتنقيب والموازنة، وذلك من خلال ما يختزنه في ذاكرته من برامج منوعة وشاملة ودقيقة وشائقة.

ولكن كاتب المقال أغفل جانباً مهماً، ولم يتناوله في مقاله، وهو(٢) (معوِّقات التعليم الحاسوبي) تلك التي تنجم عن عدَّة مشكلات: أولاها عدم الاهتمام الكافي من قبل القيادات التربوية بالتعليم الحاسوبي، ومشكلة إعداد الطاقات البشرية الفنية ومحو الأمية الكمبيوترية بين المعلمين، وكذلك عدم توافر المؤسسات الفنية والتربوية المتخصصة الكافية التي تتولى إعداد حُزَم البرامج التعليمية العربية بواسطة الكمبيوتر، ومن المعوِّقات أيضاً عدم ملاءمة حزم البرامج التربوية الجاهزة والمتوافرة باللغات الأجنبية لعدم تطابقها مع المناهج المطبقة بمدارسنا المختلفة.. وثمة معوِّق آخر هو الكلفة الباهظة للتعليم الحاسوبي وما يتطلبه من أجهزة غالية ودورات تدريبية على تلك الأجهزة؛ لمعرفة نظام العمل عليها، وطريقة تخزين المعلومات فيها، وكيفية استخدامها في الغرفة الصفية.

عبدالعزيز إسماعيل أحمد

الحسكة - ص.ب ٥٦٩ - سورية

المراجع

١- مجلة «التربية» الكويتية - العدد/٢٩/ نيسان/ أبريل ١٩٩٩م.

٢- مجلة «بناة الأجيال» السورية - العدد (٣١) السنة (٨) تموز/يوليو ١٩٩٩م.

الملف الثقافي

أمسية شعرية وحوار فكري للأمير خالد الفيصل في عمّان

قيام أول منتدى للصحافة الخليجية

بيروت تحيي ذكرى مي زيادة

وفاة ناتالي ساروت ورفائيل ألبرتي وزيجريد هونكه أشهر مدافعة عن الإسلام في الغرب

فوز جان إيشنوز بجائزة جونكور وفوز كونزي بجائزة بوكر

ماركيز مواطن القرن في كولومبيا

صدور موسوعة الحركات الإرهابية

خاتمة الملف:



التين: غذاء ودواء

قلد الملك عبدالله سموه وساماً ملكياً

أمسية شعرية وحوار فكري للأمير خالد الفيصل في الأردن

استقبل العاهل الأردني الملك عبدالله بن الحسين صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل بن عبدالعزيز أمير منطقة عسير والمدير العام لمؤسسة الملك فيصل الخيرية، وقلده وساماً ملكيًا خلال زيارته مؤخراً للأردن التي استغرقت عدة أيام. حيث أقام ليلة شعرية كبرى «بقصر الثقافة» في العاصمة الأردنية عمان، وأجرى عدة لقاءات مع النخبة الثقافية والأدبية والعلمية الأردنية، وكانت زيارة سموه إلى الأردن بدعوة من الأمير طلال بن محمد بن طلال مستشار العاهل الأردني لشؤون الأمن القومي.

وفاق عدد حضور تلك الأمسية الخمسة آلاف فرد، ولم يتسن لأكثر من ألفي شخص الدخول لضيق المكان، وظلوا يستمعون إليها من مكبرات الصوت الخارجية، واتجه بعضهم إلى مشاهدتها في التلفاز الذي بثها مباشرة.

وبدأ الأمير الشاعر الأمسية بقصيدة ترحيبية جديدة لأهل الأردن، ثم أعقبها بخمس وعشرين قصيدة كان يلقيها في سياق «حواري» بين شاعر وشعر كشخصيتين محوريتين تدور حولهما



لوحة للأمير خالد الفيصل



سمو الأمير خالد الفيصل

الأحاديث، مما أضفى طابعًا دراميًا عليها.

وواصل الشاعر إبداعه ليتجاوب معه الجمهور الذي صفق طويلاً عندما ألقى الشاعر بعض قصائده التي شدا بها الفنان محمد عبده.

وقد اهتمت وسائل الإعلام الأردنية المقروءة والمسموعة والمرئية، بزيارة سموه، ونقلت وقائع الأمسية الشعرية.

واستمر بث الأمسية زهاء الساعتين، ونشرت الصحف الأردنية تقارير صحفية مطولة وشاملة عن الأمسية الشعرية، كما نشرت مقتطفات من بعض القصائد التي ألقاها سموه في الأمسية.

وفي آخر الأمسية وُزع كتيب ضم جميع قصائد صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل التي ألقاها في هذه الأمسية نفدت كميات كبيرة منه.

وكان لسموه خلال الزيارة لقاء مع نخبة من رجال الفكر والأدب والثقافة الأردنيين بمقر إقامته، وحضر اللقاء صاحب السمو الأمير بندر بن سعود بن خالد الأمين العام لمؤسسة الملك فيصل الخيرية، وصاحب السمو الملكي الأمير بندر بن خالد الفيصل، وصاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن خالد الفيصل وعدد من أعضاء الوفد المرافق والقائم بأعمال سفارة خادم الحرمين الشريفين في الأردن الأستاذ عبدالله الحمدان.

وفي بداية اللقاء ألقى رئيس جامعة مؤتة كلمة عبر فيها عن سعادة رجال الفكر والأدب في الأردن بلقاء سموه، كما ألقى الدكتور عبدالله العثيمين قصيدة شعرية عبر فيها عن تقديره لجهود سموه في دعم المؤسسات الثقافية والأدبية والعلمية وتعزيزها سواء داخل المملكة أو خارجها.

وألقت الأديبة المغربية لويزا عبدالسلام كلمة عبرت فيها عن تقديرها للمستوى الرائع للإنتاج الأدبي لسمو الأمير خالد الفيصل، وقالت: «إن تجربة

سمو الأمير خالد الفيصل تجربة متميزة امتلكت مقومات الوجود، وحازت كل مؤهلات الخلود بعد أن انطلقت من جبال عسير، وقطعت جبال الأطلسي، ووصلت إلى جبال الألب، وكانت طوال تلك الرحلة واثقة من الوصول، ومتأكدة من التواصل»، وأعقبت ذلك بقصيدة شعرية.

ونظم بعد ذلك نقاش شارك فيه عدد من قادة الفكر والأدب منهم الدكتور ناصر الدين الأسد رئيس المجمع الأردني لبحوث الحضارة الإسلامية، والدكتور سعيد التل نائب رئيس الوزراء ووزير الإعلام الأسبق، والدكتور محمد بخيت رئيس جامعة آل البيت وآخرون.

ثم تحدث صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل معبراً عن سعادته بلقاء هذه النخبة من أدباء الأردن ومفكريه، مؤكداً في الوقت نفسه ضرورة مثل هذه اللقاءات بغية خدمة الأهداف العليا للأمة العربية، ودعا سموه إلى الحفاظ على الموروث الثقافي للأمة العربية المستمد من الشريعة الإسلامية السمحة، وأضاف أن الحضارة الغربية لا تضاهي الحضارة التي ننتمي إليها، داعياً سموه إلى الإفادة من الحضارة الغربية الحديثة بما لا يؤثر سلباً في حضارتنا ومعتقداتنا.

وفي ختام اللقاء قدم رئيس رابطة الفنانين التشكيليين الأردنية هدية رمزية لسمو الأمير خالد الفيصل تمثل رسماً لمدينة البتراء الأثرية الواقعة في جنوب الأردن.

والتقى صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل بعدد من المسؤولين الأردنيين منهم: معالي رئيس الوزراء بالوكالة الأستاذ مروان الحمود، ودولة السيد زيد الرفاعي رئيس مجلس الأعيان، ومعالي الأستاذ عبدالهادي المجالي رئيس مجلس النواب، كما زار سموه مبنى رئاسة الوزراء حيث اجتمع مع رئيس وزراء الأردن بالوكالة مروان الحمود ووزير الثقافة الدكتور فيصل مرفوع.

مثمناً دور سمو الأمير سلمان بن عبدالعزيز وسمو الأمير خالد الفيصل

الأمير تركي الفيصل: معرض الكتاب مواكبة للتطورات المتسارعة في تقنية المعلومات


سمو الأمير تركي الفيصل

في إطار جهود مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية المستمرة لمواكبة التطورات المتسارعة في بيئة تقنية المعلومات، تجري الاستعدادات الآن لإقامة المعرض الأول من نوعه في الوطن العربي تحت عنوان: «معرض الكتاب الإلكتروني» وشعاره: «تقنيات المعلومات في خدمة الباحثين والبحث العلمي»، حيث يفتتح ـ بإذن الله ـ بمركز الخزامى بمدينة الرياض في بداية ذي القعدة من هذا العام ١٤٢٠هـ، بمشاركة عدد من دور النشر العربية والأجنبية المهتمة بإنتاج أوعية المعلومات في شكلها الإلكتروني.

وصرح صاحب السمو الملكي الأمير تركي الفيصل رئيس مجلس إدارة المركز أن العالم قد شهد خلال العقد الأخير من القرن العشرين طفرة واسعة في مجال تقنية المعلومات، ونتيجة للجهود المستمرة المتجددة في تطوير هذا المجال؛ أصبح النشر الإلكتروني منافساً قوياً للنشر التقليدي، لما حققه من نتائج ومزايا متعددة في الوصول إلى المعلومة المطلوبة في زمن قياسي بسهولة ويسر. وأضاف سموه أن هذا المعرض يرمي إلى تسليط الضوء على صناعة النشر الإلكتروني في جوانبها المختلفة، وتعريف كل ما هو جديد من الإصدارات الإلكترونية.

وأعرب سموه عن شكره وتقديره لصاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة

الرياض، وصاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل المدير العام لمؤسسة الملك فيصل الخيرية لتشجيعهما ودعمهما الدائمين لنشاطات المركز.

ويصاحب فترة إقامة المعرض بعض الأنشطة الثقافية المتنوعة حول مجال النشر الإلكتروني من حيث تقنياته ومزاياه...إلخ، ومن ضمنها ثلاث محاضرات عناوينها كالتالي: الكتاب الإلكتروني العربي: الواقع والآفاق المستقبلية، والنشر الإلكتروني وأثره في خدمات المكتبات ومراكز المعلومات، وآفاق الكتاب الورقي في ظل النشر الإلكتروني.

وسيحصل زوار المعرض على خصومات تصل إلى ٢٥٪ من قيمة الإصدارات الإلكترونية المعروضة.

وبدأت اللجنة المنظمة للمعرض في توجيه الدعوة إلى دور النشر والجهات ذات العلاقة بالنشر الإلكتروني التي تأمل تجاوبها ومشاركتها لإنجاح هذا المشروع الحيوي الذي يسهم في تعريف القراء والباحثين كلّ ما هو جديد ومفيد.

للمزيد من المعلومات والرد على الاستفسارات، وللحصول على نموذج طلب المشاركة في المعرض يرجى الاتصال بمسؤول اللجنة التنظيمية للمعرض على العنوان التالي:

ص.ب ٥١٠٤٩ ـ الرياض ١١٥٤٣
هاتف ٤٦٥٠١٤٣ ـ فاكس ٤٦٥٩٩٩٣
بريد إلكتروني Sjameel@ kff. com

الأمير بندر بن سعود بن خالد:

فوز زويل وجنتر بجائزة نوبل دليل على المكانة المرموقة لجائزة الملك فيصل العالمية

عبّر صاحب السمو الأمير بندر بن سعود بن خالد آل سعود الأمين العام لمؤسسة الملك فيصل الخيرية عن سعادته بفوز العالم الأمريكي جنتر بلوبل عالم الكائنات الحية المتخصص في الخلايا والجزيئيات بجائزة نوبل في الطب لهذا العام ١٩٩٩م، وكذلك فوز العالم المصري الدكتور أحمد زويل بالجائزة نفسها في الكيمياء تقديراً لدوره الرائد في متابعة حركة الذرات بالتصوير البطيء في أثناء تفاعلات كيماوية بالغة السرعة باستخدام أسرع آلة تصوير في العالم.


سمو الأمير بندر بن سعود بن خالد آل سعود

وأشار سموه إلى أن سعادته نابعة من أن هذين العالمين كان قد سبق لهما الفوز بجائزة الملك فيصل العالمية. ففي عام ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م فاز العالم الدكتور أحمد حسن زويل الأمريكي الجنسية المصري الأصل بجائزة الملك فيصل العالمية بالاشتراك، وموضوع الجائزة «الفيزياء»، وذلك لاختصاصه الرائد في استخدام أشعة الليزر للتحكم في التفاعلات الكيماوية بإعطاء الذرات الطاقة اللازمة لها في الموضع المناسب حتى تنتج التفاعلات المطلوبة فقط، ويمتنع ما سواها.

وفاز العالم الأمريكي الدكتور جنتر بلوبل أيضاً بجائزة الملك فيصل العالمية في العلوم بالاشتراك عام ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، وكان موضوع الجائزة علم الحياة «البيولوجيا» لبحوثه الرائدة التي وضعت الهيكل الفكري في ميدان فرز البروتينات وانتقالها داخل الخلايا، والطرائق التجريبية اللازمة لدراسته، وقاده ذلك إلى أكثر من اكتشاف كبير.

وأكد سموه أن فوز هذين العالمين بجائزة نوبل إضافة إلى عدد من العلماء والمفكرين الذين سبق أن فازوا بجائزة الملك فيصل العالمية دليل على المكانة الرفيعة التي وصلت إليها جائزة الملك فيصل العالمية وأنها أصبحت سباقة في هذا الشأن.

ونوه سموه بدور المملكة العربية السعودية في تكريم العلماء والمفكرين والقادة والأدباء من خلال الجوائز المتعددة المخصصة لذلك، وفي مقدمتها جائزة الملك فيصل العالمية التي تمثل جانباً من أبرز أنشطة مؤسسة الملك فيصل الخيرية منذ إنشائها عام

١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، والتي منحت لمئة واثنين وثلاثين من رواد الفكر والعلم والأدب، في خمسة فروع هي «خدمة الإسلام»، و«الدراسات الإسلامية»، و«الأدب العربي»، و«الطب»، و«العلوم».

محبرة نادرة ومخطوطات جديدة في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

اقتنى مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية مؤخراً مجموعة من القطع التراثية من بينها قطعة فنية غاية في الروعة وإتقان الصنعة، وهي محبرة من العصر السلجوقي صنعت بهرات إيران أوائل القرن السابع الهجري. يبلغ قطرها ١٠سم، وارتفاعها ٨سم وغطاؤها ٥سم مما يعطي مجموعاً يبلغ ١٣سم.



محبرة من العصر السلجوقي

والمحبرة خليط من النحاس مع معدن أسود، واشتهرت بإيران في القرن السابع الهجري.

كما اقتنى المركز مؤخراً مجموعة من المخطوطات في موضوعات علمية متنوعة، ومن تلك المخطوطات:

- الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، كتب على ورق أوربي تبدو عليه العلامات المائية على يد محمد عارف المعروف بذهني حافظ القرآن في سراي غلطة حانة سنان سنة ١٢٠٣هـ. ومجموع أوله رسالة في تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، لأبي القاسم الراغب الأصفهاني، ثم جزء منقول من كتاب دقائق الحلبية، كتب على ورق أوربي تبدو عليه العلامات المائية في القرن الثاني عشر الهجري تقريباً، وشرح فصوص الحكم، لابن عربي تأليف كمال الدين بن عبدالرزاق بن أبي غنيم الكاشي أو القاشاني، كتب على ورق أوربي تبدو عليه العلامات المائية. ذكر آخره أنه نسخ سنة ٧٥١ هـ بمحروسة قديم في زاوية بير أحمد الهمداني، والمصفى أو شرح منظومة الخلافيات في الفقه الحنفي، لأبي حفص عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي، كتب على ورق مشرقي وقد ختمه مؤلفه سنة ٦٧٠هـ تم نسخه في القرن العاشر الهجري تقريباً، والجزء الأول من صحيح البخاري، كتب على ورق مشرقي سنة ٧٨٦هـ. والرسالة الموجزة في شروط الدعوة الهادية للنيسابوري، ومختصر كتاب زينة العباد باللغة الفارسية نسخ سنة ١٢٩٨هـ، ومسالك السالكين في تراجم الصحابة باللغتين العربية والفارسية لمزار محمد عبدالستار، وأربعون حديثاً باللغة العربية وترجمتها باللغة الفارسية، وتفسير القرآن الكريم لجلال الدين المحلي في ثلاثة أجزاء، والقانون لابن سينا في ثلاثة أجزاء. (طبعة حجرية)، ومعرفة خواص الأحجار الكريمة باللغة الفارسية نسخ سنة ١١٤٦هـ. (طبعة حجرية).

تأسيس أول منتدى للصحافة الخليجية

أعلن الملتقى الخليجي الثاني للصحافة الذي أقيم في الكويت الشهر الماضي في ختام أعماله عن قيام أول منتدى للصحافة الخليجية يتضمن نظامه الأساسي تسع مواد، تقول المادة الأولى من هذا النظام: إن المنتدى هو تجمع غير رسمي يضم المؤسسات الصحافية والصحافيين في هذه المؤسسات من مواطني دول مجلس التعاون الخليجي، وهو مؤسسة غير ربحية.

أما المادة الثانية فتؤكد سعي المنتدى إلى ترسيخ مفهوم التعاون بين دول المجلس، وفي إطار الأسس والمبادئ التي قام عليها المجلس، في صيغة عملية، وفي حدود الاختصاص المهني للمؤسسين، كذلك يرمي المنتدى إلى تأهيل العناصر الوطنية وتسهيل استيعابها في المؤسسات الصحافية من خلال المراكز

التدريبية أو غيرها وتوثيق روابط الود والصداقة بين الصحافيين العاملين في دول مجلس التعاون.

وتؤكد المادة الثالثة من النظام الأساسي أن المنتدى يسعى إلى تحقيق أهدافه بالوسائل القانونية، وبالتعاون مع الجهات ذات العلاقة، سواء أكانت رسمية أم خاصة.

وتجيز المادة الرابعة للنظام الأساسي، لمن يرغب من مواطني دول مجلس التعاون العاملين في المؤسسات الصحافية، الانضمام إلى المنتدى، ويشترط لذلك فقط حصوله على ترشيح رئيس تحرير الصحيفة المشاركة في المنتدى والتي يعمل فيها طالب العضوية.

وتتكون مالية المنتدى حسب المادة الخامسة، من الاشتراكات السنوية التي تدفعها المؤسسات الصحافية المشاركة (تبلغ نحو ٦ آلاف دولار لكل مؤسسة).

ويتكون ميثاق التعاون (الشرف الصحافي) الذي وقعه المشاركون من خمس مواد رئيسة أهمها تأكيد أن «حرية الصحافيين أمر تقابله المسؤولية، وأن ممارسة الحرية دون مسؤولية تؤدي إلى الانحراف، وأنه إذا انعدمت الحرية غابت الممارسة المسؤولة».

ونال رئيس تحرير صحيفة «الوطن» الكويتية، التي استضافت فعاليات الملتقى، تزكية المؤتمرين رئيساً للمنتدى لمدة سنة، كما تم اختيار ثلاثة رؤساء تحرير يشكلون هيئة إدارية للمنتدى.

وقد أقام الشيخ سالم الصباح نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع الكويتي مأدبة عشاء لرؤساء تحرير الصحف الخليجية.

وكان الملتقى قد أجل النظر في اقتراح لرئيس تحرير صحيفة «السياسة» الكويتية أحمد الجار الله الذي يقضي بمطالبة حكومات دول مجلس التعاون بعدم إغلاق الصحف إلا بعد حكم قضائي، حيث يتم النظر فيه في الملتقى القادم الذي تنظمة صحيفة البيان الإماراتية بعد ستة أشهر.

مي زيادة في احتفالات «بيروت ١٩٩٩م عاصمة ثقافية للعالم العربي»


مي زيادة

رعى العماد أمين لحود رئيس الجمهورية اللبنانية مهرجاناً تكريمياً لذكرى الأديبة الراحلة «مي زيادة» الذي نُظم في سياق نشاطات «بيروت ١٩٩٩م عاصمة ثقافية للعالم العربي»، ودعت إليه «لجنة تكريم مي زيادة»، وتضمن هذا الاحتفال مشاركة واسعة من وزراء ونواب وشعراء وأدباء وكتّاب وإعلاميين بالإضافة إلى عدد من آل زيادة.

بدأ الحفل بكلمة وزير الثقافة اللبناني محمد يوسف بيضون جاء ممثلاً للرئيس لحود، وألقى هنري زغيب كلمة وزيرة الثقافة السورية نجاح العطار التي أرسلت برقية اعتذار عن الحضور، وألقى بعدها السفير المصري عادل الخضري كلمة وزير الثقافة المصري الدكتور فاروق حسني وألقت الأديبة سلمى الحفار الكزبري كلمة الافتتاح.

وكانت الكلمة الأخيرة في الاحتفال لعائلة زيادة التي أنابت عنها إسكندر جان زيادة. وضم الاحتفال معرضاً ضم عود مي الذي كانت تعزف عليه، وكتاباً بخط يدها، ومجموعة رسائل من عدد من الأدباء، بالإضافة إلى مؤلفاتها المنشورة، وصورها مع عائلتها، وأوراق خاصة أخرى.

وكانت مي زيادة قد ولدت في ١١ فبراير/ شباط ١٨٨٦م في مدينة الناصرة التي هاجر إليها والدها من لبنان للعمل بالتدريس بها، أما والدتها «نزهة خليل معمر» فهي سورية الأصل من «حوران» وفلسطينية الجنسية.

درست مي أولاً في مدينة الناصرة قبل أن تنتقل إلى لبنان لمواصلة دراستها الثانوية في مدرسة الراهبات، وهناك بدأ ظهور موهبتها الشعرية في تأليفها عدداً من القصائد باللغة الفرنسية جمعت فيما بعد في ديوان نشر في القاهرة عام ١٩١١م تحت توقيع «إيزيس كوبيا».

وانتقلت إلى القاهرة مع أبويها عام ١٩٠٧م لتعمل في تدريس بنات الذوات اللغتين الفرنسية والإنجليزية، وتابعت دراستها في الوقت نفسه في تعلم اللغتين الإيطالية والألمانية.

وتولى والدها رئاسة تحرير صحيفة «المحروسة»، فصارت تنشر فيها مقالاتها تحت أسماء مستعارة حتى استقرت أخيراً على الحرفين الأول والأخير من اسمها الحقيقي «ماري» لتصبح «مي» وأصبح الاسم الذي عرفت به فيما بعد.

انخرطت مي في العمل الثقافي والأدبي فكانت ندوتها الأدبية الأسبوعية الشهيرة والتي أسستها عام ١٩١٢م وكان يؤمها، خلال عشرين عامًا، كبار الأدباء والشعراء، ثم توالى نشاطها الأدبي فانتخبت عضواً مراسلاً للرابطة القلمية في نيويورك عام ١٩٢٠م، وكان قد رشحها لهذا المنصب ميخائيل نعيمة. وترجمت مي خلال هذه الفترة ثلاث روايات عن الألمانية والإنجليزية والفرنسية، وأصدرت أحد عشر كتابا ومحاضرة، وشاركت خطيبة في مناسبات كثيرة في مصر ولبنان.

اعتزلت مي الحياة الأدبية عام ١٩٣٢م، وتوفيت في ١٩ أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٤١م.

وقد رفع أهالي بلدة شحتول الكسروانية اللبنانية مذكرة إلى وزير الثقافة اللبناني محمد يوسف بيضون يطالبون فيها أن تسعى الحكومة اللبنانية إلى إعادة رفات الأديبة الراحلة مي زيادة ابنة هذه البلدة إلى بلدتها من مصر، وإطلاق اسمها على مدرسة البلدة وأحد شوارعها، كما أعلنوا عن استعدادهم لدعم الحكومة ماليا لتحقيق هذه الرغبة.

افتتاح معرض الشارقة الدولي للكتاب


الشيخ سلطان القاسمي

افتتح الشيخ سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى حاكم إمارة الشارقة والشيخ عصام بن صقر القاسمي رئيس دائرة الثقافة والإعلام بحكومة الشارقة في الشهر الماضي، معرض الشارقة الدولي للكتاب في دورته الثالثة عشرة.

شارك في هذا المعرض (١٨) دولة عربية و(١٥) دولة أجنبية تمثلها (٧١٨) دار نشر، منها (٥٢٥) دارًا عربية شاركت بما يقارب (٥٠٫٠٠٠) عنوان، و (١٩٣) دارًا أجنبية شاركت بما يقارب (٣٨٫٠٠٠) كتاب أو عنوان.

وأقيم على هامش هذا المعرض عدد من المحاضرات الثقافية، والليالي الشعرية، والأمسيات الموسيقية، والمعارض التشكيلية، بالإضافة إلى نشاطات يومية للأطفال شملت حلقات إبداعية في مجالات الكتابة.

واللافت للنظر في هذا المعرض تنامي المشاركة الخليجية، إذ شارك من المملكة العربية السعودية (٥٣) دار نشر شكّلت نسبة ١ر١٢٪ من العدد الكلي، و(٣) دور نشر من البحرين، و(٣) دور نشر من قطر، ودارا نشر من عمان، و(١١) دار نشر من الكويت، و(١٠٠) دار من الإمارات.

وتمّ خلال المعرض تكريم عدد من دور النشر العربية من مصر والأردن ولبنان، وتكريم شخصيات تعنى بالنشر، ولها دور بارز في حركته في هذه الدول، كما أعلن خلال المعرض أيضًا عن جائزة الكتاب المحلي، وأقيم عدد من الحفلات المصغرة لحفز المبدعين الجدد من الكتّاب والشعراء الخليجيين والعرب.

لوس أنجلوس
تكرم دريد لحام ومنى واصف


دريد لحام

تحت عنوان «حياة من العطاء» قرر النادي العربي السوري الأمريكي في مدينة لوس أنجلوس الأمريكية أن يمنح جائزته التكريمية لهذا العام للفنانين السوريين دريد لحام ومنى واصف.

ويعد هذا التكريم التاسع بالنسبة إلى الفنانة منى واصف هذا العام، إذ تم تكريمها في عدد من المهرجانات والصحف العربية، كما تم اختيارها لعضوية لجان تحكيم بعض المهرجانات، مثل مهرجان تطوان ومهرجان الخليج، كما قامت بتكريمها صحيفة الأخبار التونسية، وصحيفة الشرق اللبنانية، وهو أمر جعل الفنانة منى تتفاءل بالرقم (٩) بحسبانها كرمت (٩) مرات في عام يحمل الرقم ٩٩٩.

أطلس للتطبيع

دعا المؤتمر الدائم لمناهضة الغزو الثقافي «الإسرائيلي» في لبنان، الحكومة اللبنانية إلى سحب كتاب الأطلس الجديد من الأسواق والمكتبات اللبنانية.

وكان هذا الأطلس، الذي وزعته في الأسواق اللبنانية دوائر تعليمية وإعلامية أجنبية مرتبطة بسياسة التطبيع مع إسرائيل، يحتوي على معلومات ومصطلحات ومفردات تاريخية وجغرافية وثقافية تدعو إلى التطبيع مع إسرائيل وتدل دلالة واضحة على عنصرية إسرائيل وعلى وجودها الطارئ والدخيل على المنطقة.

جائزة لتلفزيون السودان

فاز تلفزيون السودان بالمركز الأول في مهرجان البرامج العربية الذي أقيم بتونس مؤخراً، وكان السودان قد شارك بفيلمين: الأول بعنوان «رث الشلك» وهو من إعداد وسيناريو النور الكارس، وتصوير علي مصطفى، وإخراج سيف الدين حسن، والفيلم يحكي عن حياة قبيلة الشلك وكيفية تنصيب رثها «زعيمها أو ملكها».

والفيلم الثاني بعنوان «أرض الحضارات» وهو من إعداد وسيناريو النور الكارس، وتصوير بشار سيف الدين، وإخراج سيف الدين حسن، ويتحدث الفيلم عن الممالك النوبية القديمة في شمال السودان، وواقع إنسان المنطقة المعاصر.

وقد شهدت أروقة المهرجان منافسة حادة شارك فيها كثير من القنوات الفضائية العربية ومحطات التلفزيون الرسمية.

صدور معجم فريد
بثلاث لغات

صدر عن كلية الآداب في جامعة القادسية في العراق المجلد الأول من المعجم السومري الأكدي - العربي، ويعدّ هذا المعجم الأول من نوعه في العالم لكونه مكتوباً بثلاث لغات هي اللغة السومرية، واللغة الأكدية واللغة العربية.

ويحتوي هذا المعجم على تعريب الكلمات اللاتينية والكلمات المشتركة بين اللغة الأكدية واللغة العربية، كما أنه يعمل على تسهيل دراسة اللغة المسمارية الأكدية بأسلوب سهل ومبسط، مختلفاً بذلك عن باقي المعاجم الأخرى التي سبقته في هذا المجال مثل المعاجم التي صدرت عن جامعتي شيكاغو وبينسلفانيا.

ومن المقرر أن يصدر هذا المعجم في شكل متكامل في مطلع العام المقبل مكوناً من ثلاثة أقسام، قسمه الأول حول ملوك العراق القدامى حتى سقوط بابل، والثاني عن تاريخ ومواقع المدن العراقية، بينما يتناول الثالث أعلام الأساطير.

شعراء المتوسط في طليطلة

يقام في الفترة من الحادي عشر حتى الثالث عشر من شهر نوفمبر/تشرين الثاني من هذا العام مؤتمر «الفسحة الشعرية المتوسطية» الثالث الذي تنظمه «الشبكة الجامعية للشعر الأوربي - المتوسطي» في

جامعة باريس الثالثة ـ السربون الجديدة، بالاشتراك مع «مدرسة المترجمين» في طليطلة الإسبانية.

يقام المؤتمر في مدينة طليطلة الإسبانية ويشارك فيه نخبة من الشعراء المتوسطيين من إسبانيا وقبرص والمملكة العربية السعودية وألمانيا، وفرنسا، واليونان، والعراق، وإيطاليا، ولبنان، وفلسطين، وسورية، وتونس، وتركيا، أمثال: سعدي يوسف، وفوزية أبو خالد، ونزيه أبو عفش، وشربل داغر وعباس بيضون وغيرهم، ومن المقرر أن تشمل أعمال المؤتمر مداخلات، وقراءات شعرية، وترجمات من اللغات الأصلية إلى الفرنسية أو الاسبانية.

وكانت الشبكة الجامعية قد عقدت مؤتمرها الأول في مدينة ستراسبور الفرنسية عام ١٩٨٩م، والثاني في مدينة وديلف اليونانية عام ١٩٩٣م.

سعدي يوسف لاجئًا في لندن


سعدي يوسف

طلب الشاعر العراقي سعدي يوسف حق اللجوء السياسي في لندن، ويقول الخبر الذي أورده الأستاذ محمد علي فرحات في زاويته في عدد صحيفة الحياة الصادر في ٢٥ أكتوبر/ تشرين الماضي: إن محامي الشاعر يتوقع صدور الموافقة قريبًا.

ويعدّ سعدي يوسف من شعراء العراق الكبار، نشر أول قصيدة في أول عدد من مجلة «شعر» عام ١٩٥٧م، وكان أرسلها من البصرة إلى يوسف الخال في بيروت، ومنع العدد الأول من هذه المجلة في العراق.

كان سعدي قد غادر بلده للمرة الأخيرة عام ١٩٧٩م، وظل خلال العشرين عامًا الماضية متنقلاً من بلد إلى آخر، وأخيراً قرر الإقامة الدائمة في لندن، وسوّغ ذلك بقوله: «اكتملت قناعتي في السنوات الأخيرة بأن الشروط الحالية للمنطقة العربية لا تسمح باختراق ثقافي، ومن ثم لن تسمح بطه حسين ونجيب محفوظ آخرين. انتهينا من مسألة حرية التعبير، اتفقنا على إنها غائبة. لا بأس. ولكن؟ الإشكال الجارح الآن بالنسبة إليّ أن عملية التفكير بين المرء ونفسه لم تعد قابلة لأن تأخذ دورتها المعتادة. هذه الإعاقة التي تبدو ظرفية تؤدي إلى إعاقة بيولوجية. هذا هو السبب الأساسي الذي دفعني إلى الهجرة».

ومع أن السفر والاغتراب والنفي فقدت معناها مع تطور وسائل الاتصال والنقل، ومع أن آداب الأمم تسير إلى نقاط الالتقاء في الأساليب والمضامين بسبب هذه الوسائل، إلا أن الشعر، كما يقول الأستاذ محمد علي فرحات، من دون أنواع الأدب كلها «يرتبط باللغة، بتطويرها وإعادة إنتاجها بما يوافق إيقاعات الحياة ومناخاتها المتجددة».

وقد تقود غربة الشاعر وبعده عن مكان اللغة وأهل اللغة إلى عزلة تقطع الصلة بينه وبين بيئته ولغته، فيضعف تأثير شعره لدى قراء العربية ولا سيما الأجيال الجديدة التي تنمو على إيقاعات ومناخات لم يتواصل معها الشاعر جسديًا.

لكن وجود سعدي وسط جالية عراقية كبيرة مستقرة في لندن أغلبها من المهاجرين الجدد ربما يقلل من هذه الهواجس، كما أن سعدي «إنكلوفوني» وهو بهذه الصفة، كما يضيف الأستاذ فرحات، «قد يلعب دوراً إضافيًا في التبادل الثقافي مع عالم الإنجليزية الواسع الذي يعدّ اليوم هو صوت العالم كله».

الأطلال

في خبر أوردته صحيفة البيان الإماراتية في عددها رقم ٧٠٦٠ الصادر في ١٧ أكتوبر/ تشرين الأول الماضي، جاء فيه أن صحيفة «لوموند» الفرنسية اختارت قصيدة «الأطلال»، الذي وضع كلماتها الشاعر إبراهيم ناجي وصاغ لحنها رياض السنباطي. وغنتها الفنانة أم كلثوم، من بين أفضل مئة عمل فني وأدبي شكّلت ذاكرة القرن العشرين.


إبراهيم ناجي


أم كلثوم

جاء ذلك في الاستطلاع الذي أجرته الصحيفة لاختيار روائع القرن العشرين الفنية والأدبية، وجاءت «الأطلال» جنبًا إلى جنب مع السيمفونية التاسعة لبتهوفن، والرابعة والخامسة والسادسة لتشايكوفسكي.

البحريني قاسم حداد يفوز بجائزة المنتدى الثقافي اللبناني

فاز الكاتب والشاعر البحريني قاسم حداد بجائزة المنتدى الثقافي اللبناني لعام ١٩٩٨م. أعلن ذلك في باريس رئيس المنتدى نبيل أبو شقرا، وأضاف أن هذا القرار اتخذ بناءً على اقتراحات مجموعة من المثقفين العرب واللبنانيين. وكانت جائزة المنتدى الثقافي قد منحت عام ١٩٩٤م إلى الكاتب والصحافي اللبناني سمير قصير، وإلى الشاعر السوري أدونيس عام ١٩٩٥م، والروائية اللبنانية نجوى بركات عام ١٩٩٦م، وآخر جائزة كانت عام ١٩٩٧م من نصيب الكاتب اللبناني أحمد بيضون.

الاحتفال بمئوية ملك الفالس

تنظم النمسا حالياً عدة احتفالات بمناسبة مرور مئة عام على وفاة موسيقارها يوهان شتراوس، وكانت النمسا، ومنذ زمن بعيد، تعد عام ١٩٩٩م عاماً مخصصاً للاحتفال بهذه الذكرى.

بدأت الاحتفالات منذ بداية العام الحالي عبر الحفلة التي تقام في قاعة اتحاد الموسيقيين كل عام والتي تنقل حيّة ليشاهدها أكثر من بليون شخص في أنحاء العالم.

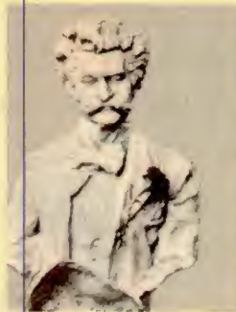
جعل شتراوس من النمسا عاصمة أخرى للموسيقى، وأصبح لحنه المشهور «الدانوب الأزرق» نشيداً وطنياً آخر للنمسا وسفيرها المتجول في معظم أرجاء العالم، عدّه النقاد أعظم موسيقار في القرن التاسع عشر، وأول موسيقار شعبي ينتقل بفرقته الموسيقية ليقدم فنّه للجمهور في مختلف المدن.

لم يقف أثر موسيقى الفالس على أوربا وحدها، فقد تقبل العرب هذه الموسيقى وتأثروا بها وظهر ذلك في اللحن الذي وضعه الموسيقار «فريد الأطرش»، وغنته أخته «أسمهان» في نهاية الأربعينيات تحت اسم «ليالي الأنس في فيينا».

ولد يوهان شتراوس في ٢٥ أكتوبر/تشرين الأول عام ١٨٢٥م في الحي السابع في مدينة فيينا، وكان والده موسيقاراً مشهوراً، وعندما بلغ يوهان التاسعة عشرة من عمره أصبح قائداً لفرقة موسيقية تعزف موسيقى الفالس في حدائق فيينا، وأصبح منافساً قوياً لأبيه.

لم يقتصر حب الموسيقى والنبوغ في هذه الأسرة على يوهان ووالده شتراوس فحسب بل أصبح أخواه جوزف وإدوارد قائدين لفرق موسيقية، وألّفا في موسيقى الفالس.

تزوج يوهان مرتين: الأولى عام ١٨٦٢م من مغنية الأوبرا هنريته تريفتس، وكانت تكبره بسبع سنوات، والثانية عام ١٨٧٨م من مغنية أخرى تصغره بخمسة وعشرين عاماً، ولكن هذا الزواج لم يستمر أكثر من أربع سنوات.


يوهان شتراوس

وألّف يوهان كثيراً من القطع الموسيقية، ولكن فالس «الدانوب الأزرق» التي ألّفها عام ١٨٦٧م تعدّ الأكثر طرباً وشهرة في العالم، وقد عرضت في المعرض العالمي في باريس عام ١٨٧٢م.

وكانت أشهر مؤلفاته في

مجال الأوبريت "Feldermaus" الخفاش التي ألّفها في نهاية عام ١٨٧٣م وقدمت للمرة الأولى في عيد الفصح عام ١٨٧٤م، على أحد مسارح فيينا الشهيرة، ويعد هذا الأوبريت الأكثر عزفًا وتمثيلاً في العالم، وله أيضًا عدد من الأوبريتات مثل أوبريت «ليلة واحدة في البندقية» عام ١٨٨٣م، وأوبريت «البارون الغجري» عام ١٨٨٥م، و«فالس القيصر»، وغيرها.

منحه القيصر فرانس جوزف أعلى الألقاب في الإمبراطورية عام ١٨٩٤م وأعطي مسؤولية قيادة الفرقة الإمبراطورية في حفلاتها السنوية.

توفي يوهان شتراوس يوم ٣ يونيو/حزيران ١٨٩٩م، وأقيمت له جنازة مهيبة، وكرمته مقاطعة فيينا بإقامة نصب تذكاري له، كما أقيم له تمثال ذهبي في حديقة المدينة «شتات بارك» فصار سكان المدينة وزوارها يتمتعون بموسيقاه في الهواء الطلق، من الشهر الرابع حتى الشهر العاشر من كل عام مجانًا.

جائزة العويس للشيخ القرضاوي

منحت جائزة سلطان بن العويس الثقافية في دبي إلى الداعية الإسلامي الشيخ يوسف القرضاوي القطري الجنسية من أصل مصري الذي يعدّ من «أبرز الشخصيات الإسلامية حاليًا».


القرضاوي

ولد الشيخ القرضاوي عام ١٩٢٦م، ويشغل حاليًا منصب رئيس قسم الدراسات الإسلامية في كلية التربية في جامعة قطر، وقد وضع الشيخ القرضاوي نحو عشرين مؤلفًا حول مختلف المسائل الإسلامية.

وتعدّ جائزة العويس من الجوائز المهمة في العالم العربي، وتبلغ قيمتها الإجمالية نصف مليون دولار توزع على خمسة من المبدعين.

فوائد الشعر لطلبة الطب

في خطوة تعدّ الأولى من نوعها قامت كلية الطب في جامعة دالهوزي الكندية بتعيين شاعر محترف ليعلم طلبة الكلية قرض الشعر، وهي تأمل أن تقود هذه الخطوة إلى تخفيف الضغوط التي يتعرض لها الطلبة وأيضًا إلى صقل موهبتهم الشعرية.

وسوّغ الشاعر المعين داوني هذه الخطوة بقوله: «خبراء الصحة يرون مدى أهمية المشاعر الإنسانية المتكاملة خلال اليوم، إلا أنه عادة لا يوجد متنفس للتعبير عن هذه المشاعر، أتمنى أن أشجع طلبة الطب على كتابة الشعر كوسيلة للتنفيس عن هذه المشاعر».

وكتب داوني، الذي كان يشغل وظيفة متخصص اجتماعي طبي، قبل أن يعين في هذا المنصب، كثيرًا من الأشعار عن الأمراض المختلفة وطرائق علاجها، وجاءت هذه القصائد تحت عدة عناوين، مثل «مصحة السل»، و«جراحة ترقيع الأعضاء»، و«وفيات الأطفال المفاجئة» وكانت آخرها قصيدة بعنوان «رقصة عظام الترقوة».

وفاة الكاتبة الفرنسية ناتالي ساروت


ناتالي ساروت

أعلن في باريس في ١٩ أكتوبر/تشرين الأول الماضي عن وفاة الكاتبة الفرنسية الروسية الأصل ناتالي ساروت عن عمر يناهز ٩٩ عامًا، وكانت الكاتبة الفرنسية تردد دائمًا أنها تود أن تودع العالم بعد أن يودعه القرن العشرون، ولكن أمنيتها لم تتحقق فرحلت قبل أن يرحل القرن العشرون.

ولدت ناتالي تشيرنياك وهذا هو اسمها الأصلي في ١٨ يوليو/تموز عام ١٩٠٠م في إيفانوفو في عائلة من المثقفين اليهود، وقد وصلت إلى باريس وهي في الثامنة من عمرها، ودرست الحقوق في باريس قبل أن تحترف الأدب في عام

١٩٤١م، وظلت ناتالي وفية للأدب فلم تتوقف عن العطاء حتى بعد أن جاوز عمرها التسعين عاماً، إذ صدرت لها روايتان، «هنا» في عام ١٩٩٥م، و«افتحوا» في ١٩٩٧م.

عدّها النقاد من واضعي أسس الرواية الفرنسية الجديدة التي بدأت مع كتابها «تروبيسم» الذي صدر في عام ١٩٣٩م، ثم سار على دربها بقية الكتاب مثل ميشال بوتور، وآلان روب غرييه، وكلود سيمون.

أصدرت الكاتبة أغلب كتبها بعد الحرب العالمية الثانية؛ لأنها أُرغمت على الاختباء في أثناء الحرب خلال الاحتلال الألماني لفرنسا، ومن مؤلفاتها: «نبذة عن مجهول»، عام ١٩٤٦م، و«ثمار الذهب». عام ١٩٦٤م، و«هل تسمعونهم» عام ١٩٧٢م، و«استخدام الكلمة» عام ١٩٨٠م، و«طفولة» عام ١٩٨٣م.

ولها أيضاً عدة مسرحيات منها: مسرحية «الكذبة» عام ١٩٦٧م، و«أنه شيء جميل» عام ١٩٧٥م، و«أنها هنا» عام ١٩٧٨م.

حصلت ساروت على عدد من الجوائز، منها: الجائزة الدولية للأدب التي حصلت عليها عام ١٩٦٤م، والجائزة الوطنية الكبرى للآداب عام ١٩٨٢م، والجائزة الكبرى لاتحاد الكتاب ومؤلفي المسرح عام ١٩٩٦م.

سرقة بيضة ديناصور

أعلن مدير معهد فريليخت، في مدينة مونشينهاجن بالقرب من هانوفر شمال ألمانيا، بيرند فولتر، عن سرقة بيضة ديناصور يعود تاريخها إلى ٩٥ مليون سنة من المتحف بواسطة مجهولين حطموا الواجهة التي كانت معروضة وراءها خلال أوقات الزيارة، وأضاف فولتر أن هذه البيضة تعد الأولى من نوعها في أوربا.

كما أوضح أن أصل هذه البيضة من الصين، وأن أعلى البيضة فصل عن بقية أجزائها واستبدل به زجاج، وذلك يسمح برؤية ما بداخلها وهي عظام صغيرة لا تتعدى المليمترات لجنين ديناصور، قام أحد الخبراء بترميمها في بريطانيا على مدى عامين.

وأكد مدير المتحف أن البيضة المسروقة لا يمكن بيعها لأنها تكاد تكون معروفة إذ كتبت عنها عدة مقالات في الصحف والمجلات العلمية في كل أنحاء العالم.

ورصد المتحف مكافأة مالية قيمتها عشرة آلاف مارك ألماني لمن يعيد البيضة المفقودة دون أن يُلحق بها أضراراً.

رحيل الشاعر الإسباني رافائيل ألبرتي



رافائيل ألبرتي

توفي يوم الخميس ٢٨ أكتوبر/ تشرين أول الماضي الشاعر الإسباني رافائيل ألبرتي آخر شعراء جيل الـ ٢٧ الذي كان ينتمي إليه أيضاً فيديركو جارسيا لوركا، وداماسو ألونسو وآخرون.

وكان رافائيل قد انضم إلى صفوف الجمهوريين خلال الحرب الأهلية الإسبانية عام (١٩٣٦ - ١٩٣٩م)، مما اضطره إلى الهجرة من بلده عام ١٩٣٩م بعد انتصار الجنرال فرانكو، ولم يعد إلى إسبانيا إلا عام ١٩٧٧م، أي بعد ٣٨ عاماً قضاها متنقلاً بين فرنسا والأرجنتين وإيطاليا.

وفي هذه المنافي كتب رافائيل أجمل قصائده التي جعلته واحداً من أفضل شعراء هذا القرن الذي شهدت بدايته ميلاد الشاعر عام (١٩٠٢م)، وشهد آخره وفاته، ومن المقرر أن يحرق جثمان الشاعر في مقبرة شيكلانادو لافرونتيرا ويلقى رماده في خليج كاديكس.

فوز جان إيشنوز بجائزة «جونكور» الفرنسية

أُعلن في باريس عن فوز الكاتب الفرنسي جان إيشنوز البالغ من العمر ٥٢ عاماً بجائزة جونكور الأدبية الفرنسية لعام ١٩٩٩م عن كتابه «إني راحل» الذي صدر عن دار «مينوي». وكان الاختيار قد تم بعد أن حصل الكتاب على سبعة أصوات مقابل ثلاثة لمصلحة كريستوف باتاي.

وصرح الأمين العام لأكاديمية «جونكور» ديدييه دوكوان أن الجائزة منحت لهذا الكتاب تقديراً لـ «تميز الموضوع وسهولة قراءة النص، وروح الفكاهة والدعابة فيه».

قلم ملكي للبيع

من المقرر أن يطرح في أواخر شهر نوفمبر الحالي /تشرين الثاني (وقت طباعة المجلة) القلم الذي وقع به الملك إدوارد الثامن قرار تنازله عن عرش بريطانيا العظمى ليتزوج من المطلقة الأمريكية «واليس سيمسون» في عام ١٩٣٦م للبيع بقاعة سوثبي للمزادات بلندن، ويتوقع أن يصل سعر القلم، وهو من نوع واترمان، بسن ذهبي بعلبته والضمان الخاص به، عشرة آلاف جنيه إسترليني (١٦٦٢٠ دولاراً أمريكياً).

وكان المكتب الذي وقع عليه الملك قرار التخلي عن العرش قد بيع في قاعة سوثبي قبل عامين مقابل ٢٥٣ ألف جنيه إسترليني «٤٠٠ر٤٢٠ دولار أمريكي».

فيلم عن مجزرة الغجر النازية

دعا «الملك العالمي للغجر» فلورين تشيوابا المخرج البوسني أمير كوستوريتسا الذي يزور بخارست حالياً إلى إخراج فيلم عن المذبحة النازية التي تعرض لها الغجر، وقال الملك إن الكثير من الكتب والأفلام وضعت عن هذه المذابح، لكن لم يتمّ إنتاج أي شيء بالنسبة إلى الغجر الذين أرسلوا إلى معسكرات الاعتقال حيث لقي ٥٠٠ ألف رجل حتفهم بطريقة وحشية.

وأبدى «الملك» استعداده لتمويل إنتاج هذا الفيلم، كما أعلن أن شقيقته الأميرة لومينيتسا تشيوابا تعد سيناريو لفيلم مستوحى من حياة والدهما الراحل الملك يوان تشيوابا الذي عاصر فترة معسكرات الاعتقال النازية.

ظهور أماكن أثرية في تركيا

ظهر مؤخراً في النمسا كتاب يتناول تاريخ منطقة إيفيسيوس التي تقع غرب تركيا وتعدّ من الأماكن الأثرية المهمة.

الكتاب بعنوان «أصدقاء إيفيسيوس» وينادي كاتبه بضرورة الحفاظ على الإرث التاريخي لهذه المنطقة الأثرية المهمة، ويدعو أيضاً إلى تقديم العون المالي للمساعدة على البحث عن الآثار في هذه المنطقة.

مهرجانات ومعارض لمشاهير عالميين


موتسارت

من المقرر أن يقام قريباً في نيويورك معرض لأعمال مشاهير الرسامين العالميين المعاصرين، حيث تعرض لهم مئة وخمسون لوحة تمثل أشهر لوحاتهم الفنية، كلوحة «المرأة ذات القبعة» للرسام الفرنسي «ماتيس ١٨٦٩ ـ ١٩٥٤م» رائد فن الوحشية في الرسم، ولوحة «آنسات أفينيون»، و«المرأة ذات الرداء الأبيض» للإسباني بيكاسو ١٨٨١ ـ ١٩٧٣م» أحد رواد التكعيبية في الرسم.

وتشهد أيضاً العاصمة النمساوية قريباً إقامة مهرجان للموسيقى في دار الأوبرا تعزف فيه مقطوعات موسيقية لأشهر الموسيقيين العالميين، كمقطوعة «دون جيوفاني» للموسيقار النمساوي موتسارت و«الأرملة السعيدة» للمجري فرانز ليهار.

إيراني يفوز بجائزة كندية

منح المهرجان الدولي للسينما ووسائل الإعلام الجديدة في مونتريال «جائزة الجمهور» للمخرج الإيراني عباس كياروستامي على فلمه «ستحملنا الرياح»، وتبلغ قيمة هذه الجائزة خمسة آلاف دولار كندي أي ما يعادل «٣٤٠٠ دولار أمريكي»، كما منح المهرجان أيضاً جائزة «الذئبة الذهبية» إلى الفرنسية كليردوني عن فيلمها «العمل الطيب».

الحركات الإرهابية في موسوعة

صدر في باريس عن دار نشر لافوزيل المتخصصة بالمنشورات العسكرية، موسوعة الحركات الإرهابية التي تضم أسماء معظم الإرهابيين في الحركات الإرهابية المعروفة، كما ضمت الموسوعة أيضاً أرقاماً حسب البلدان لضحايا الإرهاب في أوربا خلال القرن العشرين، أو ضحايا الاعتداءات الكبيرة التي جرت منذ ربع قرن.

وقام بإعداد هذه الموسوعة جاك بو العضو السابق في أجهزة الاستخبارات السويسرية الذي كان قد أعدّ من قبل «موسوعة الاستخبارات» التي تعد مرجعًا في هذا المجال.

اختيار ماركيز مواطن القرن


جابرييل جارسيا ماركيز

في استفتاء أجرته صحيفة «التمبو» اليومية في كولومبيا لاختيار «مواطن القرن العشرين»، اختار الكولومبيون الروائي جابرييل جارسيا ماركيز الحائز جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٢م.

وكتب المعلق السياسي للصحيفة معلقًا على هذا الاختيار «أن جارسيا ماركيز هو الكولومبي الأشهر في العالم خلال العقد الماضي».

وأفردت الصحيفة ملحقها الأدبي لماركيز الذي يسميه الكولومبيون تحببًا «جابو»، ونشر في الملحق عدد من المقالات عنه، منها مقالة بقلم الرئيس الكولومبي السابق ألفونسو لوبيز وأخرى بقلم الكاتب المكسيكي كارلوس فوينتيس.

كوتزي
يفوز بجائزة بوكر للمرة الثانية

فاز الروائي ج. إم. كوتزي البالغ من العمر ٥٩ عامًا من جنوب إفريقية بجائزة بوكر BOOKER للمرة الثانية عن روايته العار DISGRACE، وهو بذلك يكون الروائي الوحيد الذي يفوز بهذه الجائزة مرتين منذ إنشائها قبل ٣١ عامًا، وكان كوتزي قد فاز بها عام ١٩٨٣م عن روايته «حياة وعصر مايكل كاي».

وكان هذا الفوز مفاجأة بالنسبة إلى كثير من المراقبين الذين كانوا يرشحون مايكل فراين مؤلف الرواية الهزلية طائش HEADLONG للفوز بالجائزة هذا العام.

ولم يحضر كوتزي، الذي عرف بخجله وميله إلى العزلة، الحفل الضخم الذي أقيم في دار بلدية لندن بمناسبة تسليم الجائزة حيث كان في شيكاغو يمضي إجازته، وقرأ المحرر جيف موليغان، من دار «سيكر آند واربورغ» للنشر، الذي استلم الجائزة نيابة عنه، فقرات من رسالة بعث بها كوتزي من شيكاغو عبّر فيها عن إعجابه بالروائيين الخمسة الآخرين الذين أدرجوا ضمن لائحة المرشحين النهائية مشيرًا إلى أنهم «ليسوا أقل جدارة بالفوز منه».

وفاة الألمانية هونكه
أشهر مدافعة عن الإسلام في الغرب


زيغريد هونكه

توفيت في الأيام الماضية العالمة والمفكرة الألمانية زيغريد هونكه أشهر مدافعة عن الإسلام في الغرب. وتعد هونكه «٨٣ عامًا» أول كاتبة ألمانية تفند الأحكام المقولبة، والتهم الملفقة التي يلصقها الغرب بالعرب والمسلمين.

درست هونكه الفلسفة والأدب وعلم النفس وعلم الأديان المقارن، وتعمقت في هذه العلوم، وبرزت فيها، ويعد كتابها «شمس الإسلام تسطع على الغرب» الصادر في عام ١٩٦٠م، الذي نقل إلى سبع عشرة لغة، وبيع منه أكثر من مليون نسخة، من أهم كتبها وأشهرها على الإطلاق.

ثم كتبت «ليس الله كما يزعمون»، وفيه كشفت عن ألف حكم مسبق ضد العرب والمسلمين.

وأبانت هونكه لغير المسلمين الصورة الحقيقية للإنسان المسلم، وكشفت زيف الأحكام الأوربية المسبقة عن اضطهاد الإسلام للمرأة، ثم بينت للأوربيين التأثير الواضح للحضارة العربية في التطور في أوربا على الأصعدة كافة كالطب والهندسة والعلوم والثقافة.

نالت العالمة الراحلة عددًا من الأوسمة والأنواط، وتلقت أكثر من عشرين دعوة من رؤساء دول وحكومات وجامعات عربية وإسلامية، ولم تكن خلال هذه الزيارة في حاجة إلى إبراز جواز سفرها لموظفي الجمارك، فقد كانت معروفة لديهم من خلال أجهزة الإعلام من صحف وتلفاز، وكانت تستقبل وتودع بحفاوة أينما حلّت.

وكانت مصر قد منحتها وسام النجمة الكبرى تقديرًا لجهودها في الدفاع عن القضايا الإسلامية.



المخادمي، عبدالقادر زريق/ الأمن المائي العربي بين الحاجات والمتطلبات.- دمشق: دار الفكر، ١٩٩٩م، ٢١٥ص.

يرى الكاتب أن الأمن المائي العربي سيكون سبباً في توتر المنطقة وعدم استقرارها في الفترة القادمة خصوصاً في ظل الندرة النسبية للموارد المائية المتاحة، وانخفاض عام في كمية الأمطار، ونضوب المخزون المائي الجوفي، إضافة إلى مواقف عدد من دول الجوار التي تتحكم في منابع الأنهار العربية وتأتي على رأس هذه الدول إسرائيل.

يؤكد الكاتب أن أبعاد أزمة المياه في الوطن العربي سببها سعي إسرائيل إلى استخدام المياه سلاحاً سياسياً وورق ضغط لحل مشكلاتها مع الدول العربية.

يذكر الكاتب أن التقارير والدراسات حول الأمن المائي العربي تؤكد أن ١٥ دولة عربية ستكون عام ٢٠٠٠م، عندما يصل عدد سكان الوطن العربي ٣٠٠ مليون نسمة، تحت خط الفقر المائي.

ويتنبأ الكاتب أن أزمة شح المياه تتفاقم وتؤدي إلى حروب أهلية، وتغير أنظمة الحكم، وإلى عدم استقرار في المنطقة، وإلى التطرف السياسي، ولتجنب هذه الكوارث، يرى الكاتب، وضع خطة عربية مشتركة لمواجهة هذه التحديات.

يقع الكتاب في سبعة فصول، وفصل مدخلي وفصل خاص وخاتمة.

وثقّ المؤلف معلومات الكتاب بعدد من الجداول والخرائط والمجسّمات والإيضاحات.



الراعي، علي/ المسرح في الوطن العربي.- الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ربيع الآخر ١٤٢٠هـ/أغسطس - آب ١٩٩٩م، ٥٢٧ص.

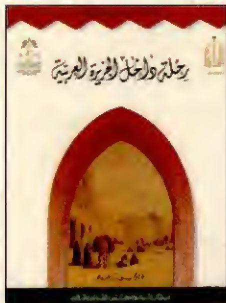
صدر الكتاب ضمن منشورات سلسلة «عالم المعرفة» الشهرية التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، وهذا هو الكتاب رقم ٢٤٨ في هذه السلسلة، وصدرت طبعته الأولى في يناير/كانون الثاني ١٩٨٠م، وهذه هي الطبعة الثانية.

حاول المؤلف في هذا الكتاب أن يرسم صورة شاملة لواقع المسرح العربي المعاصر، ووجد مشقة كبيرة في جمع المادة؛ وذلك لاتساع رقعة الوطن العربي، ولخّص ذلك في مقدمته بقوله: «الهدف العام لهذا الكتاب هو التعريف بالمسرح في الوطن العربي، وقد سلكت كل السبل المتاحة كي يكون هذا التعريف أوسع وأشمل ما تسمح به الظروف، موقناً - مع هذا - بأن جهداً أكبر لابد أن يبذل في المستقبل، كي يكون هذا التعريف كاملاً».

جاء الكتاب في أربعة أقسام وخاتمة، تحدث قسمه الأول عن «الأصول» وفيه تعرض لأشكال مختلفة من أنواع المسرح عرفها العرب منذ قرون طويلة، وجاء قسمه الثاني عن «المسرح في الشرق»، وتحدث فيه عن رواد المسرح العربي الأوائل وتعرض لتاريخ المسرح في كل من مصر، وسوريا، ولبنان، وفلسطين، والأردن، والسودان، والعراق. وفي قسمه الثالث تحدث عن «المسرح في الخليج العربي»، وقدم فيه سرداً لتاريخ المسرح في الكويت والبحرين، أما القسم الرابع فقد جاء عن «المسرح في المغرب العربي»، وفيه تعرض لتاريخ المسرح في كل من ليبيا وتونس والجزائر والمغرب.

أوجز المؤلف الحديث عن المسرح في بعض الأقطار العربية التي يرى أنها أخذت حظاً وافراً من التعريف بنشاطها مثل مصر بينما أسهب في الحالات التي وجد فيها أن التعريف بها لم يكن كافياً حتى الآن، مثل فلسطين وليبيا.

يتفاءل الكاتب في الخاتمة والتي جاءت بعنوان «المسرح العربي والمستقبل» بميلاد مسرح عربي في المستقبل مبدياً بعض النصائح لتحقيق ذلك.



أويتنج، يوليوس/ رحلة داخل الجزيرة العربية؛ ترجمة: سعيد ابن فائز السعيد.- الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ٢٦٩ص.

صدر الكتاب ضمن سلسلة «مجموعة المكتبة المئوية» التي تصدرها دارة الملك عبدالعزيز بمناسبة مرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، وترمي السلسلة إلى خدمة تاريخ المملكة ومصادره المتعددة.

قدم للكتاب صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض ورئيس مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز، مستعرضاً تاريخ المملكة، ومنوهاً بالجهود التي بذلها الملك عبدالعزيز - طيب الله ثراه - وأبناؤه من بعده في بناء هذه الدولة.

وكتب مقدمة الدارة الدكتور فهد بن عبدالله السماري الأمين العام لدارة الملك عبدالعزيز، فأوضح أن الكتاب يعد أول ترجمة عربية ليوميات رحلة المستشرق الألماني «يوليوس أويتنج»، التي زار خلالها شمال الجزيرة العربية عامي ١٨٨٣ ـ ١٨٨٤م، إذ زار كاف، والجوف، وحائل، وتيماء، وتبوك، والحجر، ومدائن صالح، والعلا، والوجه، ورسم خلال هذه الرحلة صورة دقيقة وصادقة للحياة في هذه المدن خلال تلك الفترة (إضافة إلى معلومات نادرة عن تاريخ تلك البلاد وجغرافيتها وأحوالها السياسية).

اعتمد المترجم في الترجمة على النسخة التي حررها «كرستين وأوفه بفلمن» ونشرتها دار سولدي عام ١٩٩٣م، وهي نقل حرفي مختصر عن أصل يوميات رحلة «أويتنج» إلى الجزيرة العربية التي نشرت في جزءين، الأول نشره المؤلف عام ١٨٩٦م، والثاني نشره المستشرق الألماني «إينوليتمان» بعد وفاة المؤلف بعام.

استطاع المؤلف ـ كما يقول مترجم الكتاب الدكتور سعيد ابن فائز السعيد ـ أن يقدم لنا وصفاً علمياً سليماً يقوم على أساس المشاهدة الواقعية، فقدم وصفاً دقيقاً لكل المدن التي زارها أو مرّ بها، والطرق التي سلكها، وموارد المياه التي غشاها والصحارى والحصون والقلاع، ولم يكتف في الوصف بالكلمات بل دعّم هذا الوصف بالرسم الذي كان بارعاً فيه.



أبو هاشم، عبداللطيف زكي/ المساجد الأثرية في مدينة غزة.. قطاع غزة: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بقطاع غزة، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ٢١٣ص.

الكتاب دراسة للمساجد الأثرية في مدينة غزة التي تعد من أغنى مدن فلسطين بالمساجد، وهو باكورة إنتاج وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالسلطة الوطنية الفلسطينية.

بدأ الكتاب بمقدمتين، الأولى بقلم يوسف جمعة سلامة الوكيل المساعد لوزارة الأوقاف والشؤون الدينية ومسؤول الأوقاف الإسلامية في قطاع غزة، أوضح فيها الأسباب التي دعت لاختيار دراسة المساجد الأثرية في مدينة غزة، والثانية بقلم المؤلف عبداللطيف هاشم مدير قسم التوثيق والمخطوطات والمكتبات شرح فيها الخطة التي اتبعها في إخراج الكتاب.

يقع الكتاب في أربعة عشر فصلاً، تحدث فصله الأول عن «مدينة غزة وأهميتها التاريخية وموقعها الجغرافي»، وجاء الفصل الثاني في ثلاثة أقسام: القسم الأول عن «الجامع العمري، مساحته وموقعه»، والثاني عن «النقوش الكتابية التي على أبوابه وجدرانه»، والثالث عن «مكتبة الجامع العمري الكبير ونفائس مخطوطاتها»، والفصل الثالث عن «مسجد السيد هاشم، الموقع والمساحة والتاريخ»، والرابع عن «مسجد ابن عثمان ـ موقعه وتاريخه والرقوم التاريخية المكتوبة على أبوابه وجدرانه».

أما الفصول من الخامس إلى التاسع فجاءت بالتتالي عن «جامع ابن مروان»، و«جامع كاتب الولاية»، و«جامع الشمعة»، و«جامع الشيخ زكريا»، و«جامع الأيبكي». وجاء الفصل العاشر عن مساجد أخرى.

وكان عنوان الفصل الحادي عشر «مسجد النصر في بيت حانون»، والثاني عشر «المساجد المهجورة والمندثرة»، والثالث عشر «المزارات والمقامات»، أما الفصل الرابع عشر والأخير فجاء مختصاً بـ «تعريفات للمصطلحات الأثرية والمعمارية الواردة في غضون الكتاب».

وثّق المؤلف لهذا العمل بعدد من الصور الفوتوغرافية للمساجد المؤرخ لها.



مونيكال، ماريا روزا/ الدور العربي في التاريخ الأدبي للقرون الوسطى (تراث منسي)، ترجمة: صالح بن معيض الغامدي.. الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ٢٧٣ص.

الكتاب دراسة موجهة في عمومها إلى دارسي الأدب العربي عموماً، ودارسي الأدب العربي المقارن بصفة خاصة، وإن كانت أهميتها لا تقتصر على هاتين الفئتين، بل تتعداهما لتشمل كل مهتم بدراسة أبعاد الحضور العربي الإسلامي في أوربا في القرون الوسطى سياسياً ودينياً وثقافياً وحضارياً.

بدأ الكتاب بمقدمة للمترجم قال فيها: إن من ضمن الأسباب التي دعته إلى ترجمة هذا الكتاب أن المؤلفة قدمت فيه «أطروحة تتسم بالشمولية والجدة مضمونها أن تاريخ الأدب الأوربي القروسطي قد كتب بطريقة استبعدت أو همشت (لأسباب أيديولوجية) الحضور العربي الإسلامي في أوروبا والدور الذي أدّاه هذا الحضور على المسرح

الفكري والأدبي آنذاك»، سبب آخر يتعلق بالخلفية الأكاديمية للمؤلفة التي تجعلها في - نظر المترجم - أكثر موضوعية في مناقشتها للأدب العربي الذي كتب في أوربا خلال القرون الوسطى.

يقع الكتاب في ستة فصول، جاء فصله الأول عن «أسطورة (الغربية) في علم التاريخ الأدبي القروسطي»، والثاني بعنوان «إعادة النظر في الخلفية [التاريخية]»، والثالث عن «أقدم قضية: الحب الرفيع»، والرابع عن «أحداث (اكتشاف): الموشحات»، والخامس عن «إيطاليا ودانتي وقلق التأثير»، والأخير عن «قراء آخرون وقراءات أخرى».

ورد بعد ذلك ملحق تعريف أعدّه المترجم بأهم الأعمال الأدبية المذكورة في النص، ثم ثبت المصطلحات والكلمات المهمة باللغة العربية وما يقابلها باللغة الإنجليزية، وختم الكتاب بكشاف للموضوعات.

آل أحمد، جلال/ نون والقلم (رواية)، ترجمة: عبدالوهاب علوب.. الكويت المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، يونيو /حزيران ١٩٩٩م، ٢١٩ص.



نشرت هذه الرواية ضمن سلسلة «إبداعات عالمية» التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، وهذه الإصدارة هي رقم ٣١٨.

كتبت هذه الرواية بالفارسية عام ١٩٦١م، ولم تنشر إلا في منتصف السبعينيات، وأهم ما يميز هذه الرواية هو أصالتها وإغراقها في المحلية، فهي صورة عصرية لفكرة مستوحاة من التراث المحلي الفارسي.

تعتمد الرمزية في هذه الرواية على عنصرين، هما: الزمان والمكان، فأحداث الرواية تدور في مكان وزمان لا يحددهما المؤلف صراحة، أما الموضوع فلا رمز فيه على الإطلاق، فالرواية هي قصة شعبية تشبه في إطارها القصص الشعبي الذي يروى للأطفال.

وهي تدور حول راعي غنم يجد نفسه فجأة وزيراً، ولكن يظل يذكر دائماً أصله الذي انحدر منه، متيقناً أن هذا المنصب لا محالة زائل، ويحاول قبل الموت أن ينصح أبناءه بألاّ ينخدعوا بالمناصب، وأن يذكّروا دائماً أصولهم التي انحدروا منها.

مجلة الدراسات اللغوية (مج١، ع٢، ربيع الآخر - جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ/ يوليو - سبتمبر ١٩٩٩م).



صدر العدد الثاني من «مجلة الدراسات اللغوية»، وهي مجلة فصلية محكمة تعنى بدراسة النحو والصرف واللغويات والعروض، وتصدر عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

وكان أول بحوث العدد «أساليب اجتماع الشرط والقسم» كتبه الدكتور عبدالله محمد آدم أبو نظيفة، وتناول الدكتور عبدالرحمن بن محمد العمار «لفظ ليس» ومعناها في التراث النحوي»، وتناول الدكتور عبدالعزيز الساري ما لم ينشر من كتاب «تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح»، كما ناقش الدكتور محمد العبد «إشكاليات المصطلح السيميائي».

وعرض الدكتور جاسر خليل أبو صفية مخطوطة نادرة في وزارة الثقافة والتراث القومي في سلطنة عمان بعنوان «الإبانة في اللغة العربية» لسلمة بن مسلم العوبتي الصحاري، وكتب الدكتور قاصد ياسر الزيدي عن «مشكلات النحو بين القديم والجديد».

وختمت المجلة بدراسة عن «تعليم اللغة العربية في المدارس الحكومية بغرب إفريقية الواقع والأمل»، لهارون المهدي ميغا.

الضياء (العدد ١٠، السنة السابعة، جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ/ أكتوبر ١٩٩٩م)



مجلة فكرية فصلية محكمة تعنى بقضايا المعرفة وإحياء التراث، تصدر مؤقتاً كل ستة أشهر عن دار الضياء للدراسات والنشر في موريتانيا.

جاء العدد حافلاً بعدد من البحوث التي تعالج قضايا «إسلامية المعرفة» ومختلف القضايا الإسلامية المعاصرة والمستقبلية ذات الأثر الواضح في حركة الفكر والثقافة.

بدأ موضوعات العدد الدكتور محمد عمارة ببحث عنوانه «إسلامية المعرفة: البديل الفكري للمعرفة المادية»، وتناول فضيلة الشيخ عبدالله بن بيه «موقف المؤجر من تصرفات المستأجر غير الجائزة شرعاً»، وكان موضوع الدكتورة منى عبدالمنعم أبو الفضل بعنوان «نحو منهاجية للتعامل مع مصادر التنظير الإسلامي بين المقدمات والمقومات» وغير ذلك من البحوث التي تعالج القضايا نفسها. إلى جانب مراجعة لبعض الكتب والرسائل الجامعية.

المحاسبة (العدد ٢٣، السنة السادسة، رجب ١٤٢٠هـ/أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩٩م)



مجلة ربع سنوية تصدر عن الجمعية السعودية للمحاسبة، وتعنى بطرح الأنشطة والتطورات الجارية على الساحة المحاسبية كافة مع التركيز على ما يتصل بالشؤون والقضايا المحاسبية داخل المملكة.

جاءت المجلة حافلة بعدد من الموضوعات التي تتعلق بالمحاسبة وشؤون المال والاقتصاد، وجاءت في عدة أبواب، كتب في افتتاحيتها الدكتور وابل بن علي الوابل موضوعاً عن «المجلس الاقتصادي الأعلى.. ومرحلة جديدة من بناء الاقتصاد الوطني»، وفي باب «وجهة نظر» سأل الدكتور عبيد سعد المطيري «لماذا أخفقنا عن كشف التجربة السعودية في تنظيم المهنة؟»، وفي باب «لقاء» حاورت المجلة معالي الشيخ محمد أبا الخيل وزير المالية والاقتصاد الوطني السابق، وفي باب «قضية للمناقشة» ناقش الأستاذ خالد السعيد سؤال «مستقبل المحاسبة» تحد أم تهديد؟.

ثم بريد القراء وتعريف بالجمعية وأخير قائمة بإصدارات الجمعية.

التين غذاء ودواء

أنور الإبراهيم

التين شجرة مباركة ورد ذكرها في القرآن الكريم. وتحدث عنها النبي عليه الصلاة والسلام. وهذه الشجرة الخيرة والمحبة للشمس تعد من أقدم النباتات التي عرفها الإنسان؛ معمرة، وافرة الإنتاج، وتخلف باستمرار.

لقد استطاعت أن تتأقلم مع جميع الظروف المناخية، وأوجدت طريقة للإثمار دون تلقيح. تنتج ثماراً؛ أشكالاً وألواناً تبهج النفس وتغذي الجسد.

شجرة التين من الأشجار الخمسة التي ذكرها الله تعالى في القرآن مع الزيتون والعنب والرمان والنخيل. وقد أقسم سبحانه بها في سورة التين: *والتين والزيتون وطور سينين*. التين: ١ و ٢. وهذا القسم خير دليل على كثرة منافع التين. وروى ابن قيم الجوزية في كتابه الطب النبوي عن أبي الدرداء قوله:



أهدي إلى النبي صلى الله عليه وسلم طبق من تين، فقال: كلوا وأكلُ منه وقال: لو قلت: إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه لأن فاكهة الجنة بلا عجم. فكلوا منها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس.

لقد جمع الله الأسماء والبلدان في سورة التين فالتينة هي دمشق والزيتون هو القدس (الأقصى) والطور حيث كلّم موسى ربه والبلد الأمين هو مكة المكرمة.

تعدّ شجرة التين أقدم نباتات الفاكهة التي عرفها الإنسان، وقد أورد الباحثون أنها من بين النباتات التي ترجع معرفة الناس بها إلى أكثر من أربعة آلاف عام.

لقد شكلت هذه الفاكهة مع الزيتون والعنب أساس الزراعات التقليدية لشعوب منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط. إذ وفرت لهم عبر آلاف السنين ثماراً طازجة في أيام الصيف، وثماراً مجففة غنية بالسكر على مدار العام.

لقد استخدمه الفينيقيون غذاءً ودواءً، وعرفه الفراعنة، ووجد مرسوماً على موائد الموتى في المقابر القديمة. وكانت شجرة التين مقدسة عند قدماء الإغريق حيث كان قطاف التين واحداً من الأعياد التي تبدأ منذ أول ثمرة في الموسم.

وقد ذكرها الطبيب اليوناني والفيلسوف سقراط في كتابه «دراسة في النباتات» حين تكلم على زراعته وذكر عدة من أصنافه. كما ورد ذكر شجرة التين في إلياذة هوميروس، وإلياذة زيوس، وكان الفيلسوف أفلاطون من أكثر الناس تناولاً للتين وهذا ما أعطى للتين لقب «صديق الفلاسفة».

وورد ذكر التين في كثير من المصادر العربية نثراً وشعراً ومما قاله أسامة ابن منقذ:

أماترى التين في الغصون بَدا
ممزّقَ الجلد مائلَ العُنق
كأنه رب نعمة سُلِبَتْ
أصبح ـ بعد الجديد ـ في خَلَق
مثلُ نهُودِ الأبكار صُورتُهُ
لو لم يُنَادَ عليه في الطُرُقِ
فقُم بنا سُحْرَةً نُبَاكِرُهُ
قبلَ جفافِ الندى عن الورقِ
ولا تُمِلْ بي إلى سواه فلا
أميلُ عنه ما دمتُ ذا رَمَق

والتين للشعراء كما هو للفقراء، والتين أنشودة كما هو صحة وعافية، فهو محبوب كما هو مطلوب، فقال به ابن المعتز:

قُم قد بدا ضَوء الصباح المُسْفِرِ
كيما نَلَذُّ بلون كلِّ مُبَكِّرِ
وانعَم بتينٍ طابَ طعمًا واكتسى
حُسنًا وقاربَ منظرًا من مَخْبرِ
من بَرْد بلح في قبَاءِ التين في
ريح العبيرِ وطيبِ طعم السكّرِ
يحكي إذا ما صُفَّ في أطباقه
خِيَمًا ضُرِبْنَ من الحريرِ الأصفرِ

وقد ذكر التين في الأمثال الشعبية للدلالة على المناخ «إذا صارت ورقة التين بقدر رجل القطة نام ولا تتغطى» وهذا يعني شيوع الدفء، كما أن رؤية التين في المنام تعني المال الكثير والخصب حسب تفسيري ابن سيرين والنابلسي.

الموطن الأصلي والانتشار

ينتمي التين FICUS CARICA إلى العائلة التوتية MORACEAE وهو نوع واحد من قرابة ألفي نوع يضمها الجنس FICUS ويتبعها نباتات مختلفة في إنتاج الفاكهة والتشجير ونباتات الزينة.

يعتقد بأن جنوب شبه الجزيرة العربية هو الموطن الأصلي لنشأة هذا النوع، وتستوطن الأصناف البرية للتين في بلدان الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط مما عزز الاعتقاد بأن نشأة التين أخذت مجراها من منطقة آسيا

الصغرى في الأناضول وتركيا وأفغانستان. وقد نقل إلى أوربا عن طريق الفينيقيين والإغريق، وعندما جاءت الفتوحات العربية انتقل التين إلى معظم البلدان التي وصل إليها العرب، وانتقل إلى الشرق عن طريق سورية، ووصل إلى الهند في القرن الرابع عشر الميلادي، وانتشر في الصين نحو القرن السادس عشر.

ودل الكثير من الآثار التي تعود إلى ٢٠٠٠ عام قبل الميلاد على أن زراعة التين كانت من الزراعات الرئيسة في بلدان آسيا الصغرى، وكانت عمليات التجفيف والتصدير لثماره من التجارات المهمة في ذلك الوقت. أما في الوقت الحاضر فيزرع التين بكثرة في بلدان البحر الأبيض المتوسط، وفي أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية، وفي بعض بلدان أواسط آسيا وتنتشر شمالاً حتى شواطئ البحر الأسود وبحر قزوين. وتعدّ أكثر الدول إنتاجاً لهذه المادة هي تركيا، واليونان، وإيطاليا، وإسبانيا، والجزائر، والولايات المتحدة الأمريكية.

وللتين موسمان: الأول يكون في تموز/يوليو ويتخلق من أزهار غير ملقحة (تلقيح بكري). والثاني في آب وأيلول/ أغسطس وسبتمبر، وقد يستمر حتى نهاية تشرين الثاني /نوفمبر حسب الصنف والمنطقة، ويتخلق من أزهار ملقحة، وتقوم بهذه المهمة حشرة تدعى البلاستوفاجا.

القيمة الغذائية

تتميز ثمار التين بقيمة غذائية كبيرة، وهي ذات طعم حلو ونكهة لذيذة ومميزة، وتتضح القيمة الغذائية من المثل الشائع (يوم التين ما في عجين).

يعطي الكيلو غرام الواحد من ثمار التين ٣٥٧ كالوري، و ٤ر٦غ بروتين، و ٨ر١غ دهن، و ٩٨غ كربوهيدرات، و٢٤٥ملغ كالسيوم، و١٤٥ملغ فوسفور، و ٧ر٠ملغ حديد، و ٣٥٠ وحدة دولية من فيتامين (أ)، و ٢٥ر٠ملغ ثيامين، و ٢٣ر٠ ملغ ريبو فلافين، و ٥ر٢ملغ نياسين، و ٧ر٠ ملغ فيتامين (ج).

لذلك فهو يعطي طاقة حرارية عالية، وهو مغذٍّ للجهاز العصبي والمخ نتيجة لوجود الفوسفور فيه، لذا ينصح بالتين للأطفال والشباب والرياضيين والنحفاء، ويمنع عن المصابين بالسكري والسمنة وعسر الهضم.

الفوائد الطبية

لقد أثبت الطب القديم والحديث فوائد التين الطبية في علاج أمراض كثيرة. لقد أشار الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى أنه يفيد في علاج النقرس والبواسير، وكان قدماء الفينيقيين يصنعون منه لزقات تشفي من البثور، وما زالت حتى الآن تعالج بواسطة السائل الحليبي الذي يخرج من الأفرع والثمار غير الناضجة كما استخدمها الفراعنة في علاج آلام المعدة.

وتحدث ابن سينا، وابن الرازي، وداود الأنطاكي، وغيرهم من علماء العرب عن فوائد التين الغذائية والطبية، ومما قالوه: يفتح السدد، ويقوي الكبد، ويذهب الباسور وعسر البول والخفقان والربو والسعال وأوجاع الصدر، وينفع من الصرع، ويفيد الحوامل والرضع، ويقلل الحوامض في الجسم، ويصلح الأبدان النحيفة، ويزيد من العقل وجوهر الدماغ، وينضج الأورام الغليظة وأوجاع المفاصل، ورماده مع الزيت ينقي القروح، ويجلو الآثار، ويبيض الأسنان.

ولقد أثبت الطب الحديث تأثيره القلوي الذي من شأنه إزالة حموضة الجسم والتي تنشأ من عدة أمراض. إن أغلب المواد الفعالة في التين ذات خواص مطهرة وملينة، فهو يستخدم خارجيا لمعالجة الجروح والقروح النتنة بتضميدها بثماره المجففة والمغلية. وهي تكون بشق بعض الثمار الجافة بحيث يفتح داخلها تماماً، وتغلى مدة بضع دقائق بالحليب العادي، وبعد أن تبرد قليلاً يغطى الجرح بحيث يكون سطحها الداخلي (الموجود به البذور) فوق الجرح مباشرة وتثبت فوقه بالقطن والرباط ويجدد الغيار ثلاث أو أربع مرات في اليوم حتى يزول إنتان الجرح بعد نحو ٣ ـ ٤ أيام من بدء العلاج.

إن قطع أغصان التين الصغيرة، يدهن بحليبها الثآليل صباحاً ومساءً فتذوب، ولعصير الأوراق الفائدة نفسها.

ويفيد العصير الأبيض الذي يؤخذ من حامل ثمرة التين غير الناضجة في علاج أمراض الجهاز التنفسي، فهذا العصير له تأثير قابض. وكان الأقدمون يدهنون اللحم القاسي (الجاف) بهذا العصير ليعيدوا له طراوته قبل تناوله. ويعالج التين الإمساك حتى ذا النوع المزمن أو المستعصي منه. وهو يفيد على وجه الخصوص الحوامل والمسنين، ويكون ذلك بمنقوع الثمار الجافة بوضع ٣ ـ ٤ حبات من هذه الثمار في ربع كوب من الماء البارد، وفي صباح اليوم التالي تؤكل الثمرات، ويشرب ماؤها قبل تناول وجبة الإفطار. ويمكن تناول بعض الثمار صباحاً دون نقع، وسوف تأتي بالأثر نفسه سواء كانت الثمار طازجة أو جافة.



ويفيد منقوع التين أيضاً في علاج التهابات الجهاز التنفسي مثل: التهاب القصبة الهوائية والحنجرة.

كما أن تناول كأس من هذا المنقوع قبل كل طعام يفيد في تخفيف السعال التشنجي الديكي الذي يصيب الأطفال. أما إذا استعمل المنقوع غرغرة فإنه يخفف الآلام الناجمة عن التهاب البلعوم.

كما أن استعمال ثمار التين في علاج السرطان أمر شائع في العالم، لقد حصل الدكتور كوتش (اليابان) الذي يهتم منذ زمن بعيد بخصائص التين العلاجية على نتائج مذهلة في علاج عشرين نوعاً من السرطانات التي تصيب مختلف مناطق الجسم باستخدام مركبات مستخلصة من ثمار التين. لقد عالج تسعين مريضاً من ورم سرطاني في مراحله الأخيرة، وكان مستعصيًا على الجراحة. لقد تم تقويم حالات سبعة وخمسين من المرضى الخاضعين للعلاج، إذ استجاب تسعة عشر منهم استجابة تامة للمعالجة، وعشرة مرضى استجابة جزئية (أي تراجع المرض بأكثر من ٥٠٪) وتسعة عشر آخرون لوحظ وجود تحسن ملموس في حالاتهم، وسبعة استقر المرض على وضعه قبل المعالجة، وحالتان فقط لم تستجيبا للمعالجة (سرطان الرئة).

كما لاحظ الطبيب أنه لا توجد آثار ضارة أو جانبية من جراء المعالجة بالمستخلصات المستخدمة..

حقاً أنها شجرة مباركة وتحتاج إلى من يسبر أغوارها، ويستفيد من منافعها. *ربنا ما خلقت هذا باطلاً*: **آل عمران**: ١٩١.